

جيل "النهضة" والإصلاح
في العطفاء
بلد النضال والكفاح

تأليف الشيخ
محمد بن إبراهيم سعيد كعباش

نشر جمعية النهضة
العطف - غرداية - الجزائر

حقوق الطبع محفوظة

1431هـ/ 2010م



الهاتف / فاكس : 53 .36 .88 (029)
المنطقة الصناعية : 34 .34 .87 (029)

الإيداع القانوني رقم : 2863 / 2010
ردمك: 978-9947-845- 41 - 7 :I.S.B.N

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خلق بني آدم وجعلهم خلائف في الأرض ورفع بعضهم فوق بعض درجات، وجعل اختلاف ألسنتهم وألوانهم من آياته البيّنات. نشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّدا عبده ورسوله نبي الهدى وخاتم الرسالات، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه أولي الفضل والمكرمات.

أمّا بعد:

فإنّ لكلّ مجتمع رواده في مسيرة التجديد والإصلاح، ودعاة يحدون به في مجالات النهضة والتغيير؛ لأنّ الحياة لا تعرف الهمود والركود، والمجتمع البشريّ كالكائن الحيّ تتفاعل فيه كثير من العناصر، وتتكامل فيه الأجهزة والأعضاء لتكوِّن منه كتلة منسجمة في أحسن صورة وأبدع صنع. وما المجتمع الصّالح إلاّ مجموعة من الأفراد الصّالحين، تعاهدوا وتعاونوا على نصرة الحقّ ونشر الفضيلة إيمانا منهم بسنّة التطوّر والتغيير، وأنّ الإنسان في مسار الحضارة والتمدّن بيده وحده تقرير المصير، وأنّ الله تعالى لا يغيِّر ما بقوم حتّى يغيِّروا ما بأنفسهم.

وبناء على هذه القاعدة الاجتماعية اقتضت حكمة الله تعالى أن يقيّض لكلّ مجتمع أفذاذا من الرجال يتصدّرون الركب، أدلاّء إلى الخير، أوفياء في نصرة الحقّ، دعاة إلى الأخذ بأسباب الرقيّ والازدهار، وهم قدوة لمجتمعاتهم في العزّ والفخار.

يشرّفني أن أنوِّه بذكر بعض هؤلاء الأفذاذ ممن قيّضهم الله لبلدة العطف الطيّبة -أمّ القرى لوادي ميزاب- من ولاية غرداية، بجنوب الجزائر، إذ كانوا لها أركانا في صرح مجدها: ﴿**مِّنَ الْمُومِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا**

اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّنْ يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[الأحزاب:23]. وما منهم إلاّ شيخ وقور، أو معلّم قدير، أو سريّ في قومه شهير، تركوا بصماتهم في نسيج المجتمع، لحمته حبّ الخير ونشر العلم والفضيلة، وسداه التعاون على البرّ والتقوى كما أمر الله.

والمجتمع العطفاوي مدين لهم في كلّ ما يعرفه من تطوّر وازدهار، وفي كلّ ما يتمتع به اليوم من هناء واستقرار، ويشرّفني أن أكون من رهطهم وقبيلهم.

وقد اخترت من تلك المجموعة الطيّبة من كانت له اليد الطّولى في مجالات النصح والإرشاد وعمارة بيوت الله، شيخا وقورا له المقام الأسمى في حلقة العزابة، أو كانت له اليد الطولى في مجالات التربية والتعليم، معلّما قديرا يزجي صفوف الأجيال على مقاعد الدراسة، أو عضوا إداريا في "جمعية النهضة" يدبّر شؤونها ويعلي من شأنها لتنشر الخير وتركّز العلم والمعرفة واخترت لتراجمهم عنوان:

جيل "النهضة" والإصلاح في العطفاء بلد النضال والكفاح

فهم كلّهم أكفاء في النباهة والفضل، وشركاء في الشهامة والنبل. فإن كنت قد أطنبت في تراجم البعض منهم فلأنّي واكبت حياتهم عن كثب، وقاسمتهم في الميدان ما تحمّلوه من مشقة وتعب. وأمّا من كان منهم مشغولا بالكسب والارتزاق، مغتربا عن بلده في الآفاق فقد اختصرت ترجمته غير مبخوس في حقّه ولا مذموم.

كما أنّ هناك رديفا آخر من الرفاق الذين أفضوا إلى ربّهم كانوا هم الطاقة الدافعة في نهضتنا المباركة، لا أستطيع حصر أسمائهم إذ كانوا جنود الخفاء.

ولعل الدارسين من أبنائنا يزيحون عنهم غبار النسيان، ويضيفون إلى هذه الحلقة حلقات أخرى تعرّف بهم لتتأسى بهم الأجيال.

وبعـــد: فأرجو أن أكون بهذا العمل المتواضع قد وفّيت بما عليّ مـــن بعض الحقّ لهؤلاء الأفذاذ، وكلّهم مطمئن إلى جوار ربّه. ولا يزال على قيـــد الحياة من رفاقي في الدرب من هو في القيادة والريادة يرجو من الله حســـن الخاتمة وجميل العاقبة.

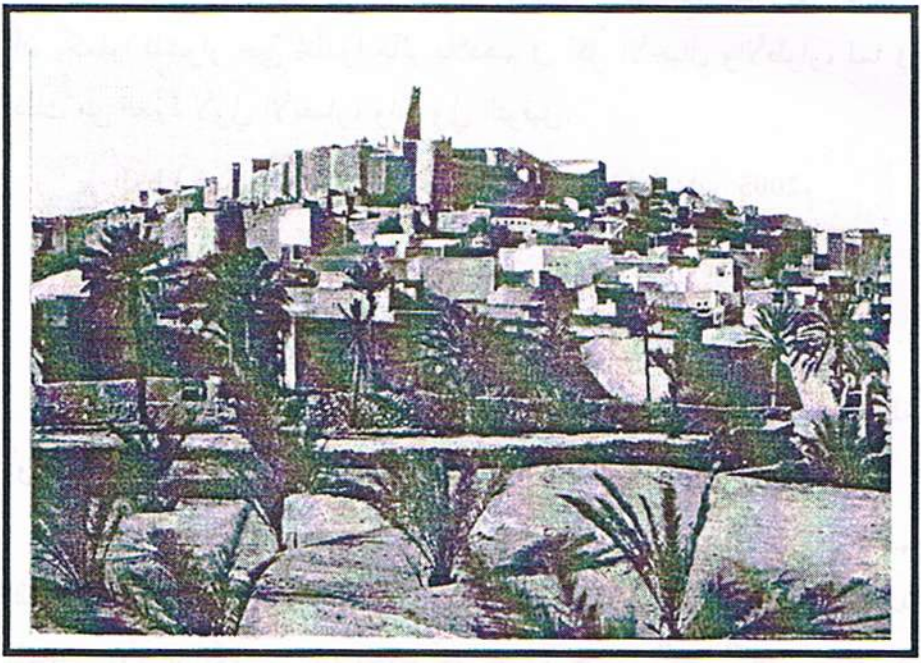
فحسبي وفاء بهؤلاء أنّني قمت بهذه البادرة، وعلى الدارسين من أبنائنـــا أن يكملوا المشوار حتّى يخلّدوا مآثر بلادهم في كلّ الأجيال والأطوار، لِما في ذلك من العبرة لأولي الأبصار، والله ولي التوفيق.

العطف يوم الجمعة 02 محرم 1426هـ - 11 فبراير 2005م

ملاحظة هامّة:

لقد أورد الشيخ محمّد سعيد كعباش كما أشار إلى ذلك تراجم مفصلة أو نبذًا عن بعض رجال هذا الجيل رغم شحّ المعلومات وصعوبة جمعها.

أمّا تسلسلها فقد كان حسب تاريخ التحاقهم بالرفيق الأعلى، رحمهم الله جميعا، عدا المؤلف نفسه الشيخ محمّد بن إبراهيم سعيد كعباش وصـــديقه المخلص الأستاذ بكلـــي بابه الحاج أحمـــد بن حمـــو "بلال" اللـــذان لا يزالان يواصلان جهادهما وتأدية رسالتهما، أطـــال الله عمـــرهما ومتّعهمـــا بالصحة والعافية.



مدينة العطف قبل التوسع العمراني بعد الاستقلال الوطني



الشيخ: الحاج إبراهيم محمد بن بهوث

1912 -1951

المعلم الذي عركته السّنون واخترمته المنون، لم يعرف قدره المتقدّمون، ويجهل فضله المتأخرون

- المدخـل:

أيّها المحفل الكريم، إخواني، أبنائي، السّلام عليكم ورحمـة الله تعـالى وبركاته. **وبعـد:**

فلطالما أحسست بوخز الضمير وتأنيب النفس أن يمتدّ بي العمر وتتوالى السنون، وأنا أشارك في مختلف التظاهرات الثقافية، وأتحدث على منابر مختلفة، بل وأسجّل من الخواطر والتأمّلات ما يهمّ من مجريات الأحداث، أو يتعلّـق بحياة كثير من الشخصيات، ثمّ لا أنبس ببنت شفة ولا أخطّ حرفا في من هو أولى باهتمامي وأجدر بمراعاتي لِما له عليّ من حقّ الأبوّة الروحية ولِما غمرني به من عطف ورعاية وتوجيه وإرشاد وأنا صبيّ محروم من عطف الأبوّة، ويتيم مكتئب يتجرّع مرارة الحرمان ويعضّ عليه الفقر بأنيابه.

ذلكم هو شيخي المرحوم الحاج إبراهيم محمد بن بهون، هذا الجنـديّ المجهول الذي عركته السنون واخترمته المنون وهو ما يزال في نضارة من العمر وذروة الإنتاج، لم يحاول أن يخيس بحق الأمانة مهما اشتدت به الضوائق، ولا أن ينتكص على عقبه مهما تظافرت عليه العوائق.

وبينما كنت أرسم الخطة لتسجيل بعض الصفحات في ترجمة هذا المعلم المحنك والمربّي العصامي الفذّ، لأخفّف عن نفسي من إحساس التقصير والتّبعة، إذا برسالة من مجموعة "الأدب والفن الإسلامي" بالعطف تطـالعني بالنبـإ السعيد، وعزمها الحميد في برمجتها لبعض التظاهرات الثقافية تتناول فيها حياة بعض الشخصيات اللاّمعة في هذا البلد الأمين، ممّن كانوا لها الأطواد الشامخة، والحصون المنيعة من عاديات الزمن وصروف الدهر، وكم كانـت فـرحتي عظيمة وسروري بالغا عندما علمت أنّ أوّل شخصـية تفتـتح بهـا هـذه التظاهرات هو شيخي المرحوم محمّد بن بهون.

فقلت في نفسي: "سبحان المدبِّر الحكيم الذي لا تضيع عنده الأعمال، ولا تلتبس لديه الأمور والأحوال، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فكأنّ المسؤولين على مجموعة "الأدب والفن الإسلامي" قد علموا ما يختـلج مـن ضميري، أو اطّلعوا على ما أدبّره من شؤوني الخاصّة، فجاء اختيارهم وفـق رغبتي، ورجاؤهم لمشاركتهم في برنامجهم طبق أمنيتي".

أفلا يعتبر ذلك من علامات التوفيق، في خلوص النيّة وصدق العزيمـة؟ ودلائل الوفاء والإخلاص لهذه الشخصية الكريمة؟ فلا يسعني في هذا المقام إلاّ أن أتوجّه بالشكر الخالص والثناء الجزيل لهذه المجموعة الفتيّة على هذه المبادرة الطيّبة والالتفاتة الكريمة، وأنا أدين لهم بحسن الجميل وعظـيم الامتنـان أن اختاروني محاضرا أو مسامرا على أصحّ التعبير، راجيا من المولى جلّت قدرته أن يمدّني بعونه، وييسّر لي الأسباب لألـمّ بجوانب هذه الشخصية وأبرز منها ما يكون قدوة للأجيال وعبرة لأولي الألباب، والله هو الموفّق للصّواب.

01- المنبت والنّشأة الطّيّبة:

أبصر الطفل نور الحياة في بيت جدّه المرحوم السيّد الحاج إبراهيم الحاج صالح بن بكير، في شارع "عيسى وموسى" من حيّ "بونقاب" بمدينة العطف، وذلك خلال سنة 1912م. وكان والداه يعيشان في كنف الجدّ الكريم، وأبوه هو المرحوم الحاج إبراهيم بهون بن الحاج صالح، وهو ثاني اثنين من أولاده الذكور، قد شبّ وترعرع وراح يضرب في أرض الله لاكتساب الرزق، فعمل أجيرا ثمّ شريكا في متاجر أولاد حاجو بمدينتي الجلفة ومسعد، بنى بوالدته المرحومة السيّدة: الحاج سعيد فافة بنت عمر، بعدما جمع قسطا من المال، فرزقهما الله هذا الولد الطيّب، وتلقّى منهما كلّ عناية ورعاية طفلا رضيعا، وغلاما يافعا، حتّى بلغ من العمر عشر سنين. وكانت الأمّ الحنون لا تلي جهدا في القيام بشؤون طفلها، بينما الوالد في حلّ وترحال ما بين العطف والجلفة ومسعد. فشاءت حكمة الله أن تتلبّد بعض الغيوم في سماء هذه الأسرة المباركة فافترق الزوجان تاركين ولدهما في كفالة جدّه في نفس البيت الذي درج فيه، ثمّ تزوّجت الأمّ بالسيّد المرحوم بهون علي الحاج أحمد بن باسعيد، فأنجبت منه أخويه للأمّ إبراهيم وسليمان، بينما الوالد لم يقدّر له الإنجاب بعد الفراق الأليم، إذ لم يعش بعد ذلك طويلا، وظلّ في عمله التجاريّ بكلّ جدّ وإخلاص إلى أن وافاه أجله في مدينة الجلفة، بعد إصابته بحمى "التّيفوس" في أوائل العشرينيات عن عمر يناهز الخمسين، وقد دفن إلى جانبه في مقبرة الجلفة جثمان المرحوم الطّالب إبراهيم بن سليمان خير النّاس.

كان عمّ الفتى السيّد الحاج إبراهيم عيسى بن الحاج صالح يكبره بسنتين تقريبا، وقد اضطرّ تحت وطأة الحاجة أن يغترب للارتزاق في سنّ مبكّرة للقيام بشؤون الأسرة، كما هو شأن أغلب الفتيان في ذلك الوقت؛ ذلك لأنّ الجدّ الكريم لم يتأثّل مالا بالاتّجار إلاّ في فترة قصيرة من عمره، فتح

فيها دكانا صغيرا بمدينة الجلفة في العقد الأوّل من هذا القرن، ولكن تجارته كانت متواضعة في صورة بدائية، يتعامل فيها مع البدو الرحّل الذين تخضع مكاسبهم لخصب السّنين أو جفافها. وقد اشتغل بتعليم الصبيان في فترة طويلة من عمره، مرّة في محضرة أبي سالم، ومرّة في منزله، مقتنعا بما يسعفه به المحسنون، وبشيء من أوقاف المسجد على الطريقة التقليدية المعروفة آنذاك.

وفي هذه القصّة التي يرويها عنه ولده السيّد: الحاج إبراهيم عيسى، ما يدل على قناعة هذا الجدّ الكريم وزهده في متاع الدنيا، إذ كان على موعد مع جيرانه السيّد بوصوفة الحاج إبراهيم للسفر إلى الجلفة على طريق القوافل، وقبل يومين من موعد السفر صادف أن تفقّد حجرة الخزين للمؤونة، فوجد كمية من القمح أو الشعير، وأخرى من الهرماس والفول، فقرّر أن لا يسافر، وفي يديه هذا الرّزق الذي لا يدري أيكتب له إنفاده أم لا؟ وهكذا أخبر رفيقه أن لا يعوّل عليه.

بقي الفتى في كنف جدّه وعمّه بعد وفاة والده في ذلك البيت المتواضع، يتردّد إلى المدرسة الفرنسية المتواضعة ذات الغرفة الواحدة، والتي لا يؤمّها إلاّ أمثاله من الأطفال الفقراء؛ لأنّها تعلّم لغة الكفر في معتقد أهل البلد آنذاك، ويذهب إلى محضرة أبي سالم ليحفظ سورا من القرآن الكريم، ويتعلّم القراءة والكتابة. وقد تداول التعليم لتلك الفترة في هذا الكتّاب كلّ من جدّه الحاج إبراهيم الحاج صالح والسيّد الحاج إبراهيم بن حمو (بياع الزّيت)، والسيّد أحمد صالح بن أحمد وهو والد السيّد زكري بن صالح، والسيّد الحاج داود بن باعزيز، ولكن هذا الأخير انتقل إلى المسجد العتيق بعد ذلك.

غير أن الفتى لم يشف غليله بتلك الحصيلة المتواضعة التي لا يمكن أن يكتفي بها طالب علم نبيه يطمح إلى المزيد من العلم والمعرفة، وتهيّئه الأقدار إلى أن يكون في يوم من الأيّام معلّما قديرا ومربّيا مثاليا في ظروف ضرب الجهل فيها بجرائه، فلا يتصدّى لهذه المهمّة النبيلة إلاّ الفقراء العجزة، ممّن لهم

إلمام بالقراءة والكتابة من خلال ختمهم للقرآن الكريم، أو حفظهم إيّاه أو بعض أجزاء منه، ولكن ما حيلته واليد قصيرة، ومنابع العلم غائرة، وأمثاله من الفتيان يضربون في أرض الله جلبا لأرزاق أسرهم، أو مساعدة لآبائهم العجزة الضعاف، كما هو شأن عمّه الذي كان ندّه في السن، وسنده في ما يكفل حاجياته ليستقرّ في البلد مدّة أخرى حتّى يبلغ أشدّه.

ولعلّ لضعف بنيته وإصابته بمرض السّلس حتّ سنّ متقدّم، لعلّ لذلك دخلا في طول مكثه بالبلد حتّ أن اقترانه بشريكة حياته سنة 1929م في حفل مشترك مع عمّه الذي تكفّل بمؤونة الزواج وتكاليفه برّا بابن أخيه اليتيم، وهكذا بنى الفتى بأمّ أولاده السيّدة: خير النّاس لالة بنت رمضان، فجمع الله بينهما بالمودّة والرحمة. وانطلقت الأسرة الكريمة تشقّ معترك الحياة بخطى وئيدة وكفاف من العيش، فكان ما ليس منه بدّ في تحمّل أعباء الحياة الدّافئة في كنف الزوجية السعيدة، كان لا بدّ للفتى أن يعتمد على نفسه، ويتكفّل بأعباء أسرته، فأيّة وسيلة يختارها لذلك، وفرص العيش نادرة، وطرق الكسب ضيّقة؟ سيّما في تلكم الحقبة العصيبة التي مرّت على العالم بالانهيار الاقتصادي في أزمة سنة 1930م. والاستعمار الفرنسي جاثم على أرض بلادنا في زهو وخيلاء يحتفل بالذكرى المئوية للاحتلال، ويمسك بخناق الشعب لا يكاد يمنحه بلغة من العيش أو فرصة للحياة الكريمة، وسكان الصحراء يلفحهم وهج الشمس، وتسفعهم السّافيات؟ فلا مفرّ من الاغتراب والضرب في أرض الله.

ارتحل الفتى إلى الشمال في أوائل الثلاثينات ليعمل أجيرا في متجر السيّد دادي حمو الحاج مسعود (الشّريف) بالحراش كما عمل في متجر السيّد الطّالب باحمد النّاصر بن صالح بالعاصمة. ولكن أنّى له أن يبقى حبيس متجر لا يجد فيه فرصة لتلاوة صفحة من كتاب، أو نخبة من اللّدات والأصحاب ممّن هم على شاكلته في التفكير والاهتمامات، وقد رويت عن السيّد الحاج مسعود الشّريف

بأنّهم قد رشّحوه لضبط الحسابات واستخلاص أثمان البضائع من الزبائن، فيظل طول النهار يسجّل انطباعاته وكلّ ما تسمعه أذناه من رفاقه في المتجر أو الزبائن كلّما واتته الفرصة للكتابة، غير أنّه لم ترقه هذه الحرفة، وهو الطموح إلى الاستزادة من العلم والمعرفة، وكانت إصابته هناك بالحمّى الراجفة مع ضعف بنيته سببا لعزمه الأكيد في السفر إلى القرارة لينهل من منبعها الذي انبجس حلوا صافيا مدرارا على يدي الشيخ الإمام بيوض الحاج إبراهيم بن عمر -رحمه الله-، ولم أجد من يحدّد لي بدقة مدّة مكثه بالقرارة، ثمّ تعيينه معلّما في مدينة غليزان.

وكما لا يعرف من ساعده في نفقات التعليم، ولكن الذي تأكّد عندي رواية عن كلّ من حرمه وعمّه أنّ ذلك كان ما بين مطلع الثلاثينات إلى السنة السابعة منها.

02- الاستقرار في البلد والعمل التربويّ:

أخذت الحركة الإصلاحية تنداح دائرتها من مركز الإشعاع من القرارة إلى قرى ميزاب. وكان الرواد الأوائل الذين آمنوا بضرورة تطوير التعليم وأساليبه يعدّون قلّة بالنسبة إلى جمهرة الشعب التي ما تزال تغطّ في نومها، وتكتفي بالطرق التقليدية المتوارثة في تعليم أبنائها. هذه القلّة المباركة قد واجهت كلّ التحديات التي تنشأ عادة في كلّ عملية تحديثية، أو تغييرية لأوضاع المجتمع المألوفة. وكان للمدرسة العصرية التي أنشأها المرحوم الشيخ بكلي أحمد بن الحاج يحيى في المسجد العتيق أثرها البالغ وصداها البعيد في نفوس المواطنين، إذ أعطت دفعا قويا للحركة الإصلاحية في مطلع الثلاثينيات على قصر فترتها نسبيا ثمّ انقطاعها بعد ذلك سنة 1938م. ممّا حدا ببعض الإخوة أن يستقدموا الشيخ محمّد بن بهون من غيلزان في أوائل سنة 1937م، ليضطلع بمهمّة التعليم في محضرة أبي سالم. وأذكر منهم السّادة: بكير بن صالح الحاج إسماعيل، الحاج عيسى صالح بن الحاج عمر. الحاج إسماعيل بهون بن بابا عيسى، وباسة الحاج يحيى بن باحريز.

وبعد انطلاق المشروع انضم إليهم السيّد سماوي الحاج حمو بن صالح، إلاّ أنّ بعض الإخوة في جماعة الجزائر العاصمة من مدعّمي الحركة التعليمية الحديثة المتمثلة في مدرسة الشيخ أحمد، وعلى رأسهم الشيخ المرحوم بكلي عبد الرحمن، رأوا أنّ فتح مؤسسة تعليمية جانبية أخرى، ربّما يؤدي إلى اصطدام الحزبية، والتراعات الطائفية، وتذبذب التلاميذ باختلاف تكوينهم، وطريقة تعليمهم، فبعثوا برسالة إلى العزابة في 29 جانفي 1937م. يستنكرون فيها ذلك حيث يقول: الشيخ عبد الرحمن ما نصّه: "فليس غرضنا -والله- أن تعمر هذه أو تلك أو لا تعمر، وإنّما غرضنا أن تضمّ جهودنا الضئيلة في معهد واحد، وتنحصر همم أبنائنا في دائرة واحدة، وننشئهم نشأة جديدة تغرس فيهم غريزة التآلف والتوادد صغارا، لينظروا إلى بعضهم رجالا بنظرة الصبا التي غرسها فيهم معهدهم الوحيد وهي أقرب طريقة لتكوين وحدة البلدة كما قلنا بخلاف ما إذا تعدّدت معاهدهم، سيّما إذا اختلفت ميول أساتذتهم، وتفاوتوا ضبطا وإرخاء، فهناك الانحلال، وهناك يصبح التلاميذ مذبذبين بين هنا وهناك، فتنعدم الثمرة من هنا وهناك انتهى النص".[1]

ونحن عندما نستعرض هذا النقد البنّاء، وننظر إليه بالنظرة الموضوعية، فإنّنا لا نملك إلاّ أن نعتبره عين الصواب والحكمة؛ لأنّني وزملائي القدامى من رواد محضرة أبي سالم، قد عشنا تلك الوضعية المربكة التي توقّعها الشيخ عبد الرحمن ورفقاؤه، إذ كنّا في تنافس حادّ قد يفضي أحيانا إلى الصراع والمواجهة مع أجيال محضرة المسجد العتيق ومدرسته، سيّما إذا التقينا في مقابر الشتاء أو عند تجوالنا على البيوت لجمع الصدقات في مناسبة المولد النبويّ الشريف وعاشوراء. ولعل الشعار الذي كان يتردّد على ألسنة الصغار في ذلك العهد يعكس هذه الوضعية في قولهم بالبربرية: "المهاوى أوادايين أدجدوج أن

1- من رسالة للشيخ محفوظة عند الأستاذ: الحاج أيوب إبراهيم القرادي.

بوسالم". وأخطرها تلك المواجهة العنيفة في التراشق بالحجارة على أسوار البلدة في العيدين. ولكنّ الله سلّم إذ قدّر بعد أشهر قلائل أن تغلق مدرسة المسجد العتيق -بكلّ أسف- فتنقطع رويدا رويدا أسباب ذلك التوتر والانفصام، وعندها أخذ الشيخ في وضع برنامج متواضع لبعض الدروس في اللّغة والفقه والسّيرة.

استقرّ المقام بالفتى في بلدته الآمنة بعد اغترابه في غيليزان لثلاث سنوات تقريبا، ولعلّه كان يستشرف هذه الغاية، وهو يشكو هناك لواعج الفراق ويعوزه السكن النفسي والسند المعنوي إلى جانب من اختاره قرين حياته يأسو جراحه، ويزيّن مراحه، فلا يحسّ بنصب المهنة، ولا تمتدّ عيناه إلى مفاتن الدنيا وزينتها، ذلك -لعمري- هو البلسم الشافي والركن الركين لمحترفي التربية والتعليم، ويا ما أثقله من عبء، وأقدسها من أمانة!

أرأيت أشرف أو أجلّ من الذي ... يبني وينشئ أنفسا وعقولا
إنّي لأعذركم وأحسب عبئكم ... من بين أعباء الرجال ثقيلا

عاد الفتى إلى وكره الدافئ في بيت جدّه الذي ترعرع فيه أمام دارنا في الشارع المذكور، وكنت قد تردّدت في ما يقرب من سنة على محضرة المسجد العتيق. وكم تمنّيت لو يسعفني الحظّ للالتحاق بالمدرسة هناك، وشاءت الأقدار أن تجمعني بشيخي من أوّل انطلاقة حركته في البلد معلّما ومربيّا في محضرة أبي سالم، وأن أكون في طليعة تلاميذه الوسطاء في السنّ وقد تعلّمت مبادئ القراءة والكتابة، فأحاطني بعناية خاصة واهتمام بالغ، لِما لي عليه من حقّ الجوار، ولما أحسّه من معاناتي في الفقر واليتم.

ولم تكن عملية التّحديث والتغيير سهلة بالنسبة إليه في تلكم الفترة العصيبة التي شهدت احتداما حادّا بين النظرية التقليدية والحركة الإصلاحية، هذه الفترة التي تمتدّ إلى أواسط العقد الرابع، بعد أن وضعت

الحرب العالمية أوزارها. وكان الاختيار صعبا بالنسبة إليه، وهو المشبّع بالروح التجديدية بعد أن تغذّى بلبان المعرفة في معهد القرارة، وتجاوب مع الحركة الإصلاحية في مهدها وهو في مقتبل العمر، واثقا بنفسه، عصاميا في تكوينه.

كان عليه أن يعرف كيف يشقّ طريقة في دروب وعرة المسالك، يساوق فيها بين طموحاته المتألّقة إلى التجديد، وبين الأوضاع المألوفة، والتقاليد الموروثة، والأفكار الهامدة الراكدة.

عرفته بجوار بيتنا وأنا ابن سبع سنين، فوجدت فيه الأب الحنون الذي غمرني بكلّ عطف وحنان، وكانت حرمه الفاضلة هي الأخرى لا تألو جهدا في استعطافي واسترضائي بما يكون بين يديها من مرطبات أو حلوى، وتناغمني بأطايب الكلام، فتذوّقت من تعاطف هذين الزوجين الكريمين طعم السعادة، وأنعشتني ندوة الأبوّة الرحيمة، واستعضت بها ما فقدته في بيتي منذ سنين عندما تركني والدي -رحمه الله- فطيما في السنة الثانية من عمري، الأمر الذي ترك والدتي -رحمة الله عليها- تضطلع بتكاليف المعاش عملا بكدّ يمينها في ضيق من الرزق، وجفاف من وطأة السنين.

تفتّحت عيناي في هذا البيت السعيد، وقد استقرّ المقام بشيخي في بلده الأمين، وكنت أتردّد عليه فأشاهده يدبّج الرسائل لبعض أعوانه وأصدقائه، أو يطالع بعض الكتب التي توفّرت لديه، وأنا الذي ما عرفت من قبل كتابا في طبعته الجديدة وتسفيره الأنيق باللّغة العربية الفصحى، فما كنّا نشاهد في المدرسة الفرنسية أمثال تلك الكتب إلاّ ما تداول بين أيدينا يومئذ من كتاب "الصّوالح" الذي يعكس مدى تحقير الاستعمار للغتنا القومية، فنشأ من كلّ ذلك في نفسي حنين بالغ إلى معرفة تلك الكتب، وميل فطري إلى تعلّم اللّغة العربية في سنّ مبكرة من عمري،

وأوّل كتاب كان يشدّ اهتمامي وكنت أتحيّن فرصة وجودي في البيت لأتسلّل إلى مكتب شيخي في دهليز الدار، فأمتّع نظري ببعض صفحاته ورسومه هو كتاب "في منزل الوصي" للأستاذ هيكل. ثمّ بعد ذلك كتاب "معجز محمّد رسول الله" للشيخ الثعالبي.

وهكذا استطاع شيخي في فترة وجيزة أن يملأ جوانب نفسي حبّا وتقديرا له وأن يصبح المثل الأعلى بالنسبة لي في الجدّية والنشاط وحبّ المعرفة، واستطعت أن أتجاوب معه في كلّ المواقف والتنظيمات التي بدأ بها عمله التربوي في البلد انطلاقا من سنة 1937م. فأصبحت الأثير من تلاميذه يوم قرّرت والدتي بدون تردّد أن ألازمه في الكتّاب، ليتولى تربيتي وتحفيظي للقرآن الكريم.

03- منهجية العمل التّربويّ:

تجمّع بين يديه في الكتّاب عدد غير قليل من أولاد الحيّ من أبي سالم يتفاوتون في السنّ، و لم يكن التنظيم التربويّ الحديث معروفا يومئذ، ولا المسار الدراسيّ في مستوياته المختلفة مطبّقا، فكان من الطبيعي أن يجتمع بين يدي الشيخ خليط من الأطفال ذوي أعمار مختلفة، يتحتّم عليه أن يرعاهم جميعا في آن واحد، ويخصّص لكلّ منهم ما يناسبه من حصص القرآن انطلاقا من التّلقين والاستظهار الجماعي للصّغار، إلى انفراد الأواسط والكبار بحصصهم في الألواح الخشبية، تطول وتقصر حسب المواهب والقدرات، مع الاستظهار الفردي في كلّ مرّة من أوّل السورة إلى حيث تنتهي الحصة الثانية في اللّوح الخشبي.

ينطلق العمل الدراسي عند الأذان الأوّل في السحر ليستمرّ إلى ما بعد صلاة العشاء، وعند السابعة والنصف صباحا ينطلق التلاميذ المرتبون في المدرسة الفرنسية، ويبقى عدد غير قليل من الأولاد ليرجعوا بعد الفطور لمتابعة عملهم حتّى منتصف النهار، ويعودوا لصلاة الظهر إلى ما وراء العصر، ثمّ من

المغرب إلى ما بعد صلاة العشاء. فإذا قدّرنا التوقيت اليومي بالساعات فإنه يزيد عن العشر في كلّ يوم.

وأمّا وظيفة المؤسسة، والإمكانيات والتجهيزات التي نعرفها اليوم، فلا وجود لها البتّة، بل لا نتصوّرها حتّى بخيالنا المحدود، ففي القاعة الوحيدة المعتّمة كنّا نتربع على الأرض أمام الشيخ يتهافت بعضنا إلى بعض كأفراخ القطا، وتختلط أصواتنا في دويّ مزعج يشتد ويضعف كلّما لوّح الشيخ بعصاه، أو هدّد بصرخته المدوية أحد التلاميذ أو مجموعة منهم، وهو يتربّع على دكّان في صدر القاعة، وفي الشتاء يفترس جلد شاة، ويتلفّع ببرنوسه الصوفي الخشن ذي اللّون الرماديّ، ومن خلال نظّارته المتواضعة كان يراقب تصرفاتنا، وهو يستمع إلى استظهار أحد الزملاء ويصحّح اللّوح للآخر في ضبط محكم، وهيبة تامّة، والويل للعاصي أو الكسول المتواني إذا مدّد بين يديه، أو أمسك عباءته بجمع يديه ليعصر بها ثيابه الخشنة فيكون الضرب بالعصا على آليتيه موجعا والعقاب مؤثرا، وإذا استظهر أحدنا حصّته بحفظ سليم ذهب ليمحو الوجه القديم من لوحته بالماء في خندق بزاوية القاعة، ثمّ يطليها بالصلصال ويجفّفها على جمر السخّان بالميضأة أو على أشعة الشمس. وكنّا نتنافس في برء الأقلام ونختار لها القصب الجيّد، كما نتفنّن في تحضير الصمغ وإعداد دواته، ونتنافس في حفظ أكبر حصّة من القرآن ليبلغ أحدنا منتهاه، في ختمة مباركة مشتهاة، يصبح بها أحد الطلبة المرموقين، وينال عند شيخه وذويه أبلغ التكريم، إذ يقام له حفل بهيج كنّا ننتظره بشوق بالغ، سيّما التلاميذ الكبار الذين يذهبون إلى دار المحتفل به مع جماعة من العزابة وإيروان لتلاوة أواخر سورة آل عمران. فتتاح لنا يومئذ فرصة الحصول على صرّة فيها كمية من الفول ورغيف وبيضة، ثمّ فرنك لكلّ واحد من الحاضرين.

وأذكر أنّني ختمت القرآن وأنا ابن عشر سنين سنة **1939**م. وكنت أستشرف بشوق عظيم ذلك اليوم الذي أكرّم فيه بهذه الحفلة، و لم يدر بخلدي

ما تتطلّبه من تكاليف، أنّى لوالدتي أن توفّرها لي، وهي لا تكاد تحصل على قوتها اليومي الضروريّ. و لم يكن يومئذ للعشائر ما نعرفه اليوم من مساعدة للفقراء أو كفالة للأيتام. أضف إلى ذلك أنّ أقربائي من أبناء عمومتي يسكنون الجزء الأسفل من المدينة فما عرفتهم وما عرفوني، فعزّ على والدتي أن أحرم من هذا التكريم، وانطوت على حزنها الكظيم، ومرّت الأيام واللّيالي فختمت سورة البقرة، وأخذت في إعادة السلكة حتّى انتهيت إلى أواخر سورة ءال عمران. فإذا بالشيخ يناديني ذات يوم ليأمرني بإعداد وليمة الختم في يوم حدّده هو بنفسه، وقد هيّأ لي كمية من الفول والقمح ومبلغا من المال. فيا للفرحة العارمة، وأنا أحمل على ظهري تلك الأرزاق لأضعها بين يدي أمّي، وهي تبكي من فرط السّرور. فلا تسل عن مظاهر البهجة التي دبّت في محيط الأسرة وعن مدى الإقبال والتعاون من صواحب أمّي وهنّ يحضّرن للوليمة، رحم الله تلك النفوس الطيّبة، وأسكنها فسيح جنانه. فهي -ولاشكّ- لا تبتغي في ذلك إلاّ وجه الله الكريم، وجبر خواطر ذلك الطفل اليتيم. إذ لا أعرف كيف تمّ ذلك، ولا بمساعدة مَن؟ وهي إحدى مبرّات هذا الشيخ الكريم.

04- الطبع والأخلاق واختيار الرفاق:

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور

لعل الشاعر العربيّ عندما نطق بهذا البيت كانت ترتسم في خياله صورة شيخنا بقامته المتوسطة النحيفة ووجهه المستطيل، تلتمع عيناه الغائرتان تحت نظّارته المتواضعة، والمستديرة الأطر، وتتدلّى من ذقنه لحيته، سوداء خفيفة لا تكاد تمتدّ إلى صدغيه، وأحيانا يحرّك فكّيه، وشفتاه مضمومتان في حركة آلية تسمع من خلالها طرطقة أسنانه، فيخيّل إليك أنّه يقضم حبّات من الفول المقليّ، وإذا ارتفعت درجة الحرارة واضطّر إلى التخفيف من الثياب الخشنة، برزت للعيان عظامه الناتئة، وتشابكت على جلده عروقه، تزيدها صورة الغضب انتفاخا كلّما همّ بالعقاب أو

لجّ في التوبيخ والعتاب. لا نراه نحن الطلاب إلاّ متزمّتا وقورا، نترقّب طلعته بكلّ حذر عندما نتجمّع في شارع للعب أو في ساحة للركض والسباق؛ لأنّه لا يفلتنا في مخافة، ولا يقبل في تأديبنا شفاعة الشافعين، كما لا يحابي في معاملاته أبناء المترفين. تستشف من نظراته رأيا حصيفا ونظرا ثاقبا، ومن سمته الوقور نفسا متحفّزة إلى معالي الأمور، وهمّة متوثبة إلى تحقيق المثل العليا، وقلبا كبيرا يحمل هموم أمّته وشعبه، حتّى ضرب به المثل في الجدّ، إذ لا ترتاح نفسه إلى الهامشيات التي يخوض فيها رفاقه في جلسات العمل، ولا إلى الهزليات التي يلتجأ إليها أحيانا للإحماض من عناء التفكير، وهو إلى ذلك عفّ اللّسان، طاهر الذيل، كريم النفس، يجود بكلّ ما عنده إذا طرقه ضيف، أو استغاث به ملهوف، وكان على قلّة ما في يديه أنيق الملبس، حسن الهيئة، لا يتظاهر بالفقر، ولا يتضايق بالحرمان، قنوع بما يسّره الله من كفاف في الرزق، لا يتطاول إلى ما عند الآخرين من متاع الدنيا، وهو الذي استنكف عنها في أوّل تجربة له في الأخذ بأسبابها.

ويروي لرفيقه الأستاذ الحاج أيوب إبراهيم بن يحيى القرادي أنه فكّر ذات مرة في الاتّجار بكسوة الصوف يجمعها من سوق العطف، ليعيد بيعها في سوق غرداية، متحيّنا في ذلك فرصة الطلوع والنزول للأسعار في مختلف الفصول، ولكن لسوء حظّه في أوّل تجربة له من هذا القبيل أن هبطت الأسعار وكسدت السوق لمدّة طويلة، بعد أن اشترى كمّية من الكسوة استنفدت كلّ ما ادّخره من المال، فاضطرّ إلى بيعها بأقلّ من ثمن شرائها، فاعتبر ذلك نذيرا من الله تعالى حتّى لا يفكّر مرّة أخرى في ما لم يخلق من أجله، وهكذا يتّعظ المخلصون الأوفياء لمهنتهم.

وممّا لا يكاد يصدّقه أبناؤنا المعلّمون من الجيل الحاضر أن يعرفوا أنّه يتقاضى لمرتبه الشهري مبلغ أربعمائة فرنك فرنسي في قيمته القديمة على يد الجماعة التي ذكرت بعض أفرادها من قبل، وذلك عندما بدأ عمله في العطف

في أواخر الثلاثينيات، فأيّة قناعة يتّصف بها هذا الرجل، وأيّة بركة تزكّي هذه الدريهمات ليسدّ بها حاجيات أسرته، ويحقّق لها العيش الكريم؟

ولعلّ الكثير يستنتج من وصفي إيّاه بالتزمّت والجدّية أنّه جافّ الطّبع، شرود عن الأصدقاء والأصحاب، كلاّ!.... فقد كان لطيف المعشر، شديد الاحتكاك بعناصر المجتمع كلّها، كوّن لنفسه هالة من أصدقائه الأوفياء، تجمعه وإيّاهم وشائج القربى وجوار السكن، وأهمّ من ذلك تربطه وإيّاهم الفكرة الإصلاحية بأمتن العرى، وأصدق الأواصر، وهم كلّ من المرحومين السّادة: الحاج إبراهيم عبد الرحمن وأخوه حمو ابنا إسماعيل، والحاج إبراهيم الحاج عيسى بن الحاج عمر (بياع الزّيت)، والحاج إبراهيم الحاج أحمد بن سليمان، والحاج أمحمد الحاج عدون بن بالحاج إبراهيم، واسماوي الحاج حمو بن صالح، والحاج إبراهيم محمّد بن الحاج إبراهيم.

كان هؤلاء الإخوة على نصيب من الثقافة المتواضعة خوّلتهم في لقاءاتهم مع شيخنا أن يرتفعوا إلى مستوى الأحداث الجارية في ذلك الوقت، داخل الوطن أو خارجه، على تفاوت في مستوياتهم بالطبع، وأبرزهم في هذا المجال إلى جانب شيخنا اسماوي الحاج حمو، وعدون بن الحاج إبراهيم، وعيسى بن الحاج عمر. كانوا يتسامرون في قراءة جرائد الشيخ أبي اليقظان -رحمه الله- وجريدة "الزهرة التونسية" و"النجاح"، وغيرها من الصحف المتداولة في ذلك الوقت، ويعلّقون على مجريات الأحداث، وهم يسايرون المسيرة الإصلاحية خطوة فخطوة، ويتجاوبون مع مواقفها في حزم وأناة، وأيّ شيء أمتع للإنسان، وأنفى لهمومه ومنغّصات صفوه من إخوان أوفياء يشدّون أزره في الملمّات ويركن إليهم إذا حزبه أمر، ويأنس بقربهم إذا مسّه ضرّ، أو يستودعهم كلّ ما يدعو إلى سرّ. لقد وجد في هؤلاء الإخوة كلّ بلسم لجراحه، وكلّ سند وأزر في أفراحه وأتراحه، رحمهم الله جميعا، وتلقاهم بالروح والريحان، وتجاوز عن سيّئاتهم بالعفو والغفران.

05- محاولة التطوير والتحديث:

كان على شيخنا أن يشقّ طريقه على حذر في فترة قويت فيها شوكة القيّاد، وغلاة الحكّام العسكريين يمسكون بقبضتهم الحديدية على خناق البلاد والعباد، يترصّدون الحركة الإصلاحية، ويتصيّدون أخبارها في كلّ ناد. ولكن الطلائع الأولى لجبهتها من أمثال شيخنا لا تكدّر صفوهم اللّيالي ولا تمين عزائمهم المثبّطات والعراقيل، يتحرّكون في جنح الظلام للاتصال ونقل الأخبار، ويتخيّرون لاجتماعاتهم المآوى الآمنة، ويتعاملون على عهد الله وميثاقه بأمانة وصدق وإخلاص.

أذكر أنّه دعاني ذات ليلة بعد صلاة العشاء في ليلة من ليالي الشتاء الحالكة، فتسلّلت إلى أعماق الدهليز في بيت جدّه، فإذا بي أمام الأستاذين: الشيخ آداود عمر بن صالح الغرداوي والأستاذ الحاج النّاصر محمد الكبير، وهما من ألمع تلاميذ الشيخ الإمام في ذلك الوقت. وكان الغرض من وجودي معهما أن أستمع إلى بعض الأناشيد كان يردّدها الشيخ عمر بن صالح -رحمه الله- بصوته العذب الرنّان. وذلك قصد تلقينها لرفاقي في الكتّاب، وقد دارت بينهما مناقشات حيّة تركت صداها في نفسي، وأنا ابن ثمان. وعرفت أنّهما غادرا البلدة قبل طلوع الفجر حتّى لا يفضح أمرهما الرّقباء.

وهذا نموذج صغير للوضعية التي عاش عليها هؤلاء الأماجد في تلكم الفترة العصيبة من تاريخ الحركة، وقد تأزمت وضعيتها، وضاقت مسالكها بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية، عندما فرضت فرنسا الإقامة الجبرية في القرارة على الشيخ الإمام.

في مثل تلك الظروف الصعبة القاسية، انطلق شيخنا في عمله. وكان من عزمه أن يطوّر أساليب التعليم، ولكن تواجده في مكان يغلب عليه الطابع التقليدي يجعل اختياره صعبا وإنجازه بطيئا كما أسلفت، وعلى

الرغم من ذلك فقد قام بإنجازات معتبرة في الأخذ ببعض الأساليب الحديثة، بدأ فيها بتغيير وضعية قاعة الكتّاب، إذ وفّر لها الإنارة والتهوية الكافية، وذلك بتغيير درجها بحيث استغلّ القاعة العليا لترتيب بعض التلاميذ الصغار، ثمّ نظّم لنا حصصا في مبادئ النحو، والفقه، وبعض دروس السّيرة النبوية على طريقة السؤال والجواب، وتلقين بعض الأناشيد الوطنية، كما جلب كمّية من كتب القراءة المصوّرة، ووزّع علينا دفاتر صغرى نسجّل عليها بعض الفقرات ونتدرّب بها على تحسين الخطّ فنتخذ من ألواحنا الخشبية المسندة إلى ركبنا مناضد للكتابة على هذه الدفاتر، وكلّما زارتنا جماعة من الإخوان المتحمّسين للمشروع كنّا نقوم بإحياء حفل بسيط أمامهم، نتلو فيه بعض الأناشيد ونسرد فقرات من دروسنا في الفقه والسّيرة، وحتّى بعض المتون القديمة كتحريض الطلبة لأبي نصر -رحمه الله- وفي الختام كان الشيخ يلقي بكلمة الشكر والثناء تارة مكتوبة وتارة مرتجلة حسب أهمية الجماعة الزائرة ومستواها. وكان دائما يضمنها دعوته إلى مناصرة التعليم ومساندة المشروع ماديا وأدبيا.

وعلى تمسّك النظرة التقليدية وتصلّب موقفها في محاربة كلّ جديد فقد استطاع شيخنا في رفق وأناة أن يتّخذ لحصص الدروس سبورات سوداء، فسندها إلى الجدار وننقلها من زاوية إلى أخرى، تبعا لانتقال مجموعات التلاميذ ما بين الغرفة السفلى والعليا، وكان -رحمه الله- شديد المراقبة لتصرفاتنا، دائم الترصّد لتحركاتنا، سيما عند الصلاة في المسجد، وفي تجمعاتنا عند مقابر الشتاء، وفي الرحلات التي يصطحبنا فيها بنفسه إلى مختلف المزارات.

وأحيانا يدرّبنا على العمل الجماعيّ عندما يختار بعض الكبار منّا لنقل الرمل، أو جني التمر مع فرق العزابة، أو غير ذلك من الأعمال التطوعية. عشت معه هذه الفترة الذهبية حتّى أواخر الأربعينات والحرب العالمية الثانية تزلزل أرجاء الدنيا. وقد انقطعت عن المدرسة الفرنسية لأتفرّغ لحفظ القرآن

بعد أن أخذت في السلكة الثانية وانتهيت إلى سورة الرعد. فما راعه إلاّ أن انقطعت عن التردّد إلى الكتّاب فجأة، فلم تجد محاولاته العديدة لإرجاعي إلى حظيرته فما الخبر؟ وماذا دهاني حتّى لويت عناني عن الركب وانقطعت عن القافلة في أوج نشاطها؟

06- التعاون والتكامل بين المدرستين:

كان أبناء عمومتي في مدينة الجلفة قد بعثوا إلى والدتي يستقدمونني إلى العمل هناك أجيرا في متجر السيّد الحاج أحمد حمو بن عيسى، فلم تتردد قطّ في الاستجابة إلى طلبهم، علمت بالخبر فتشوّقت إلى ذلك اليوم الذي أحمل فيه مزودي وأمتطي سيارة بوكامل وأتتره في مدن الشمال، ثمّ أرجع ببذلتي الممتازة وحذائي اللمّاع مثلما أشاهد عليه أبناء المترفين، و لم يدر بخلدي يومئذ -وأنا الغرّ الساذج- ما ينتظرني من وحشة الغربة وقساوة المعاملة وعناء العمل، بين أناس أذلهم البؤس والفقر، وأضناهم الجهل والمرض.

ولَمّا كان شيخنا يحاول بكلّ الوسائل أن يستبقيني معه لمتابعة دراستي، اختبأت في الدار، ولذت بالفرار من الكتّاب لأزمع أمري على السفر في اليوم الموعود، وهكذا ذهبت صيحاته أدراج الرياح، و لم يجد من أبناء عمومتي أذنا صاغية، ولا من والدتي نفسا راضية، سيّما وهي ترتقب بفارغ صبر مساعدتها في تكاليف العيش من وحيدها الذي تعلّق فيه الآمال الكبار، ليصبح في يوم من الأيام سيّد الدار. وهكذا غادرت المدينة تاركا شيخي مع رفاقي الآخرين يواصل السّير ويزجي صفوف الأجيال. وفي غضون سنة **1943**م. كانت الجماعة في العاصمة وبإرشاد من الشيخ بكلي عبد الرحمان قد قرّرت تكليف الشيخ المرحوم باباعمي الحاج أحمد بن موسى بمهمة التدريس في المسجد العتيق إلى جانب القائمين يومئذ على المحضرة بعد أن ظلّت مدرسة الشيخ بكلي أحمد منغلقة حوالي ست سنوات، بينما الصراع بين النزعتين يؤذن

بالانفجار، و لم يتردّد الشيخ بكلي وهو المقتنع بتوحيد المناهج وضمّ الجهود أن يقترح على الشيخين تنسيق جهودهما في كلّ من المدرستين بحيث يكون النظام التّربوي متكاملا بينهما تفاديا للمصادمات وتقليصا للنزاعات، فما كان منهما إلاّ أن استجابا لهذا المقترح، وقسّما الأولاد بينهما على نظام السنوات، فاحتفظ الشيخ محمّد بن بهون بالمستويات الصغرى، وأسندت إلى الشيخ باباعمي بقيّة المستويات، فأخذ التلاميذ في كلّ من الحيّين يتّجهون صوب أقسامهم صباحا ومساء، ما عدا القلّة التي لم يرضها هذا التقسيم فتشبّثت بالوضع القديم.

غير أنّ شيخنا ثبت على الخطة، و لم يعر اهتماما للسخافات المنحطة، إلى أن بلغ السّيل الزّبى، فكان ما لم يكن منه بدّ في أواسط سنة 1945م عندما انفجر البركان ووقعت المواجهة بين عزابة المسجدين، فتنادى كلّ فريق إلى النصرة والتآزر. وعنها تتحدّد المواقف، وتنكشف السرائر ويتحتم الاختيار. فما كان من شيخنا إلاّ أن انحاز لسربه وانضمّ إلى لداته وصحبه ليصبح بعد تكوين "جمعية النهضة" كاتبها المرموق ومعلّمها الممتاز في مدرستها بالمسجد العتيق. ولا يخفى على حضراتكم أنّ هذه السنة بالذات قد أهلّت على العالم ببشائر الهدنة، وحمائم السّلام من حرب ضروس أكلت الأخضر واليابس. فكان للحركة الإصلاحية في وادي ميزاب تلكم الانطلاقة العملاقة، وقد رفع الحجر عن زعيمها الشيخ الإمام بيوض -رحمه الله- فكانت له تلك الجولات التاريخية في قرى وادي ميزاب. وكان لشيخنا ورفاقه في التعليم اليد الطولى في الإعداد للحفل العظيم الذي أقيم في البلدة على شرف الشيخ الإمام بيوض، زادته رونقا وجمالا تلكم النشاطات الثقافية الرائعة التي قامت بها طلائع البعثة البيوضية من أبناء العطف في معهد القرارة أمثال الأساتذة: اسماوي عيسى، الحاج أيوب القرادي، الحاج إسماعيل يحيى.

وشاءت الأقدار أن أحضر تلك الحفلات، بل وأشارك فيها ببعض النشاطات، الأمر الذي هيّأني للذهاب إلى القـــرارة والالتحاق بمعهدها في تلك السنة، مع النخبة المختارة من أبناء البلدة، لننضمّ إلى الطليعة الأولى من الرفاق المذكورين.

فيا ما أسعد نفس الشيخ، ويا ما أثلج فؤاده وهو يراني في زمرة الطلبـــة المختارين، وهو الذي ما فتئ يعمل في الخفاء مع جماعة من إخوانه لإنقاذي مما أنا فيه، وأذكر له هذه العبارة في رسالة بعثها إليّ -وأنا في مدينـــة مســـعد- يعزيني فيها عن وفاة جدّتي -رحمة الله عليها- وذلك ســـنة 1943م إذ يقـــول فيها: "فأنت يا بني لم يخلقك الله للذّراع والميزان، بل خلقـــك الله لـــلآداب والعرفان، وأن تكون من حملة القرآن".

فرحمة الله عليك أيها الشيخ الجليل، وهل أنا اليوم إلاّ بذرتك الطيّبة، وأملك الفيّاض، وغصن من دوحتك المباركة، أستنزل لك الرّحمات، وأخلّد ذِكرك في سجلّ المكرمات، فأنعم بالروح والريحان إلى جوار الرحمان، فإن كان قد وقع في شأنك بعض الإهمال، فإنّ ما قدّمته لهذا البلد لا تنساه الأجيال.

07- في أحضان النهضة وبراثين الدّاء:

انضمّ الأستاذ الحاج أيوب الحاج إبراهيم القرادي إلى ركب التعليم في البلد سنة 1947م، وكانت "جمعية النهضة" برئاسة الشيخ ابن يوسف اسليمان بن الحاج داود قد شقّت طريقها في تطوير التعليم، وتوفيره لكلّ أبناء البلدة، وفي توعية الجماهير وتنظيم صفوف الشباب، سواء على منبر المسجد بدروس الشيخ باباعمي الحاج أحمد بن الحاج موسى، أو على منـــبر النـــادي أو في الحجبات بمناسبة الأعراس، فأصبحت لمدرسة النهضـــة إدارتهـــا، وتعـــدّدت أفواجها، وانضمّت إلى المدارس الأخرى من قرى الوادي، تربط بينها بـــرامج وحدة التعليم على مستوى المدارس الإصلاحية.

وفي خضمّ هذه الحركة النشيطة أخذ شيخنا يعاني من آلام مضنية، كان السرطان فيها ينهش عظامه ولحمه، وقد اكتشف الأطباء نواته في إحدى عينين وهو ما يزال يبصر بها، فعزّ عليه قلعها، وربّما كان لا يتصوّر خطر السرطان "عافانا الله وإياكم"، فرجع من العاصمة وفي ذاته هذا الحيوان الشرس الذي لا يرحم، ولكنّه هرب من مبضع الجراح، ليترك جسمه مرتعا خصيبا يجد فيه الوحش الضّاري مغرزا لأنيابه ومشحذا لأضراسه، وهكذا شاءت الأقدار أن يقضي السنة الأخيرة من عمره في مطلع الخمسينات طريح الفراش، وقد خارت قواه، وبرحت به الأوجاع والآلام، وعجز الطبّ عن إنقاذه بعد فوات الأوان. إذ لا يملك في مثل هذه الوضعية الأليمة إلاّ أن يقدّم إليه بعض الأقراص أو الحقن المخدّرة.

وفي ضحى يوم كئيب عُدته لأودّعه في أوّل سفري إلى تونس وكان ذلك في غضون شهر أكتوبر سنة 1950م. فهالني ما وجدته عليه، ولم أكد أجرؤ على النظر إليه وهو ممدود على فراشه نضوا هزيلا يتنزّى ألما، وكان ذلك في غرفة الضيوف بدار المرحوم الحاج أمحمد قاسم بن بهون التي اكتراها لأسرته في أخريات أيامه ابتعادا من المضايقات التي كان يتعرض لها في داره الأهلية التي تركها الورثة. كان يحدّثني ورأسه مسند إلى وسادته. وكان على تداعي بدنه وآلامه المبرحة حاضر الذهن، طليق اللّسان، يبارك قصدي، ويشجعني على مواصلة الدراسة، ويدعو الله لي بالتوفيق والنجاح. وهكذا تركته بعين دامعة وقلب جريح نضوا براه الهزال. وفتك به الدّاء العضال.

تتابعت أنفاسه وهو على تلك الحالة إلى أن أسلم الروح إلى باريها يوم 14 ماي سنة 1951م، فشيّع جثمانه الطاهر إلى روضة "بالة ومسلّم". ولم يقدّر لي -وأنا في الديار التونسية- أن أكون ضمن المشيّعين، ولم أسمع بوفاته إلاّ بعد حين. وقد بلغ من العمر تسعا وثلاثين سنة ترك أرملته

في عنفوان شبابها تبكي إلفها الوفيّ لتواجه وحدها هموم الحياة، وتكفل خمسة من الأيتام أكبرهم سنا -وهي ابنته عائشة- لا تتجاوز الخمس عشرة سنة، وأصغرهم -وهي ابنته مسعودة- رضيعة في الشهر السابع من عمرها، وبينهما إبراهيم وصالح، ولم يترك لهم من متاع الدنيا غير دويرته الحالية التي يملك منها ثلاثة أرباع ونخيلات بور في أجنّة العطف، لا أدري أتمسك رمق الحياة حتّى اليوم أم هي خاوية على عروشها.

وهكذا أسدل الستار على حياة رجل احترق وقودا لينير السبيل أمام الأجيال، ويزجي صفوفها على درب الكفاح والنضال لحياة أفضل وغد أمثل، فكان -رحمه الله- يقتّر على نفسه وعياله ليوفّر بعض المال يقتني به كتبا هي أغلى متعه، وأغلى مدّخراته، وقد انتقلت كلّها إلى وكيل وصيته المرحوم السيّد اسماوي الحاج حمو بن صالح، مع مجموعة من الدفاتر والوثائق، نرجو أن تكون محفوظة بين يدي الورثة، عسى الله تعالى أن يقيّض لها رجالا يكشفون كنوزها، ويستخرجون لآليها، لأنّه كان كثير التسجيل لكلّ شاردة أو واردة عاشها أو سمع عنها.

وبعد، فيا أيّها المحفل الكريم، ويا معلّمي الوادي ويا ساسة نشئه: ها قد بسطنا أمامكم نموذجا مثاليا لجيل النهضة الإصلاحية في هذا البلد، أنتم اليوم ثمار غروسهم، ونتاج جهودهم وكفاحهم، فإذا صحّ لنا أن نسوّي القوّة المعنوية في طلائع هذا الجيل ونعادلها بالرعيل الأوّل من الصحابة عندما وازى المولى -تبارك وتعالى الواحد منهم بالعشرة- وهي معادلة صحيحة فيما نعتقد، فهل احتفظنا نحن بالمعادلة الدنيا في الواحد إلى الاثنين؟ [1]، تلك النسبة التي لا يريد الله منّا أن نترل عنها في ميادين

1- وذلك في قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ حَرِّضِ الْمُومِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الذِينَ

التضحية والفدا والذود عن المكتسبات! أم نحن في واقعنا اليوم دون هـذا المستوى بأشواط؟ وسواء علينا صمدنا أم فرّطنا، فإن التـاريخ يسـجّل، وسنن الله لا تتبدّل.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هـود:117] والحمد لله ربّ العالمين.

العطـف: يوم الجمعة 12 ربيع الأول 1407هـ / 14 نوفمبر 1986م

كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضُعْفًا فَإِن تَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَّكُن مِّنكُمُ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [65- 66].



السيّد: الحاج عيسى الحاج إبراهيم بن الحاج محمد

1898 - 1954

هو من مواليد العطفاء خلال **1898**م من أبوين كريمين: الحاج عيسى الحاج محمّد بن صالح، والحاج عيسى عائشة بنت عمر. ترعرع في أحضان والديه الكريمين، وتلقى تكوينه الأوّلي في كتّاب القرية، ثمّ بعث به إلى القرارة لإكمال تكوينه في معهد الشيخ إبراهيم بن بكير حفّار، حيث استظهر القرءان، والتحق بهيئة "إيروان" هناك. ثمّ توجّه إلى العمل التجاريّ في العاصمة، فبسط الله عليه الرزق عندما استقلّ بتجارته هناك، وقد حباه الله أولادا بررة ساعدوه في تدبير الشؤون التجارية، فتفرّع للنشاط الاجتماعي في بلده، إذ انضمّ إلى "جمعية النهضة"، حتّى أصبح أمينا عامّا لماليتها، ويعتبر من الأعضاء المؤسّسين لها في سنة **1945**م، وهي نفس السنة التي انضمّ فيها إلى حلقة العزابة بالمسجد العتيق.

وبعد وفاة والده المرحوم السيّد الحاج محمّد بن صالح، الذي كان وكيلا للمسجد، تولّى مكانه تلك المهمّة، فكان على مستوى تلك المسؤولية تسييرا وجدّية ونزاهة.

ومن شكره لله تعالى على ما بسط له من رزق أنّه ساعد الكثير من الطلبة للتوجّه إلى القرارة وإلى تونس، فكان حقّا من رجالات العطفاء المخلصين، قام بواجبه المقدس بكلّ تفان وإخلاص، حتّى توفاه الله تعالى في برج بوعريريج وهو يحضر جلسة إدارية لشركة "مواصلات الصّحراء" هناك.

ثمّ نقل جثمانه الطاهر إلى مسقط رأسه ليوم 19 جويلية 1954م. رحمه الله وطيّب مثواه، وقد خلفه في إدارة النهضة ولده المرحوم السيّد: الحاج عيسى الحاج داود.

السيّد: أمحمد الحاج إبراهيم بن عمر
1887 - 1965

سيّد همام من مواليد العطفاء خلال سنة 1887م من والدين كريمين السيّد: أمحمد عمر بن أمحمد، والسيّدة: حمودين عائشة بنت بابا عيسى. هذه الأمّ الرؤوم التي كانت مصدر إشعاع في البلدة يوم كانت ظلمات الجهل مخيّمة مميتة، إذ كانت على قسط من حفظ سور القرآن وإلمام بمبادئ الدين الحنيف وكانت تتردّد على دارها في زقاق "تاقرجونت" بحيّ "بونقاب" في أعالي القرية. تتردّد عليها فتيات القرية لتلقّن لهنّ سورا من القرآن، والأدعية وأقوال الصّلاة، وكانت مثالا للورع والتّقى يرعاها ولدها في حبّ وإخلاص.

كان السيّد أمحمد الحاج إبراهيم يسكن إلى جوار بيتنا في حيّ "بونقاب" وكانت زوجه السيّدة: ابن عمر عائشة بنت الحاج إبراهيم تغمرني بحبّها وعطفها، وأنا اليتيم الفقير أسكن إلى جوارها، وكانت –رحمة الله عليها– تناغني بأحلى عبارات التشجيع والتفاؤل لأصبح من حفّاظ كتاب الله وعمّار بيته. وكانت لتلك المناغاة أثر بليغ في تبلور شخصيتي فرضي الله عنها وأرضاها.

لقد أصبح السيّد: أمحمد الحاج إبراهيم من سراة البلدة، وقد بسط الله له في الرزق إذ كانت له شراكة في تجارة ناجحة بالمعسكر إذ امتلك فيه عمارة وحماما ورثهما عنه ولده عيسى، وقد أسهم الوالد بحظ وافر في الحركة الإصلاحية منذ انطلاقتها فبعث بولده عيسى إلى البعثة البيوضية في القرارة. وكان من الرواد الأوائل من أبناء العطف في البعثة، كما أصبح عضوا إداريا لـ"جمعية النهضة". وظل على إخلاصه ووفائه جودا وكرما وتشجيعا للمشاريع الخيرية حتّى وافاه أجله ليوم 13 فبراير 1965م وقد دفن بمدينة الجزائر بعد عمر طويل –رحمه الله ورضي عنه–.



الشيخ: بابا عمي الحاج أحمد بن الحاج موسى "الإمام"

1910 - 1971

" الرّجل الذي لو لم يخف الله لم يعصه"

- المدخـــل:

إذا حاولنا أن نؤرّخ لجيل التغيير في الحركة الإصلاحية المباركـــة الـــتي واكبت النصف الأوّل من هذا القرن، فإنّ اسم الشّيخ بابا عمي الحاج أحمـــد بن الحاج موسى يتألق من بين أعلامها الأفذاذ الذين صدقوا ما عاهـــدوا الله عليه، إذ بذلوا كلّ ما يملكونه من جهد وطاقات في تركيز دعوتها، واطّـــراد مسيرتها إلى الأهداف السّامية التي رسمتها، وهم في ذلك لا يثني عزمهم كيـــد الكائدين، ولا تنال من إرادتهم سياط الجلاّدين.

عرفته مدارسها مربّيا قديرا ما بين شرق الـــبلاد وغربهـــا وجنوبهـــا، واستمعت إليه جماعاتها مرشدا ملهما تشرئب الأعناق إلى توجيهاته، وتخفـــق القلوب إلى إرشاداته، وعرفته بيوت الله صالحا تقيا، وإماما محبوبا تهفوا إليـــه النفوس، وتتألق بتلاوته الأرواح، وهو الذي لا تحين فرصة للبرّ والإحسان إلاّ ويبتهلها، ولا تبدو بادرة للخير والمكرمات إلاّ ويغدو سبّاقا إليها، غير هيّاب

ولا متردّد، وكأنّما طرفة بن العبد عناه بقوله:

إذا قيل يوما من فتى خلت أنّني عنيت فلم أكسل ولم أتبلّد

تردّدت صيحاته في كلّ ناد، وطاف أرجاء البلاد داعية إلى الله في ظروف كان من يتصدّى فيها لهذه المهمّة يعتبر لدى السلطات الاستعمارية مشوّشا، أقلّ ما يتعرّض إليه الحجز أو التّغريم، وقد نال منهما النصيب الأوفى، غير أنّ قوّة إيمانه وإخلاصه ووفاء جعل منه ذلك النموذج الذي يعتبر الإخلاص وحده طريقا للنّجاة، وليكن من وراء ذلك ما يكون، فإنّ الله تعالى بالمرصاد لكلّ ظالم خؤون. ولذا كان يلتزم في كلّ دروسه وخطبه صدق الكلمة ووضوح المقصد مهما اشمأز منها كلّ خائف هيّاب، أو نفر عنها كلّ متكبِّر مرتاب.

فمن هو هذا الرجل الفذّ، وكيف هيّأته الأقدار لتصبّه من بين أفراد عائلته في هذا القالب الممتاز؟

ولئن كان بعض الكبار منّا قد عاشره وعرفه عن كثب، فإنّ كثيرا من أجيالنا الصاعدة اليوم لا تسمع عنه إلاّ من خلال أبنائه البررة عندما ينسبون إليه، وتلك -لعمري- إحدى الصّلات الوثيقة التي تضمن للإنسان خلود الذّكر كما بيّنها رسول الله ﷺ. فكيف بمن جمع الصّلات كلّها أو أغلبها؟[1]

فسوف نحاول -بإذن الله- في حديثنا هذا أن نشخص صفات الرجولة الكاملة في هذا الرجل الذي نعتبره بحق في صف النخبة الأوفياء من أبناء العطفاء، والله ولي التوفيق.

1- في قوله ﷺ: «إذا مات ابن ءادم انقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

01- منبته ونشأته الأولى:

في دوحة العطفاء الفينانة، تمتدّ فروع عشيرة أولاد عبد الله بأسرها الستّ: آل بكلي، آل بكلي بابه، آل الحاج أيوب، آل بابا عمي، آل الزّعابة، آل أبي القاسم، وغيرهم. ولئن تفاوتت هذه الأسر في عدد أفرادها فإنّ لكلّ منها خصائص معيّنة كما هي طبيعة الأشياء، وتتّفق كلّها في القدر المشترك من الشهامة والإباء، والشجاعة والنجدة والكرم، من محتد أصيل، وعزّ أثيل. ولعلّ ما يميز آل بابا عمي زيادة على ذلك هو ما عرفوا به من سذاجة الطبع، وسلامة الفطرة جعلت منهم ذلك النموذج الذي لا يتذرع بالحيلة في قضاء مآربه، ولا يركن إلى الدهاء الماكر في معاملاته مع الناس، ولعل المثل القائل: "من خدعنا بالله انخدعنا له" يصدق على تصرفاتهم إلى حدّ بعيد.

في حضن هذه الأسرة الكريمة صرخ الطفل الوليد صرخة الحياة من والدين كريمين السيّد: موسى بن باحمد بن حمو بن بابا عمي. والسيّدة: ابن عيسى لالة بنت محمد بن رمضان بن سليمان. وذلك خلال سنة **1910م**. وهو أصغر إخوته عمرا، وأوفرهم فطنه وذكاء، فلا عجب أن يصبح بينهم واسطة العقد، يحظى بمزيد من التربية والتعليم ليصاغ من أوّل نشأته خلفا لوالده في حلقة العزابة، هذا الوالد الكريم الذي دبّر أمور أسرته بكلّ إرادة وحزم، ليضمن لها اللّقمة الحلال، وهو مستقر في بلده على كفاف من العيش، يأكل من عمل يده في الفلاحة حينا، وفي متاجرة تقليدية مع البدو أحيانا أخرى، وهو في ذلك لا يألوا جهدا في عمارة بيت الله بالمسجد العتيق عضوا في الهيئة الدينية، بكلّ ما تستلزمه من ورع وتقى، ومن تضحية وعمل دؤوب في القيام بشؤون المجتمع، يساعده على ذلك مسكنه المتواضع بجوار المسجد، وهو الذي آل بالإرث إلى ولده الحاج أحمد، ثمّ بالبيع إلى الأخ ابن عيسى حمو بن سليمان، غير أنّ الوالد الصالح لم يقدر له أن ينعم بحياة زوجية مستقرة، إذ لم

يتجاوب عاطفيا مع زوجته أمّ ولده هذا التي بنى بها بعد وفاة أمّ أولاده الكبار، فبعد أن أنجبت له البنية الأولى وهي الشّقيقة الوحيدة للطفل الوليد المرحومة: بابا عمي نانة بنت الحاج موسى، والدة السّيد ابن أيوب مسعود بن الحاج حمو، لم تشأ قدرة الله أن ينعم الوليد بكمال الحنان والرحمة من والدين متحابّين منسجمين إذ فرّق الدهر بينهما وهو ما يزال في مهده رضيعا لا يزيد عمره عن الحول. و لم يكن يدري الوالد ما سوف يكون لهذا الولد الذي ضيّعه من شأن في المستقبل، عندما طلّق أمّه وتزوّج بالسيّدة بكلي بخيلة بنت بابا عيسى لتكمل معه خريف العمر، وأمّا الوالدة المطلقة فقد اضطرتها وطأة الحاجة إلى أن تتزوج برجل آخر لتكمل معه بقيّة حياتها في شظف من العيش ووطأة من صروف الدهر حتّى توفيت في حدود الثلاثينات وهكذا قدّر للصبيّ أن ينشأ في يتم معنوي هو أدهى وأمرّ من اليتم الحقيقي. ومع ذلك فلم يضيّع قطّ حقوق والديه ما وسعه من جهد حتّى توفّي كلّ منهما وهو راض عنه إذ امتدّ عمر الوالد إلى سنة 1934م. يوم سمع الشيخ الفتى بمرضه وهو معلّم في غليزان، فعاد إلى العطفاء ليحضر وفاته وتشييع جنازته، وليقوم على إنفاذ وصيته، تغمّده الله برحمته وتجاوز عن تقصيره.

وأمّا إخوته من أبيه فهم كلّ من المرحومين: إبراهيم، محمد، حمو، عمر، عائشة، فافة، أنجبتهم منه السيّدة: بكلي مسعودة بنت محمد، ويشرّفني أن تكون لي صلة رحم بهذه الأسرة الماجدة، إذ بنى والدي -رحمه الله- في أوّل زواجه بالمرحومة بابا عمي عائشة بنت موسى، التي أنجبت منه أختنا المرحومة سعيد فافة بنت إبراهيم، وهي ابنة خالته من جهة أخرى، إذ أنّ جدتي لأبي هي المرحومة: بكلي عائشة بنت محمّد. ولكن الزوجة الشابة لم تكد تنعم بطفلتها حتّى عاجلتها المنية تاركة إياها لليتم، فعزّ على الوالد أن تشعر ابنته البكر بالضياع فارتأى أن يبني بخالتها السيدة بابا عمي فافة، غير أنّه لم يجد فيها ما ألفه من خصائص أختها فطلّقها بعد شهر، والأرواح جنود مجنّدة كما قال رسول الله ﷺ.

أخذ الصبيّ يتردّد على الكتّاب لتعلّم القراءة والكتابة، وحفظ ما تيسّر من القرآن الكريم بين يدي المرحوم الحاج داود بن باعزيزى، والمرحوم بكلي الحاج مسعود بن محمّد، ثمّ المرحوم عافو بن الحاج إبراهيم القراري. فتفتقت مواهبه في سنّ مبكّر عن ذاكرة قوية، ولسان ذلق وبديهة حاضرة، مكّنته فيما بعد من حفظ القرآن عن ظهر قلب، واستيعاب كثير من الأحاديث النبوية الشريفة والأشعار والحكم والأمثال، جعلت منه في مستقبل أيامه خطيبا مصقعا، ومحدّثا مفوّها لا يملّ حديثه، ولا يستثقل مجلسه. يقول عنه أستاذه الشيخ أبو اليقظان الحاج إبراهيم بن عيسى -رحمه الله- في النبذة التي كتبها عن حياة المرحوم الشيخ بابا عمي الحاج أحمد يقول: "إنّ نصوص الآيات والأحاديث كلّها في متناول لسانه تتسابق إليه في أسلوب جذاب جدّا يستهوي السّامعين من العامّة".

02- من الكدّ والعناء إلى رحاب الخضراء:

لم يكد الفتى يشتدّ ساعده حتّى عزّ عليه أن يرى والده يرزح تحت وطأة الحاجة، وقد تقدّمت به السّنّ وضعفت حيلته في مجالات الكسب المحلية الضّيقة كما أسلفنا، بينما أولاده الكبار قد اضطربت بهم سبل الحياة وهم يتحمّلون مسؤوليتهم الزوجية، و لم تبتسم الدنيا لأحدهم إلاّ قليلا، فلم يحظ الوالد الشيخ بمساعدة أحدهم إلاّ لماما، سيّما وهو مصروف عنهم بزوجة أخرى غير والدتهم، فلم يجد الولد الطيّب بدّا من الضرب في أرض الله شأن الكثير من لِداته ورفاقه أبناء الأسر الفقيرة، فسافر إلى العاصمة ليعمل أجيرا بسيطا في متجر خاله المرحوم السيّد ابن عيسى سليمان بن محمد، وذلك في أوائل العشرينيات، وما يصرف الحامل لكتاب الله إذا ما اضطرّ أن يغدو أجيرا في متاجرنا بالشمال أن يصبح حمّالا لقفاف المعمّرين يوصلها على بيوتهم حيثما كانت من أحياء العاصمة مقابل أجر زهيد لا يملك ادّخاره لنفسه، بل

يلتزم بدفع ما جمعه في آخر النهار إلى معلّمه في المتجر؛ لأنّه قد استأجر منه جهده بأكمله؟ وهل يشفع فيه كتاب الله أن لا يغدو حبيس مطبخ يقوم على الكنس والمسح والغسيل؟ فتلك أوضاع ليس إلى تغييرها من سبيل. ولا نملك أزاء هذه الوضعية المزرية بذوي العقول إلاّ أن نردّد مع الإمام الشّافعي ﷺ قوله:

جلوسي في سوق أبيع وأشتري دليل على أنّ الأنام قرود

هذا المعنى اللطيف الذي تناوله الشاعر معروف الرصافي في رائعته "نحن والماضي" عندما صوّر الأثر المميت الذي يخلفه الجهل في حياة الشعوب، والطعنة النّجلاء التي يسدّدها للأفذاذ العقلاء، فيجعل منهم أمساخا لا شأن لهم يذكر في إنسانية ولا كرامة إذ يقول:

إذا ما الجهل خيّم في بلاد رأيت أسودها مسخت قرودا

في مثل هذه الأجواء الخانقة والأوضاع المتردّية المهلكة يقيّض الله للمجموعات البشرية البائسة رجالا يمسكون عليها رمق الحياة، بما أوتوه من مضاء وعزم وبصيرة نافذة إلى حقائق السنن وطبيعة الأشياء، فيتخطون ظروفهم الزمانية والمكانية بما أوتوه من نظر حصيف ورأي ثاقب، فيلقون بالبذور الحيّة في الأرض الطيّبة، ثم يتعهّدونها بالسّقي والنّماء حتّى يخصب البلد الممحل ويأنس القفر الموحش، وقد قيّض الله لهذه الأسرة المباركة رجالا من هذا الطراز العالي شغوفين بنشر العلم والثقافة محبّين للعلم والعلماء، وإن كانوا لا يملكون من بضاعتهم إلاّ قليلا، حتّى تركوا بأعمالهم دويّا كبيرا وأثرا حميدا بما بذلوه من جهد وما أنفقوه من أموالهم لإعداد طلائع النهضة الإصلاحية في هذا البلد الأمين. وفي مقدّمة هؤلاء الرجال الأفذاذ عمّنا المرحوم السيّد باباعمي الحاج محمّد بن مسعود، والمرحوم بكلي صالح بن الحاج بكير والمرحوم الحاج أمحمد عدون بن بكلي. هذا الثالوث المبارك الذي يمثّل وقتئذ النخبة

الممتازة من جماعة العطف بالجزائر العاصمة في أوائل العشرينيات. لم ينحصر همّهم في شؤون قريتهم فحسب، بل كانوا يتألمون لمناظر البؤس والجهل في أبناء وطنهم الجزائر، فأرادوا أن يساهموا بما رزقهم الله به من فضل في رفع هذا الكابوس عن كاهل أبناء الوطن فكانوا من مؤسسي الجمعية الخيرية بالعاصمة، ومؤيدي حركة الأمير خالد في شرق البلاد وناهيكم بالأثر الحميد الذي أحدثه نادي الترقي في توعية الشعب، وهو وليد هذه الجمعية المباركة. وانسجاما مع هذا الطموح الفيّاض، فقد فكّروا في استقدام الشيخ البشير الإبراهيمي ليتولّى التدريس في وادي ميزاب، وكان هو الآخر يشعر بالغربة في بلد يسوده الجهل والفقر وقد اضطّر إلى المتاجرة في منطقة سهوب سطيف.

ولكن أنّى للحكم العسكريّ الغاشم في جنوب البلاد أن يسمح لمثل الشيخ البشير بالاستقرار في منطقة استحوذ عليها بنفوذه لينافس بها الحكّام المدنيين في الشمال، فلم تجد هذه النخبة سبيلا إلى تحقيق هدفهم السّامي غير اللّجوء إلى أبناء المنطقة لتختار منهم نخبة تكوّن منهم نواة بعثة علمية إلى تونس الخضراء. وكان الشيخ أبو اليقظان -رحمه الله- قد أنشأ هذه البعثة بعد الحرب العالمية الأولى إلى جانب البعثة التي يتعهّدها زميله في الكفاح الشيخ أبو إسحاق إبراهيم أطفيش -رحمه الله- والتي آلت إلى رعاية الشيخ الثميني -رحمه الله- بعد نفي الشيخ أبي إسحاق إلى مصر.

وهكذا رشحت الأقدار هذا الفتى النجيب ليصبح ضمن أفراد البعثة العلمية بتونس، فنفض يديه من غبار رحلة شاقة في ميدان الحياة استنفذت من عمره ما يقرب من أربع سنوات عندما اتجه مع رفاقه إلى تونس سنة **1924م**.

وإتماما للفائدة التاريخية، يجدر بنا أن نلمّ بأعضاء البعثة العلمية من أبناء العطفاء في تونس، أولئك الذين واتاهم الحظ يومئذ ليكونوا بذورا طيّبة لغيث مريع تزجي سحائبه النهضة الإصلاحية الكبرى في أوائل الثلاثينات.

فمن عشيرة أولاد عبد الله: بابا عمي أحمد بن موسى، بابا عمي إبراهيم بن الحاج محمد، بابا عمي عيسى بن حمو، بكلي أحمد بن الحاج يحيى، بكلي حمو بن بالحاج.

ومن عشيرة أولاد باكة: بهون محمد بن إبراهيم بن صالح، بخير النّاس محمد بن بكير بن سليمان.

ومن عشيرة أولاد مخارج: الطّالب باحمد حمو بن عمر، الطّالب باحمد داود بن الحاج محمد، الطّالب باحمد أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم.

ومن عشيرة أولاد الخلفي: الرّائد الأوّل المرحوم الشيخ يوسف بن بكير، زرقون الحاج عبد الله بن زرقون وأخوه المرحوم زرقون أمحمد.

وقد التحق الشيخ بكلي عبد الرحمان بن عمر برفيقه الشيخ أبي اليقظان ليعملا سويّا في تدبير شؤون البعثة والإعداد للعمل الصحافي وذلك سنة **1922**م.

يقول الشيخ أبو اليقظان في نبذته التاريخية للمترجم له "لما أنشأ المحسن الكبير الكريم السيّد الحاج محمد بن مسعود باباعمي بعثة علمية إلى تونس كان من ضمن أصحاب البعثة المترجم له المرحوم في سنة **1917**م. وأنا إذ ذاك على رأس البعثة العلمية بتونس، فكان من بين أبنائنا النجباء بين أقرانه، فزاول دروسه العلمية حتّى نال شهادة الخلدونية في العلوم الرياضية".

ويبدو أن الشيخ -رحمه الله- يقصد بالتاريخ المذكور انطلاق الحركة بعد الحرب العالمية كما أسلفت، لا تاريخ انخراط المترجم له في البعثة، وبما أنّ الأعضاء المذكورين تتقارب أعمارهم ومستوياتهم فإنّهم في اعتقادنا قد انخرطوا في المدارس الابتدائية الحرّة أو المدارس المسائية كالخلدونية؛ لأنّ الدّراسة في الجامع الزيتوني ما تزال في تلك الفترة على طريقتها التقليدية تعتمد مناهجها الدراسية على الكتب الصُّفر والمتون لا يقوى على متابعتها إلاّ الضّليع في العلوم اللّغوية والشرعية، وربما كان البعض منهم يحضرها بكيفية

حرة لا يسجل في الدفتر كما أدركنا ذلك نحن في عهدنا في أوائل الخمسينيات ولذا فإنّ الراجح لدينا أنّ الشيخ بابا عمي لم يتلق دراسته منتظمة إلاّ في المعهد الخلدوني، ولكنّه إلى جانب ذلك كان يتلقّى دروسا خاصّة في الفرنسية كما أكّد ذلك رفيقه وابن عمّه السيّد بابا عمي عيسى بن حمو، وربّما كان يحضر بعض الدروس في الجامع بالكيفية التي ذكرناها. وقد قام بدور حيوي في مجال النشاط الثقافي للبعثة يتمثّل في القيام بأبحاث ومناقشات أدبية وعلمية، كما كان كاتبا عاما لمجلة "الوفاق" التي تصدرها البعثة، وبين أيدينا نماذج منها تنمّ عن مجهود أدبيّ مشكور.

ولكن أنّ للدهر الخؤون أن يصفو للإنسان كما يتمنّاه وأنّ للحياة أن تخلص في صحبة أو توفي في ابتسام، ولله در المتنبي إذ يقول:

صحب النّاس قبلنا ذا الزمانا ... فعناهم من شأنه ما عنانا
فتولوا بغصّة كلّهم منـ ... ـه وإن سرّ بعضهم أحيانا
ربّما تحسن الصّنيع ليالي ... ـه ولكن تكدر الإحسانا

أجل، لقد كدّرت الحياة إحسانا بالطّالب الشابّ، فلم يكد يحسّ طعم الهناء وراحة البال، وهو ينهل من مورد العلم الصافي بعيدا عن شواغل الأهل والبلد حتّى فاجأه القدر بوفاة ابن عمّه وليّ نعمته المرحوم السيّد بابا عمي الحاج محمّد بن مسعود في شهر أكتوبر سنة 1927م، وهكذا نعق غراب البين، فتفرّق الجمع وأزف الرحيل، وبانتهاء السنة الدراسية: 1927- 1928م عاد الطّالب الشابّ إلى مسقط رأسه ليواجه متاعب الحياة من جديد مع والديه.

فما وسيلته في ذلك وما حيلته؟ من يدري لعلّ الأقدار تهيئه لأمر عظيم، فيرزقه الله تعالى من حيث لا يحتسب؟

03- عمله في الحقل التّربويّ:

إذا بلغ الفتى عشرين عاما ولم يفخر فليس له افتخار

وهل غير الزواج عنوان للرجولة في هذه السنّ عندنا؟

فقد تزوّد الفتى من العلم والثقافة بالنصيب الذي سمحت به الظروف، فهو في ذلك بالقياس إلى كثير من أقرانه محظوظ، وحبّذا لو سمح الدهر له بالمزيد. ولكن أنّى للإنسان أن يحصل في هذه الحياة على ما يريد؟ فليستعدّ إذن لخوض معترك الحياة، وليختر لنفسه شريك العمر ليجد فيه السكن وحرارة الحبّ ممتزجة بجذوة العطف والرّحمة. فمن له بتلك المرأة التي لا تطلب من زوجها الحياة الدنيا وزينتها وهو الطّالب الفقير؟ ومن له بتلك اليد الحانية التي تساعده في مؤونة الزواج وليس هو بالأمر اليسير؟

لقد وجد ذلك وأكثر في كنف أسرة ابن عمه المرحوم بابا عمي الحاج محمّد بن مسعود، إذ لم تتردّد زوجته المرحومة السيّدة بهون مسعودة بنت بالحاج أن تزوّجه ابنتها البكر بابا عمي عائشة بنت محمّد خلال سنة 1929م. ولم تكد الأيام تصفو لحياة زوجية هنيئة، تنتظر مولودا مباركا تقرّ به أعين والديه حتّى أسفر مخاضه عن التّضحية بحياة الأم في عنفوان شبابها، بينما الطفلة المولودة لم تنعم بالحياة إلاّ شهرا واحدا فلحقت بأمّها ملتمسة عندها الحنان المفقود، غير أن الزوج الشّاب لم تفاجئة هذه الصّدمة المفجعة حتّى امتدت إليه تلك اليد الحانية مرّة أخرى تشدّ من أزره وتمسح دموعه بأغلى ما تملكه من فلذات أكبادها فزفت إليه زوجة عمّه السيّدة بهون مسعودة ابنتها الثانية المرحومة: بابا عمي يمّة بنت محمّد. وكان ذلك في أوائل الثلاثينيات، كان فيها الزوج الشابّ قد بدأ عمله التربويّ في مدينة غيلزان، بعد أن اضطر عند زواجه الأوّل أن يرجع إلى العمل في متجر خاله

بالجزائر العاصمة، حيث انطلق للكسب بكدّ يمينه قبل سفره إلى تونس، فوجد فيه خاله المرحوم السيّد ابن عيسى الحاج سليمان الأجير المخلص قد اشتدّ ساعده ونمت قدراته وتعدّدت جوانب نفعه من العمل في المطبخ إلى معاملة الزبائن ومسك دفاتر الحسابات وكان أستاذه الشيخ أبو اليقظان - رحمه الله- وقد استقرّ في الجزائر للعمل الصحافي، يرى سخرية الأقدار في وضعية تلميذه اللامع، وقد اضطرته الحاجة إلى سلوك دروب لم يخلق لها فحاول إقناع خاله أن يتخلى عنه ليطلع بمهمّة التعليم في غليزان. ولكن من له بالبديل الذي يشهّر سمعة المتجر؟ أو المستخلف الذي يقوم مقامه وأكثر؟ لم تجد في خاله وسيلة الإقناع، إذ لا يحكّم أكثر النّاس في هذه المواقف إلاّ لغة المصلحة والانتفاع، فلا بدّ إذن من واسطة تملك في هذا الشابّ الأجير حقا شرعيا تملي به إرادتها وتتخذ في الأمر قرارها. ولم يكن رجل الموقف إلاّ السيّد المرحوم عمّنا بكلي الحاج يحيى بن حمو إذ استطاع بجرأته المعهودة أن يحسم القضية في نصف يوم كما رويت ذلك عن الأستاذ الشيخ الحاج أيوب إبراهيم القرادي. فإذا بالشابّ الأجير يزمّ حقائبه ويعدّ عدّته للسفر إلى غليزان سنة 1929م. فقرّ أستاذه عينا أن تحقّقت رغبته في تلميذه الطموح عندما وضعه في الطريق الصحيح، لحياة كلّها كفاح ونضال وجدّ ونشاط في تركيز أسس النهضة الإصلاحية بالتربية والتعليم.

وهكذا بدأ عمله التربويّ بإنشاء أوّل مدرسة قرآنية علمية لجماعتنا في مدينة غيلزان بمساعدة نخبة من إخواننا التجار تضافرت جهودهم لتوفير الوسائل اللاّزمة من تجهيزات وإيواء، فتعاقبت أمام المعلّم النّاشئ طائفة من التلاميذ أنشأهم على عينه، وسكب فيهم من روحه فأحسن صياغتهم على الصلاح والتقوى، وأصبح الكثير منهم في مستقبل أيامه رائدا لقومه في المكرمات، وبطلا مغوارا لسدّ الثغرات، في طليعتهم أخونا المفضال: السيّد الحاج عمر ملال.

وخلال مقامه بغليزان كان يتردّد على مسقط رأسه ليتفقّد أحوال والده وقد بلغ من الكبر عتيا بعد أن داهمه القدر بموت والدته خلال الثلاثينيات كما أسلفنا وخلال 1934 توفي الوالد بعد مرض ألزمه الفراش أياما، وإثر ذلك انقطع عن مدينة غليزان، ليخلفه فيها الشيخ الحاج إبراهيم محمد بن بهون، ولننظر بعد ذلك في أمره ما يكون.

04- من غرب البلاد إلى شرقها:

رماني الدّهر بالأرزاء حتّى ... فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام ... تكسّرت النّصال على النّصال
فهان فما أبالي بالرّزايا ... لأنّي ما انتفعت بأن أبالي

هل يحق للشابّ المفجوع أن يردّد مع المتنبي هذه الأبيات؟ وإلاّ فأيّ الأرزاء أشدّ من فقد الوالدين، وقلّة ذات اليدين، واخترام الموت لزوجة شابّة حبيبة هي بنت لأعزّ كفيل وجد في ظل كرمه وإحسانه كلّ رعاية وعناية؟

غير أنّ أحداث الدّهر في نظر المؤمن لا تخبط خبط عشواء، بل هي تجري بقضاء الله وقدره، فكأنّي بالشاب الصالح المؤمن أمام هذه الأحداث، ولسان حاله يردّد مع المتنبي مرّة أخرى:

ألاّ لا أرى الأحداث مدحا ولا ذمّا ... فما بطشها جهلا ولا كفّها حلما
إلى ما كان الفتى مرجع الفتى ... يعود كما أبدى، ويُكرى كما أدمى

فإلى أين المفزع؟ ومن إليه الملاذ؟؟ لقد عرف الفتى ملاذه وهو المشبع بروح الإيمان والتقوى. وجده في رحاب بيت الله الحرام عندما شدّ رحاله إليه بعد توالي تلك الأزمات من سنة 1934م. و لم تكن هذه الرحلة يومئذ بالأمر اليسير، فدونها بحار وأمواج، وصحاري وفجاج، وأوضاع ما تزال متردية في المملكة السعودية لا توفر راحة للحجاج، فكان من نتيجة ذلك أن أصيب

الشاب الحاج بنوبة عصبية حادة لازمته مدّة وعانى منها الكثير، يقول أستاذه الشيخ أبو اليقظان: "من مآثره أنّه حجّ لأوّل مرة سنة 1934م، وفي أثناء رجوعه من الحج أصيب بنوبة عصبية لعلّها من تأثير حرارة الحجاز، وقد لازمته مدّة طويلة شفي منها والحمد لله".

وقد تكرّرت رحلاته إلى البقاع المقدسة بعد الحرب العالمية الثانية كان فيها نعم المرشد والرائد لرفاقه في كلّ مرّة، لا يكتفي بأداء المناسك الواجبة، بل كان -رحمه الله- يقوم بنشاطات كبيرة في الاتصال بمختلف الطوائف ويتجاوب مع الحركات الإسلامية وهي تدعو إلى الله في ملتقيات كان لا يفلتها أبدا، بل كان يصطحب إليها كلّ من آنس فيه قابلية واستعدادا من رفاقه في حماس منقطع النظير، وغيرة قصوى لكلّ ما يرفع من شأن الأمّة الإسلامية، فاكتسب بذلك خبرة كبرى في مجال الدعوة صيّرت منه داعية كفؤا لا يشقّ له غبار في التأثير على السامعين مهما اختلفت مشاربهم.

قضى أياما حالكات وهو يعاني من الأزمة العصبية، أثّرت في أحوال صحّته إلى حدّ بعيد. ولما تماثل للشفاء عادت ظروف الحياة تلحّ عليه ومطالب العيش مع ابنة عمّه زوجه الثانية تدعوه إلى تدبير أمور معاشه بالطرق الكريمة.

وكانت جماعتنا بقسنطينة في هذه الأثناء أي خلال سنة 1935م قد أسّست "جمعية الهدى" برخصة رسمية لتقوم على شؤون الجماعة من صلاة وإرشاد، وتعليم ديني لناشئتنا هناك فاستقدمته على الفور ليطّلع بمهمّة التربية والتعليم بعد أن تخلى عنها لظروف قاهرة المرحوم السيّد العنق الحاج عمر بن الحاج إبراهيم أوّل معلم لجماعتنا بقسنطينة.

وإلى هنا أترك المجال إلى السيّد المفضال باباعدون الحاج إبراهيم بن عيسى وهو ندّه في السّن، وعشيره الوفيّ في ميدان العمل والكسب ليقصّ

علينا قصته في قسنطينة إذ يقول: "في أواسط الثلاثينيات وفد إلينا الشيخ باباعمي الحاج أحمد بن موسى وأنا أعمل إذ ذاك أجيرا في متجر المرحوم السيّد بوبكر الحاج محمد بن عمر "الشرّح" بقسنطينة، فعرفت فيه لأوّل لقائي به ذلك الشابّ الطموح الوسيم الطلعة المتواضع البشوش، يفيض حيوية ونشاطا، ويتّقد غيرة وحماسا، وتجلّله هيبة التّقى والصلاح، حطّ رحاله بيننا ليصبح لأبنائنا مربّيا، ولعامّتنا مرشدا. فآواه إليه صاحب المتجر وأكرم مثواه، بما وفّر إليه من وسائل الراحة حتّى غدا لديه من أعزّ أصفيائه والمقرّبين إليه وهو الضليع في أمور جماعتنا بقسطينة، والآخذ بزمام المبادرات في كلّ الأحداث الجارية يومئذ في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وما أشدّ تشابكها وتداخلها بل وتعارضها يومئذ في شرق البلاد. فلم يشأ أن تقف جماعتنا منها موقف المتفرّج، وكثيرا ما يوجّهها خصومنا من اليهود وأشباههم ضدّ مصالحنا، فشقّ السيّد بوبكر الحاج محمد -رحمه الله- هذا الطريق الوعر، وغلاة المعمّرين وعملاؤهم لا يفلتون كلّ حركة يشتم منها رائحة الوطنية، وكانت حركة جمعية العلماء برئاسة الإمام ابن باديس على قدم وساق، وكان الشيخ ابن يوسف سليمان بن الحاج داود ضمن عمال المتجر، له المقام الأوّل عند صاحبه، والحظوة القصوى لما يتمتع به من جرأة وإقدام وفصاحة وذكاء، فانضاف إليهما الشيخ بابا عمي ليكوّنوا ثالوثا مباركا ممتازا تزاوجت فيه حنكة التجربة، وحكمة المعرفة، وتمازجت فيه رزانة الكهولة وفتوة الشباب. وكنت أتابع باهتمام كلّ المناقشات الحيّة التي كانت تدور بينهم وهم يخطّطون، أو يدرسون ويحلّلون مختلف المواقف حتّى يواجهوها بما تستحقه من الحزم والثبات، أو التقية والمداراة. وأحيانا تكون لي مع أحدهم بعض المناقشات الثنائية استفدت منها رصيدا كبيرا انتفعت به في مستقبل أيامي. فأنا مدين لهم في حسن تكويني إلى حدّ بعيد.

وأقبل الشيخ على عمله التربويّ بكلّ جدّية وإخلاص و لم يـــأل جهـــدا في تنظيم أمور الجماعة صلاة وإرشادا وتحريرا وفتوى. وعندما نعيت إليه زوجته الثانية السيّدة يـــمّة بنت محمّد باباعمي في شهر أكتوبر من ســـنة 1938م لم يطـــق ألم العزوبة في بلد يموج فتنة وإغراء يقول في وصفه الشيخ مفدي زكرياء غفر الله له:

وكلّ شيء بسرتا اليوم مغتـــبط وكلّ شيء بسرتا اليوم محســـود
مرعى الظّبا وعـــرين الأســـد لا كلاهما في جبال الوحش موجود
فكم تحرّق عـــود في مقاصـــرها وكم تحـــرّك في أفيائهـــا عـــود

تزوّج بكريمة آل بغباغة السيّدة: عائشة بنت قاسم بغباغة التي أنجبت له السيّدة بابا عمي عتيقة بنت الحاج أحمد حرم الأخ السيّد: بابا عمـــي سليمان بن إبراهيم. وإذ ذاك أصبح يعيش مع زوجته في ديار أصـــهاره، وقضى معها أحلى الأيام هناء وانسجاما إلى أن اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية، وتعقّدت وسائل الانتقال بين شمال البلاد وجنوبها، ســـواء لقلّـــة وسائل النقل، أو للقيود المفروضة على سكان الجنوب بالحصـــول علـــى رخصة السفر أو الدخول من طرف الحكّام العسكريين، فاضطربت بعـــد ذلك أحـــوال الجماعة في قسنطينة، واضطر الشيخ بابا عمي إلى مغادرتها ليستقرّ في بلده في أوائل الأربعينات.

ومن حذاقته في تدبير شؤون إنفاقه بمساعدة زوجه أنه وفّر من أجـــره الزهيد قسطا من المال، وكنت أتاجر على انفراد فأعطاني إيّـــاه مقارضـــة، وتضاعفت أرباحه بعد فترة وجيزة، رددت إليه رأس ماله كاملا بعـــد دوران الحول، على أن يستمرّ ما وفّرت إليه من أرباح مقارضة لفترة أخرى وفّيتـــه إيّاها بعد انقضاء الأجل المتفق عليه، فدعا لي بالخير والبركات" انتهى[1].

1- حديث السّيد بابا عدون إبراهيم.

05- استقرار عشّ الزّوجية:

في سنة 1941م كانت الحركة الإصلاحية على يد الشيخ الإمام بيوض إبراهيم بن عمر -رحمه الله- قد استقطبت كلّ الطبقات النيِّرة في قرى وادي ميزاب. ولكن الحكّام العسكريين وأعوانهم لم يدّخروا وسعا في شلّ حركتها وتضييق الخناق على روادها وفي طليعتهم الشيخ الإمام نفسه إذ فرضت عليه الإقامة الجبرية بالقرارة، وكان الشيخ بابا عمي لا يفلت الاتصال به كلّما سنحت الظروف طورا منفردا وطورا مع رفاقه في بلدة العطف، وأنّى للواشين أن يناموا وهم يترصدون الحركات في كلّ مسلك وسبيل. وهكذا وقع الشيخ في الفخّ بزيارته للقرارة، ففرضت عليه الإقامة الجبرية لمدّة سنة كاملة مع رفيقيه السيّد ابن لولو مسعود بن الحاج محمّد والسيّد الحاج عيسى صالح بن عمر، وربّ نقمة في طيتها نعمة كما يقول الحكماء.

كانت هذه المحنة بداية لاستقرار الشيخ في البلدة بعدما يزيد عن ثلاثين عاما من عمره قضّاها في الحلّ والترحال، وهو يتقلب خلالها بين مختلف الأحوال، وهناك في قسنطينة الشريك الوفيّ ينتظره، والشوق إلى طفلته الصغيرة يعتصره فهل الظروف تسمح بنقل عش الزوجية، أم هو غراب البين ينذر بانقضاء الأيام الهنيئة؟ عزمت الزوجة أمرها أن تكون في طاعة زوجها، تنتقل معه حيث انتقل، وتستقر حيثما استقرّ، ولكن الحماة العجوز عزّ عليها أن تفارقها ابنتها، فأخذت تبكي وتنتحب، والبكاء عند المرأة سلاح لا يفلّ، ووخزه عند القلوب الرقيقة لا يحتمل. فما كان من الشيخ إلاّ أن دبّر أمره في بناء عشّ جديد، فحقّق بذلك لحماته ما تريد.

وبمسعى من المرحومة بهون مسعودة بنت بالحاج اهتدى لأم أولاده السيّدة: الحاج أمحمد عائشة بنت قاسم فبنى بها لسنة 1942م. ولشدّة حبّها إياه وحدبها عليه -أي بهون مسعودة- أقامت حفل زفافه في دارها حيث بقي 4

معها سنتين إلى أن انتقل إلى دار أبيه بجوار المسجد العتيق. وهكذا شاءت قدرة الله أن تكون هذه المرأة المحضن النهائي الذي يسكن إليه الشيخ. ويجد فيه الهناءة والاستقرار، بعد أن كاد يطوّح به شغف الانتقاء ولذة الاختيار، وقد بارك الله لهما فأنجبت له كلّ أولاده الحاضرين: إبراهيم، ومحمد، وموسى، وصالح، وسليمان، وعائشة وخديجة وفافة.

وأما الإلف الذي انطوى على أشواقه في قسنطينة فقد برحّت به النوى، وذهب ضحية العاطفة والحنان، إذ لم تزد غير قليل وهي ما تزال في عصمة زوجها حتّى داهمها مرض قاتل، فأسلمت الروح إلى باريها، تاركة طفلتها الوحيدة في حضن أمّها تتعزّى بها.

وفي العطفاء بدأ الشيخ نشاطه بالتعليم في كتّاب المسجد العتيق، بينما كان الشيخ الحاج إبراهيم محمّد بن بهون يقوم على كتّاب مسجد أبي سالم، وبتوجيه واقتراح من الشيخ المرحوم بكلي عبد الرحمان ثمّ التكامل ما بين الكتّابين خلال سنة 1943م، ليصبح أفواج التلاميذ مقسّمة بينهما في مستويات مختلفة، ولكنّها متكاملة في مناهجها الدراسية، وهي خطوة مباركة طبّقها هذان الرائدان لتتوّج بعد ذلك سنة 1945م بصدور مقرّرات "وحدة التّعليم" في المدارس الإصلاحية بوادي ميزاب.

وهكذا أخذت الحركة الإصلاحية تتبلور وتأخذ مسارها في طبقات المجتمع بكلّ حيطة وحذر في جوّ يعتمه قتام الحرب العالمية، وتعكره تحرّشات الحركات التقليدية، وتشدّ بخناقه السلطات العسكرية. وهكذا حتّى انفرجت الأزمة بإعلان الهدنة العالمية سنة 1945م، فانطلق السيل وحطّمت الحواجز بالجولة التاريخية للشيخ الإمام بيوض في وادي ميزاب، وتأسيس "جمعية النهضة" في بلدة العطف لتقوم على أمر التربية والتعليم حيث أصبح الشيخ بابا عمي داعية وكاتبا عامّا لها، ثمّ معلّما مربّيا لناشئتها. وكثير من الناس في

البلد وحتّى من أقربائه لا يعرفونه قبل فترة استقراره في البلد، لأنّ الجميع في مثل وضعيته من قبل لا يستقرّ إلاّ لماما يصدق فيهم قول الشاعر ابن رزيق:

ما عاد من سفر إلاّ إلى سفر ... للبين عن أهله في الأرض يزمعه
كأنما هو في حلّ ومرتحل ... موكّل بفضاء الله يذرعه

06- مزاجه وأخلاقه وجهاده:

إذا أمكن لي أن أصوّر لكم -أيها السّادة- حياة الشيخ بابا عمي قبل سنة 1945م فبفضل ما استقيته من المعلومات ممّن عرفوه عن كثب، أو كانت لهم به علاقة صهر أو نسب. وإلاّ فأنا بنفسي لم أكن أعرفه قبل هذا التاريخ لا بالوصف ولا بالمشاهدة على ما بيننا من وشائج القربى. ولكنّني يوم عرفته وجدت فيه سرّا مخبوءا يطالعني من خلال عباراته وإشاراته، وألمسه في حركاته وسكناته، وكنت ما أزال مراهقا تنقصه الخبرة في معرفة طبائع النفوس وسبر أغوارها وأنا الذي أحتكّ في سن مبكّر بكثير من ذوي المكانة والرأي في البلد من مختلف الطبقات، غير أنّي شعرت بانجذاب عاطفي نحو هذا الرجل يستهويني كلامه، ويأخذني سمته الوقور، وأستشفّ حرارة الإخلاص، ونقاوة الطهر من خلال عباراته وهو يرشد أو يتحدث.

أذكر أنّني قادتني الصدف لأحضر المهرجانات الرائعة التي أقيمت على شرف الشيخ الإمام بعد إعلان الهدنة سنة 1945م، وكنت أعمل أجيرا في مختلف المتاجر بالشمال، وخلال إقامتي بالبلد في فترة راحة كنت أتردّد على كتّاب المسجد العتيق لأشاهد التحضيرات الثقافية التي يشرف عليها كلّ من الأساتذة بابا عمي، بكلي أحمد بن الحاج يحيى، محمّد بن بهون استعدادا للاحتفال بالشيخ الإمام في مدينة العطف، هناك عرفت الشيخ بابا عمي لأوّل مرّة، وسمعت حديثه الحلو الجذّاب وهو يستظهر مع التلاميذ

ما كلّفوا به من أدوار يحفظونها وقدّر لي يومئذ أن أقحم معهم لأكون واحدا منهم في ذلك الإعداد الثقافي. ومن ثمّ لا أدري ما كان يدور في خلد الشيخ وهو يغمرني بحنانه، ويعني بي عناية فائقة و لم أكن أعرف أنّه خال لأختي الكبرى فافة بنت إبراهيم، ولكنّني أحسست بثقة تامّة وارتياح بالغ بأنّه يريد أن يهيئني لأمر عظيم. وإن أنس لا أنسى مدى حرصه على أن يصطحبني إلى كلّ المهرجانات التي أقيمت في قرى وادي ميزاب، وهو الذي لا تعوزه الصداقات والعشراء والأصحاب في مختلف القرى، لما يتمتع به من صيت بالغ واحترام مكين بالأخص في مدينة غرداية، ولأوّل مرة في حياتي أزور مختلف القرى، وأعرف أجنّة غرداية في دروبها ومسالكها ومناظرها الجميلة بناحية بوشمجان، فانبهرت بما كنت أشاهده من المناظر، وأسمعه من الخطب والدروس والأناشيد، وما كان لها من الحيوية والحماس في نفوس جماهيرنا، مما هيّأني أن أعمل كلّ ما في وسعي للالتحاق بمعهد القرارة مهما كلّفني ذلك من ثمن. ولعلّ الشيخ -رحمه الله- كان يهدف إلى هذا القصد فرضي الله عنه وأرضاه.

كان يمتاز بمضاء العزم، وقوّة التأثير في سامعيه لما كان يتمتع به من فصاحة وبيان، فبمجرّد أن يؤمن بفكرة أو يقتنع بها، يأخذ في الدعوة إليها بحرارة وحماس. ولا يبالي أن يعارضه في ذلك كثير من الناس، لأنّ الفكرة صعبة التحقيق. ومن أمثلة ذلك دعوته في أواخر الأربعينات إلى تحويل مجرى شعبة النخلة ليصبّ في ضاية "أولاوال"؛ لأنّها كثيرا ما تسيل فتتبدّد مياهها في رمال وادي ميزاب بكاف الدخان وراء سدّ "أحباس"، بينما لا تسيل قطرة واحدة في مجاري المنطقة العامرة بالعطف، والجفاف يكاد يأتي على أغلب مناطق الواحة قبل السيول العارمة في سنة **1951**م. فكان -رحمه الله- لا يفلت فرصة للحديث في هذا الموضوع، بل أحيانا يصطحب معه جماعات إلى مجرى وادي النخلة ليقنعهم ببرنامجه المقترح في عين المكان.

وبعد وفاة المرحوم الطّالب إبراهيم بن سليمان خير النّاس سنة 1947م انخرط بصفة رسمية في حلقة العزابة ليصبح خلفا له في الإمامة والوعظ والإرشاد، وعلى منبر المسجد دوّت دروسه القيّمة في الدعوة إلى الله بأسلوب حيويّ جذّاب، وكان الصراع قد احتدم بين الهيئتين، ولكنّه عرف في دروسه كيف يضع البلسم على الجروح، وكيف يقنع النّاس للالتفاف حول الرأي السديد والمنهج الصحيح.

وبعد انضمام الأستاذ الحاج أيوب إبراهيم بن يحيى - القرادي- إلى أسرة التعليم في تلك السنة بالذّات تطعّمت الحركة الإصلاحية في البلد بعناصر من القوّة والحيوية، هيأت لها الأرضية الصلبة للانطلاقة العملاقة في أوائل الخمسينات. وقد تكفّل الشيخ بابا عمي بتعليم قسم للبنات بطريقة التلقين لأوّل مرّة على الطاولات في ردهة الرواق السطحي بمترل ابن عمّه المرحوم بابا عمي الحاج إبراهيم بن الحاج محمد، وكان يسكنه يومئذ، ومن حين لآخر كان يلقي دروسا على النساء، تارة إذ يتجمعن بمترل ابن عمّه، وطورا بمترل ابنة أخته المرحومة سعيد فافة بنت إبراهيم، وهي يومئذ على رأس الغاسلات، وهكذا أخذت فكرة تعليم البنت من جهة، وصرامة التقاليد من جهة أخرى، حتّى أصبح لكلّ من الفكرتين مؤسسات منظمة، وأجهزة محترمة في مرافق مدرسة النهضة ودار الغاسلات، وللشيخ بابا عمي اليد الطولى في تأسيسها وتطويرها. وعندما توطّدت فكرة إعادة بناء المسجد وتوسيعه، ثمّ تجميع أوقافه من النخيل في حوزة واحدة بضاية "أولوال" وذلك في أواخر الخمسينات، كان الشيخ الفرس المجلّى في تحقيق تلك المنجزات الضخمة دعاية وإرشادا لتحفيز الهمم إلى بذل المساعدات، وعملا وتجوالا في تنظيم الحملات التطوعية وجمع التبرعات.

ولعلّكم أيّها السّادة تتصوّرون الشيخ بابا عمي من ذلكم الطراز المنكمش والمتقوقع على نفسه في الإطار المحلّي ممن لا يهتمون بما يجري وراء جبال الشبكة، كلا!، بل إنّ حماسته لقضايا الوطن، وقضايا الأمّة الإسلامية قاطبة لا يقلّ عن حماسه بقضايا بلده. فما أن اندلعت الحرب التحريرية في الجزائر حتّى غدا بأسلوبه المعهود ينفخ روح الغيرة الوطنية في كلّ من يلمس فيه روح السلبية من إخواننا حيثما حلّ وارتحل. والويل لمن يمازحه بانتقاص قدر المجاهدين أو يعتبرهم نوعا من المغامرين، فإنّ الشيخ ينقضّ عليه بعباراته اللاذعة وبالحجة القاطعة، وهو لا يملّ من قراءة القصائد الفصيحة أو الشعبية التي تشيد بالثورة، أو تلعن فرنسا وتدين مخازيها وقد منحه الله قوّة الحافظة، وسرعة الاستحضار. وعندما تركزت المجالس السرّية لثورتنا الظافرة في قرى وادي ميزاب في مطلع الستينات، لم يتردد الشيخ إطلاقا في أن يصبح عضوا عاملا في المكتب المالي لمجلسنا في العطف، كما أنّ المواقف المرتجلة التي أدّت إلى كثير من التناقضات في الأعوام الأولى للاستقلال الوطني، لم تثن عزمه في أن يصبح مناضلا رسميّا في صفوف حزب التحرير الوطني، إيمانا منه بأنّ الأشخاص تزول وتفنى، والمؤسسات تستقر وتبقى.

فهل لشبابنا أن يتأسّى بأمثال هؤلاء الرجال الذين عرفوا كيف يواجهون الأحداث بما تتطلبه من الدراسة والفهم، وبما تستحقّه من المضاء والعزم؟

07- الخاتمة:

سبحان من تفرّد بالبقاء، ومحص المخلصين من عباده بأنواع الابتلاء، وسنّ في خلقه تداول الأيّام بين الشدّة والرخاء، والسرّاء والضرّاء، وقد أصيب شيخنا منذ حداثة سنّه بصروف اللّيالي وتقلّبات الأحوال، ما قصم ظهره بأعباء ثقال. ولكنّ الصبر.وقوّة الاحتمال ذللت الصّعاب، ويقينه في الله

والإخلاص له يسّر له الأسباب، فما زلّت به قدم ولا تمسّح لأحد بالأعتاب. ففي مطلع السّتينيات كشف الأطباء في عينه اليسرى نواة سرطان في الشبكية، أجمعوا كلّهم على وجوب قلعها فورا قطعا للداء الذي لا يرحم، فأسلم حبيبته لمبضع الجرّاح ثمّ تلاحقت الأعوام حتّى أواخر السّتينيات عندما بدت فيه تحرّشات عصبية تلحّ عليه، فيبدو أحيانا على حالة غير طبيعية في حديثه وبعض تصرّفاته. أذكر أنّني في إحدى ليالي تلك السنة ومسكني إلى جواره بحيّ النهضة استصرختني عائلته في جنح اللّيل، فإذا بالشيخ ممدّد على سريره كالجثة الهامدة لا يطيق حراكا ولا يردّ على نداء، فظننت أنّها لحظة الاحتضار، فجلست إلى جانب سريره أتلو في خشوع آيات من الذّكر الحكيم وأنا مبهوت أراقب أنفاسه لألقن له الشهادة، وبينما أخذت في تسوية أعضائه إذا بالشيخ يستفيق فجأة ويفتح عينيه ليهشّ في وجهي بابتسامته المعهودة وذكر الله على لسانه ليطمئنني على حاله. فأصبح ذلك المنظر لا يبارح خيالي، وأنا أتوقع أنه في حالة غير طبيعية، وبعد أيام قضاها في العاصمة مع أشعة الأطباء وتحاليلهم كشفوا في جمجمته ورما سرطانيا كبيرا يضغط على دماغه. فيا للداهية! ويا لله! أمّن يجيب المضطر إذا دعاه.

ومرّة أخرى، وفي كامل الاطمئنان والارتياح يستسلم لمبضع الجرّاح فأجريت له عملية جراحية خطيرة في اللّيلة الخامسة من شهر جويلية سنة **1969**م، قام بها الأخصائي الشهير الدكتور محمد عبادة، وكانت ناجحة للغاية إلاّ ما توقّعه الدكتور نفسه من بعض العطل المؤقت في منطقه، بعد فترة وجيزة أخذ يزول شيئا فشيئا، ولكنّه كان لا يقوى على الكلام الطويل، و لم يثنه مرضه بعد أن انحلت عقدة لسانه أن يتابع إمامته للمصلين، ثمّ رجاني أن أخلفه في مهمة الوعظ والإرشاد من حين إلى حين، وهكذا نزلت على حكمه، لا لأنّي كفء له، ولكن لأفرّج عن بعض غمّه بعد أن لمس مدى إقبال النّاس على عمارة بيت الله، وكان

ينتظر بفارغ صبر متى يأذن الله بإقامة الجمع فيدوّى النداء في أرجاء البيت الجامع في بلده، بعد أن ظل يتردّد على القرارة في كلّ أسبوع عندما أعلن إقامتها هناك الشيخ الإمام بيوض -رحمه الله- يوم فاتح محرم 1391هـ-1971م، وشاءت قدرة الله أن تقام عندنا بعد أسبوع من وفاته.

ذلكم -أيها السّادة- هو الرجل الذي استغنى بالله فأغناه، وأخلص حبّه إليه فوالاه، الرجل الذي يصدق فيه ما قيل في أحد الصحابة الكرام: "لو لم يخف الله لم يعصه".

أجل، لقد آل على نفسه أن يكون لله، ولرسوله، ولدينه، وأمّته، قانتا لله حنيفا، داعيا إليه قولا وعملا وسلوكا.

ففي يوم كئيب مكفهرّ الأجواء بالعاصمة الصاخبة صدمته دراجة نارية عندما أراد قطع إحدى طرقاتها في حيّ باب الواد، فسقط بالصدمة القاتلة التي أثّرت على جمجمته المفتوحة، وبعد ليال قضاها بالمستشفى أسلم الروح إلى باريها يوم 19 جوان من سنة 1971م، ثمّ نقل جثمانه إلى مسقط رأسه ليأخذ مثواه إلى جانب آبائه وأسلافه، فرضي الله عنه وأرضاه، وأسكنه فسيح جنانه.

وأخير ما أختتم به كلامي هو هذا الرجاء البليغ الذي ختم به ترجمته الوجيزة أستاذه الشيخ أبو اليقظان إذ يقول: "فإلى شبابنا الناهض أقدّم هذا الشاب الذي عاش حقًّا بين الشباب، شابّا مثاليا في الأدب والعلم والصلاح والتقوى، فنرجو من شبابنا أن يجعلوه نصب أعينهم مثلا حيّا عاليا، وفّقهم الله إلى ذلك، ورحمه رحمة واسعة، ورزق أهله وذويه الصبر والسلوان، وجعل ألف ألف بركة في ذريته، آمين والحمد لله ربّ العالمين".

العطف : يوم السّبت 23 شوال 1407هـ- 20 جوان 1987م.



السيّد: عبد العزيز الحاج محمد بن صالح

1911 - 1974

من مواليد العطفاء خلال 1911م، من أبوين كريمين: عبد العزيز صالح بن موسى، وخير النّاس لالة بنت بالحاج. لم تطل حياة الأمّ لينعم الولد بحنانها ورعايتها، فنشأ معتمدا على نفسه في ظل والد تزوج بامرأة أخرى لينجب معها إخوته للأب. وقد تلقى المبادئ في كتّاب القرية، ثمّ أسعفه الحظ بالانخراط في البعثة العطفاوية لدى معهد الشيخ إبراهيم بن بكير حفّار بالقرارة، و لم تدم إقامته هناك طويلا، ولكن ما حصل عليه هناك من المبادئ كان كافيا لإنارة طريقه على درب الحياة، إذ أصبح من التجار النابهين في "برج الكيفان". وقد شيّد فوق متجره منزلا فخما لأسرته ليستقر معها هناك، كما شيّد آخر في مسقط رأسه كان موئلا لأصدقائه ورفاقه.

وكان ذا حسّ فنيّ مرهف، إلى جانب حسّه المدنيّ والاجتماعي، جعل منه عضوا فعّالا في إدارة النهضة بعد تجديد مكتبها لسنة 1951م،

وقد ساهم بفعالية في تجديد بناء المسجد العتيق، تعاونا مع لجنة المال والعمل لسنة 1960م.

أصيب بمرض السكريّ الحادّ قاومه بصرامة إلى أن توفاه الله في "برج الكيفان". ودفن جثمانه الطاهر في مقبرة "سيدي بنّور" بالعاصمة ليوم 05 أوت 1974م، رحمه الله وطيّب ثراه.



السيّد: ابن لولو الحاج صالح بن الحاج محمد

1905 - 1978

هو من مواليد العطفاء خلال سنة **1905**م لأبوين كريمين السيّد: ابن لولو الحاج محمّد بن الحاج إبراهيم، والسيّدة: بابا عمي نانة بنت مسعود بن باحمد. تلقى تعليمه الابتدائي في معسكر باللّغة الفرنسية، كما حفظ القرآن وتلقى المبادئ العربية في القرارة. وقد نشأ سويّ البنية جريئا تحت رعاية والده الذي كانت له تجارة ناجحة في معسكر، ثمّ انتقل تدريجيا إلى الحراش سنة **1935**م حيث أنشأ متجره برفقة ولديه: صالح ومسعود وبعد وفاة الوالد خلال **1939**م تابع الإخوان إدارة المتجر ثمّ افترقا بعد الحرب العالمية الثانية. فاستقل السيّد: ابن لولو صالح بتجارته في "حيّ بلفور" ليصبح من كبار أعضاء الجماعة هناك رأيا ومشورة.

وكان استقراره في الحراش بعائلته وأولاده، حتّى أخريات عمره، ولم يمنعه ذلك من المشاركة الفعّالة في الحركة الإصلاحية والتفاعل معها غيرة وحماسا، منذ ريعان شبابه، فساهم بإخلاص في مساندة مدرسة الشيخ بكلي أحمد بن حاج يحيى في الثلاثينات كما غدا من المؤسّسين الأوائل

لـ"جمعية النهضة" سنة 1945م ثمّ تقلّد أمانة مالها سنة 1954م بعد وفاة السيّد الحاج عيسى الحاج إبراهيم بن حاج محمد فكان مثالا للحزم والضبط وجد فيه المعلّمون خير سند لهم للقيام بمهمّتهم وقد أنجزت الجمعية بناء الجناح الأوّل من المدرسة سنة 1955م. عانى في أخريات عمره من مرض السكريّ حتّى وافاه أجله في الحراش ليوم 14 فبراير 1978م فدفن في مقبرة العالية، تغمّده الله بواسع رحماته.



السيّد: بابا عمي الحاج إبراهيم بن الحاج محمد

1913 - 1978

ولد من أبوين كريمين وهما السيّد: بابا عمي الحاج محمّد بن مسعود، والسيّدة: وجدي فاطمة الزهراء بنت موسى المدعو "حبّبّو" وذلك خلال **1913**م. وبعد أن تعلّم مبادئ القراءة والكتابة في العاصمة تحت رعاية والده، إذ كان هو ولده البكر من زوجه الثانية التي استقر معها في حيّ "الأبيار"، ارتحل إلى تونس الخضراء ضمن أبناء عشيرته في بعثة الشيخ أبي اليقظان في أوائل العشرينيات فكان للحياة الجماعية في البعثة أثرها البالغ في تكوين شخصيته، فنشأ معتمدا على نفسه إذ لم ينعم بمصاحبة والده طويلا، فاضطر إلى العمل أجيرا عند المرحوم الحاج السائح، ثمّ المرحوم أبي القاسم الحاج محمّد بن قاسم.

وبعد زواجه فتح دكانا في العاصمة للشراكة مع السيّد بابا عمي إسماعيل بن مسعود، و لم يلبث أن غادر العاصمة لسنة **1939**م بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية لينشئ حركته التجارية لبيع المواد الغذائية بالجملة في مدينة الجلفة، حيث أمضى فترة الحرب كلّها، وفي سنة **1949**م تقلّد مسؤولية

الإدارة في شركة "مواصلات الصحراء" ببرج بوعريريج، وكان من الشركاء المؤسّسين لها، و لم يألُ جهدا في توسيع شبكتها وتحديث حافلاتها، وقد أقامت رحلتين إلى البقاع المقدسة لسنتي 1953 و1954م مما أكسبتها شهرة ذائعة بين سكان المنطقة. وقد لعبت هذه الشركة دورا هامّا في نشاط جيش التحرير بين جبال "بوكحيل" وجبال "المعاضيد" مما كان السبب في حرق بعض حافلاتها من طرف جيش الاستعمار وتعرض المدير للمضايقة والاستنطاق وبعد الاستقلال الوطني وتأميم النقل العمومي، توقفت الشركة عن نشاطها ليستقر الأخ الحاج إبراهيم في بلده العطفاء مكرما حول رفاقه وأبنائه وقد تعيّن عضوا إداريا في "جمعية النهضة"، كما تعيّن عضوا في أوّل تشكيلة بلدية لمدينة "برج بوعريريج". وكان شديد الاهتمام لمؤاساة المعلّمين يساعد المتجولين في أداء مهمّتهم إذ ينقلهم على سيارته أو بدعوته المحسنين إلى البذل والإعانة، و لم يبخل بمجهوده في كلّ ما يعود بالخير والنفع لبلده على ما كان يعانيه من الضعف والوهن بالمرض السكريّ حتّى وافاه أجله ليوم: 08 جويلية 1978م. وهو طريح الفراش في المستشفى بغرداية في غيبوبة تامّة بارتفاع نسبة السكر في دمه. تغمّده الله بواسع رحماته.



السّيد: سماوي الحاج حمو بن صالح

1905 - 1979

من مواليد العطفاء خلال سنة **1905**م من أبوين كريمين: سماوي صالح بن الحاج أحمد والسيّدة: حاج أمحمد عائشة بنت إسماعيل، ترعرع هو الآخر في أحضان أبويه، وتعلّم في كتّاب القرية، ثمّ التحق بالقرارة في معهد الشيخ إبراهيم حفّار.

وإذ أسّس والده مع إخوته التجارة المشهورة لآل سماوي في "الحراش"، فقد حظي ولده "حمو" بعنايته، فنشأ جريئا مهتما بشؤون بلده، حتّى أصبح من أعضاء الجماعة هناك، ومن سراة عشيرته "آل الحجاج" في العطفاء، وكانت له مواقف مشرّفة في مجال النهضة الإصلاحية، دعاية وترسيخا لمكانتها في البلدة، وكان له اهتمام خاصّ بتقوية جانب البعثة العطفاوية إلى القرارة، كما كان في طليعة المساندين لمدرستي الشيخ بكلي أحمد بن حاج يحي، والشيخ الحاج إبراهيم محمّد بن بهون. حتّى إذا تأسست "جمعية النهضة" سنة **1945** أصبح ضمن الأعضاء المؤسّسين لها تحت رئاسة الشيخ ابن يوسف سليمان بن حاج داود. وانضمّ إلى حلقة العزابة في المسجد العتيق لسنة **1945**م.

فهو وإن لم يستقرّ في البلد لفترة غير قصيرة كسبا وارتزاقا، فقد عاد إليه ليتقلّد مسؤوليته الاجتماعية مرّة أخرى في أواخر عمره.

حتّى وافاه أجله ليوم: 05 أوت 1979م. بفندق تيكجـــدة تغمّـــده الله بواسع رحماته.

وقد نقل جثمانه الطاهر إلى مسقط رأسه حيث دفن إلى جوار أسلافه "آل سماوي" بمقبرة "عمّي حمو".



الشّيخ: بكلي الحاج أحمد بن الحاج يحيى

1910 - 1980

«المعلّم الرّائد في عصرنة التّعليم، عاكسته الأيام وناوشته الهموم، فتولّى عن مهمّته غير مذموم، ثم عاد إلى بلده عودة الكريم».

- المقدمة:

الحمد لله الذي قيّض لكلّ أمّة رجالا يجدّدون ما اندثر من أمجادها ومآثرها، ويحدون بهما في موكب التطوّر، يعلون من شأنها ويشيدون بمفاخرها. سبحانه وتعالى بيده الأمر، وهو على كلّ شيء قدير، نشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله، خير معلّم للبشرية، وخير مجدّد لتراثها الحضاريّ بتحرير العقول من ربقة الأوهام والخرافات، والدعوة إلى العلم والمعرفة والنظر في ملكوت الأرض والسّماوات. صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الذين وصفهم في الاهتداء بالنجوم النيّرات.

وبعـــد:

إذا أصبحنا اليوم ننعم بمثل هذه المؤسسات التربوية العتيـــدة، ونفخـــر بالمستوى الثقافي الذي أخذ يتنامى يوما بعد يوم في أجيالنا الصّاعدة، حتّـــى كدنا لا نجد اليوم في أوساطنا أمّيا متخلّفا عن الركب، فلنسأل أنفسنا كيف كانت أوضاع بلدتنا في النصف الأوّل من هذا القرن؟ وكيف انطلقت النهضة الإصلاحية المباركة في هذه الربوع؟، ومن هم أولئك الرجال الأفذاذ الـــذين كانوا الرواد في هذه القافلة؟ والحداة النبهاء في مسيرتها الشـــاقة إلى مجـــالات التحديث والتنوير، وإلى منطلقات التجديد والتغيير؟

فإذا كان الإنسان هو المادّة الخامّ في كلّ نهضـــة إصـــلاحية أو ترقيـــة حضارية طبقا للقاعدة الاجتماعية التي تقول: **"التّعليم قبل الـــتّعمير"**، فـــإنّ هؤلاء الرواد قد أدركوا تلك القاعدة وعملوا بمقتضاها حين أجمعوا أمـــرهم بحزم على أن يكوّنوا من أبنائهم جيلا طلائعيا يكون بمثابة القاطرة، تجرّ وراءها عربات الأجيال إلى الغاية المنشودة والهدف المقصود، وليس بالأمر الهيّن وضع القطار على السكة نحو الاتجاه الصحيح، ولكنّ الله تعالى يقضـــي بـــالتوفيق والنجاح فيغيّر ما بقوم حين يغيّرون ما بأنفسهم.

وفي حديثي إليكم -أيّها الإخوة- أقدّم إليكم أحد أولئك الرواد الأفذاذ في القافلة الإصلاحية المباركة، وما تزال بقية من تلاميذه النبـــهاء في بلـــدتنا الطيّبة يشهدون له بالكفاءة والعبقرية، ويحفظون له كـــلّ تقـــدير وعرفـــان، ويخلّدون ذكره على مرّ الأزمان. ذلكم هو شيخنا وأستاذنا المرحوم السـّيّد أحمد بن الحاج يحيى بن الحاج عمر بكلي.

01- أسـرته ومولـده:

هو من أسرة "آل بكلي" الفرع الأصيل من دوحة "أولاد عبـــد الله" الأماجد من بلدة العطف "تاجنينت" ولاية غرداية، وهي مسقط رأسه. حيث

أبصر نور الحياة خلال سنة **1910**م. مولودا مباركا في حضن أسرته المجيدة. ولـ "آل بكلي" رجال كرام ذو نبل وشهامة، ولهم مقام مرموق في الحياة الروحية والمادّية ببلدة العطف. وحسب الفتى أحمد عزّا وفخرا أن يكون حفيدا لشيخ البلد المرحوم السيّد بكلي الحاج عمر بن حمو، تلميذ قطب الأئمة الشيخ اطفيش وساعده الأيمن، فقد لفّ المجد الفتى أحمد من جميع أطرافه، إذ نشأ في مهد العلم يرتوي من لبانه لتتفتّق مواهبة نجابة وذكاء، و لم يكن والده المرحوم السيّد الحاج يحيى بأقّل من حظه في بيئة العلم والجاه، ولكن الابن لم يبلغ شأو الحفيد، إذ أصابه القدر في عينيه ففقد بصره بعد أن أبصر ولده أحمد نور الحياة، فعاش الأب متواضعا في كفاف من العيش، أقعدته إعاقته عن الضرب في الأرض، وقصر باعه من الاستزادة من العلم، وكانت للأب تجربتان في الحياة الزوجية: الأولى مع زوجه السيّدة: بكلي بيّة بنت الحاج بكير إذ رزق منها بولده البكر المرحوم: بكلي محمد بن يحيى الملقب "بحاتو" وبنت اختطفتها يد المنون، ولكن الزوجة ظلت تكابد المرض حتّى فارقت الحياة. والتجربة الثانية والأخيرة كانت مع زوجه السيّدة: بوبكر عائشة بنت محمد، وهي أمّ أولاده الباقين وهم على التوالي: يمّة، أحمد، مريم، بكير، رحيمة، لالة، عمر، وآخرهم قاسم. وبذلك يكون الفتى أحمد هو الرابع في ترتيب إخوته. وقد توفيت للوالد بنتان، ولبّى نداء ربّه خلال سنة **1934**م.

02- نشأته ودراسته:

لم يذق الفتى أحمد رغد العيش في أسرة كثر أفرادها وتعوّق عائلها، فتدرج في صباه طفلا عاديا لم يحظ بالعناية اللازمة في المرحلة الأولى من عمره، ضرورة الوضع العامّ السائد آنذاك في البلدة، جهلا وفقرا وعدم استقرار لأغلب الرجال غلمانا وشبابا وكهولا، فتلقّى تعلّمه الأوّل في الكتّاب على الطريقة التقليدية لتحفيظ القرآن، و لم يتمكّن من ختمه، كما لم يسعفه

الحظ في الالتحاق بالمدرسة الفرنسية نظرا لكونه حفيدا لشيخ البلد، لا يمكن أن يستسيغ تعلّم لغة الكافر المحتلّ، وهو قدوة لغيره من المواطنين.

وفي مدن الشمال كانت تنتشر متاجر أبناء العطف سيّما بالجزائر العاصمة، لممارسة حرفة التجارة في مختلف فروعها وهم يعانون من المنافسة والكساد -سيّما في فترة الثلاثينات-، ومن انعدام مرافق السكن والراحة في متاجرهم، مما جعلهم يعانون ألم الغربة وقساوة العيش، ولكنّهم بحكم تواجدهم في الأحياء الأوروبية كانوا يعيشون واقع زبائنهم من المعمّرين في مواكبة التطورات العصرية، ويتفتحون لكلّ المستجدّات الحديثة في تطوير وسائل التجارة تجهيزا وبضاعة وحسن عرض، ويتكلمون الفرنسية بطلاقة بحكم الممارسات اليومية مع الزبائن، وهي يومئذ لغة الخبز.

ولـ "آل بكلي" نصيبهم في ذلك المجال الحيويّ بالعاصمة، ويتركز سراتهم في نهج "بوزرينة" -"ري دلالير" سابقا-، ولم يشذّ الفتى أحمد حين فارق محضن أسرته في سنّ مبكرة ليلتحق بأبناء أعمامه في الشمال، حيث واصل دراسته الابتدائية في مدرسة الشيخ مصطفى حافظ بناحية القصبة سنة 1921م، وبقي فيها لمدة ثلاث سنوات. ولما التحق جدّه شيخ البلد المرحوم السيّد: بكلي الحاج عمر بن حمو بالرفيق الأعلى خلال 1922م ترك فراغا كبيرا في مجال التدريس والفتوى، مما حدا بسراة "آل بكلي"، وفي طليعتهم السّادة: بكلي صالح بن الحاج بكير، بابا عمي الحاج محمّد بن مسعود، بكلي عمر بن عيسى بن حمو، فقرّروا تكوين جيل رائد من أبنائهم، يتغذى بلبان العلم والمعرفة، ويرفع مشعل النهضة الإصلاحية في البلدة، وقد تهيّأت الأفكار للتحديث والتغيير، وليس في الجزائر المحتلة بالحديد والنّار، غير ثقافة المستعمر الدخيل، وكانت تونس الخضراء قبلة لطلاب المعرفة، إذ لا تزال تحافظ على ثقافتها العربية الإسلامية على الطرق التقليدية في جامع الزيتونة، كما أخذت بالطرق العصرية في مدارسها المزدوجة الثقافة عربية وفرنسية.

وهكذا تكوّنت مجموعة من هؤلاء الطلاب الرواد لتلتحق ببعثة الشيخ أبي اليقظان ومساعدة الشيخ صالح بن يحيى اليزقني بتونس الخضراء. وكان من حظ الفتى أحمد أن يكون ضمن هذه المجموعة التي تضمّ من أبناء آل عبد الله كلاّ من الإخوة المرحومين: بابا عمي أحمد بن موسى، بابا عمي عيسى بن حمو، بكلي أحمد بن الحاج يحيى، بكلي حمو بن بالحاج. وفي مقدمتهم الشيخ بكلي عبد الرحمان بن عمر، كما تضمّ بعضا من أبناء العشائر الأخرى، كالإخوة بهون محمّد بن إبراهيم، خير النّاس محمّد بن بكير، طالب باحمد داود بن الحاج محمد، طالب باحمد حمو بن عمر، وكان ذلك سنة **1924**م. وامتدت دراسة الفتى في تونس لمدة أربع سنوات في انقطاع شبه تامّ لم يقطعها إلاّ مرّة واحدة بعطلة لا تزيد عن أربعين يوما حتّى عاد إلى بلده نهائيا خلال سنة **1928**م. وقد تزوّد بحصيلة علمية محترمة، إذ كان من الطلاب النابهين في المدرسة القرآنية الأهلية، ثمّ بجامع الزيتونة، فالمعهد الخلدوني، الذي يعتبر مكمّلا للزيتونة بالدروس المسائية في العلوم التطبيقية، فأصبح له ذوق أدبيّ رفيع، وشاعرية سليقية، لو وجدت من الدوافع ما يؤجّجها ويثير كوامنها لأصبح من الشعراء النابهين لا يقلّ مكانة عن زملائه أمثال رمضان حمود ومفدي زكرياء، ولكن شغلته ضرورات العيش ومسؤولية الأسرة عن متابعة المشوار الأدبيّ. وله موهبة فائقة في الخطّ العربيّ تأثر به تلاميذه النجباء في حسن الخطّ، وقد نسّق عدة لوحات للإشهار في العطف والقرارة آخرها تلك الآيات القرآنية المنقوشة على الباب الكبير لمدخل المسجد الجامع بالعطف، وفي أحد جدران ميضأته الأولى، هي قوله تعالى: ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾[الحجر:98-99]. كتبها بخطه ثمّ نقشها النجار على دفات الباب الأربع. ولذلك قصّة أسجّلها هنا لأمانة التاريخ دليلا على توفيق الله لذوي النوايا الصادقة، ذلك أنّنا عند إتمامنا لبناء

المسجد الجامع في أوائل السّتينات، ونحن نحاول تركيز الباب الكبير للمدخل في شكله البديع، طلب النجار من لجنة العمل التي يشرف عليها عمنا المرحوم السيّد: سعيد الحاج صالح بن الحاج أمحمد، طلب منّا عبارات مناسبة ينقشها على دفات الباب، فرأيت في ما يراه النائم كان هاتفا يهتف بي أن أكتبوا على باب المسجد قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[الحجر:98-99]. وهكذا قررت اللّجنة دونما تردّد نفس تلك الآيات. أمّا في جدار الميضأة فقد كتب قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة:222]. تتبعها البناء الأخ عبد القادر بن الفرد بقطع من الزليج الملون. وهي تترحم على مدبّجها الشيخ أحمد بالغدوّ والآصال.

03- زواجه وأفراد أسرته:

إذا بلغ الفتى عشرين عاما ولم يفخر فليس له افتخار

لقد اكتمل العقد الثاني من عمر الفتى، وقد أصبح شابّا ممتلئ الوفاض، تزيده نضارة وجهه الدائريّ وزرقة عينيه وسامة وجمالا، وقد آن له أن يفخر ويتوّج بتاج الرجولة، ولكن من له بالمال اللاّزم لذلك، وهو الطالب الفقير، لم يكن يعمل أجيرا مثل أقرانه في سنّ مبكّرة حتّى يجمع بعرق جبينه ما يكفيه من المال لمؤونة زواجه، فلم يكن له بدّ من إرجاء ذلك بنحو سنة، إذ التحق بمتجر أخيه محمّد في شارع عمّار علي -"راندون" سابقا-، أجيرا بسيطا، يتقيّد بكلّ ما يتطلّبه ذلك العمل من الصرامة والانضباط، ومن بذل الجهد والانقياد لأوامر صاحب المتجر، لا محاباة فيها لأخ أو قريب. وكم كانت التجربة قاسية على الفتى الأديب الذي ألف الرياض الخضراء، والجداول الرقراقة، والنسمات العليلة والجوّ الطّليق؟ وكأنّني به في حالته النفسية بوضعيته الجديدة يتمثل بقول الشاعر محمود غنيم:

ما حيلة العصفور قصّوا ريشه، ورموه في قفص، وقالوا: غرّد

إنها سنّة الحياة وضريبة المجد لذوي النباهة والذكاء، يكابدون لبروزهم وشهرتهم ألوانا من التعاسة والشقاء، تصهر معادنهم وتصقل طبائعهم ليتهيّئوا لما خلقوا من أجله في وتيرة التغيير والتجديد في المجتمعات البشرية. وهكذا تجرّع الفتى مرارة ذلك الكسب المضني ليبني عشه العائلي ويقترن بزوجه أمّ أولاده السيّدة: بكلي لالة بنت عمر بن عيسى، فتمّت مراسيم العرس المبارك ليوم 28 ذي الحجة 1359هـ الموافق ليوم 17 ماي 1931م، لم ينعم الفتى بعدها بحلاوة القران السعيد إلاّ لمدة شهرين ليعود مضطرا إلى العمل التجاريّ لفترة وجيزة. ويثمر الزواج السّعيد ذرية صالحة تعاون الوالدان على حسن تنشئتها وتربيتها وهم كالتالي: مامة، إبراهيم، مسعودة، الحاج يحيى، لالة. وقد توفي لهما محمّد وصالح وفافة وشيخة ومحمّد الذي سمّياه للمرة الثانية. وكان من حسن حظ الفتى أحمد أن تكون شريكة حياته بنتا لأحد السّراة المشجعين للعلم وأهله، وهو المرحوم السيّد: بكلي عمر بن عيسى، وإلاّ فإنّ طالب العلم يومئذ لاحظ له من بنات الأسر النابهة المحظوظة في البلد؛ لأنّه في اعتبار الناس كَلٌّ على غيره، يعلّم تلاميذه الكسل والعزوف عن العمل، حتّى بلغ الجهل بهم أن اغتالوا أحد المعلّمين بتلك الدعوى الباطلة وهو المرحوم: دادي حني هيبة، وصدق الرصافي حين قال:

إذا ما الجهل خيّم في بلاد رأيت أسودها مسخت قرودا

04- استقراره في البلد معلّما رائدا:

عاد الشابّ المتزوج إلى مركز عمله بالعاصمة متجرعا لوعة الفراق، ليتكبّد ما قدّر له من المتاعب والمشاق، ولا أشقى للإنسان من ممارسة عمل يجرّ إليه جرّا، لا يميل إليه، بل يمارسه مضطرّا، وتشاء الأقدار أن تُوقِظَ ضمائر ذوي الشهامة والمروءة من بعض سراة بلدة العطف في العاصمة، فيدبّرون أمرهم ويتشاورون في إمكانية تأسيس مدرسة عصرية في بلدتهم، ويتزامن ذلك

مع ظهور بوادر النهضة الإصلاحية في الجزائر بصفة عامّة بعد تأسيس جمعية العلماء. وكان الشيخ أبو اليقظان الحاج إبراهيم بن عيسى يتحدّى القمع الاستعماريّ بصحافته، وقد اتخذ من متاجر آل بكلي في نهج "بوزرينة" مركزا لإشهار جرائده، وبوجود الشيخ بكلي عبد الرحمان في متجر والده هناك فقد أصبح السند القويّ لتشجيع ومباركة ذلك المسعى لسراة العطف بلسانه وقلمه. وتضمّ هذه المجموعة السّادة المرحومين: الحاج أمحمد عدون بن بكلي أمينا للمال، الحاج أمحمد عمر بن عيسى، الحاج إسماعيل بكير بن صالح، الحاج إسماعيل بهون بن بابا عيسى، ومن الحراش آل سماوي: سليمان بن عيسى، يحيى بن باحمد، ومن المريدين المساعدين: سماوي حمو بن صالح، ابن لولو صالح بن الحاج محمد، وغيرهم. وكانوا على اتصال بآل العطف في قسنطينة، وعلى رأسهم المرحوم السّيد بوبكر محمد بن عمر الشّرّح.

وهكذا تمّ اتفاقهم على القيام بهذه المبادرة الأولى من نوعها في البلد لتأسيس مدرسة عصرية في تجهيزها وفي برنامج تعليمها. واعتمدوا في توفير ما يلزم لذلك من المال على أنفسهم تجهيزا وتسييرا. وَمَن للقيام بهذه المهمّة النبيلة غير الفتى أحمد، وقد غدا حبيس متجر مكبوت الأمل مكسوف البال، تعتلج في صدره خواطر التغيير والتجديد، ولا يجد في الواقع المعيش لمواطنيه من يبادله الطموح ويقاسمه الرأي والتدبير، حتّى قيّض الله هذه الجماعة المباركة لتحقيق ذلك المسعى، والله تبارك وتعالى من وراء القصد يمدّ بعونه ذوي النوايا الطيّبة. ولم تتعثر الجماعة في إيجاد المحلّ المناسب لتجهيز حجرة الدرس في شكل بسيط، لا يتوفر على الوسائل الصحية الكافية حسب المقاييس الحديثة، فحسب هؤلاء الرواد أن تنطلق المسيرة، ثمّ يأتي بعد ذلك التطوير إلى الأفضل والأحسن. وتمّ ذلك تحت غطاء المحضرة التقليدية؛ لأن النظام الاستعماري لا يرخّص في التعليم لغير تحفيظ القرآن ومتون الفقه، وكان افتتاح المدرسة خلال الموسم 1930/ 1931م. وهي عبارة عن غرفة ضيّقة تحت صحن المسجد العتيق

قبل تجديد بنائه، يدلف إليها من مدخل طويل، ويرتفع سقفها الوطيء على سوار أربع، صفّت بينها طاولات التلاميذ بلونها الأسود، ومقعدها الطويل لأربعة تلاميذ أو لخمسة عند الاكتظاظ، تواجهها سبّورة خضراء اللّون تكاد تلتصق بمكتب المعلّم. وللإنارة والتهوية كوات تواجه نور الشّمس من الجهة القبلية. وتحت الجدار دكان مخصّص يجلس عليه زوار المدرسة من الأولياء وغيرهم، ولا يعدم المعلّم خرائط للجغرافيا أو للعلوم، وكتبا للقراءة المصوّرة على الطريقة الحديثة.

ولعلّ أجيالنا اليوم يرون في هذا الشّكل البسيط لمدرستنا الحديثة ما لا يستحق الذّكر والإشادة، وذلك بالقياس إلى ما فتّحوا أعينهم عليه من أنواع المؤسسات التربوية. غير أنّه من الواجب علينا -نحن الجيل المخضرم- أن نبيّن لهم بأنّ هذه المبادرة من تلك الجماعة المباركة على بساطتها تعدّ ثورة حقيقية يومئذ في مجتمع ظل منغلقا على نفسه تلفّه ظلمات الجهل والفقر والمرض طوال قرون وقرون، وكان من الطبيعيّ أن تواجه هذه المبادرة بالنقد والطعن، بل بالتهديد أحيانا من أولئك الذين يعتقدون أنّ كلّ تجديد بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، ويزيد الطّين بلّة أن يعتبروا تلك التجهيزات الحديثة. وطريقة التدريس بها من أساليب الكفار المستعمرين اللاّتي جاؤوا بها لتعليم لغتهم وتركيز ثقافتهم.

05- انطلاقة المدرسة ونشاطها:

كانت الانطلاقة في الموسم: 1930/1931م، إذ أصبحت متكاملة في برنامجها مع نظام المحضرة التّابعة للمسجد العتيق في تحفيظ القرآن تحت إشراف السيّد المرحوم: الحاج عيسى الحاج عيسى بن الحاج صالح، وكان معه إلى فترة معيّنة المرحوم السيّد: بكلي الحاج مسعود بن محمّد. والنظام البيداغوجي المتّبع هو نظام المستويات الثلاثة: الصغار والأواسط والكبار، وفي التلاميذ دائمون: أي الذين لا يذهبون إلى المدرسة الفرنسية، وفيهم من يمارسون ذلك. ويشمل البرنامج على

تدريس القراءة والإملاء والقواعد، والتوحيد والفقه والأخلاق والخط، والحساب والجغرافيا والرسم. وبلغ عدد التلاميذ حوالي مائة وخمسين تلميذا.

أظهر الشابّ المعلّم مقدرة فائقة في تطوير أساليب التعليم. فبرز من تلاميذه كثير من النجباء نجحوا في التحصيل قراءة وكتابة، وحسن إلقاء للمحفوظات والمحاورات الأدبية والفقهية والتاريخية، تتخلّلها أناشيد حماسية ووطنية، كان التلاميذ في كلّ فوج يختمون بها حصّتهم في صوت منسجم حماسيّ، أصبح لها دويّ كبير في أوساط الأسر. تقلّدها النساء في الدور، والصبايا في الشوارع، مما أثار حفيظة كثير من المتزمتين، ولكنّها من جهة أخرى ألهبت حماس المواطنين من الأولياء في البلد، وذاع صيت المدرسة في القرى الأخرى، حتّى أخذ الناس يتوافدون عليها في جماعات تزور المدرسة، فيقوم التلاميذ بنشاط استعراضي لمواد البرنامج بكلّ شجاعة أدبية وفصاحة وبيان. ولا تعرف المدرسة عطلا رتيبة حسب المتعارف عليه اليوم في صيف أو شتاء أو ربيع، إلاّ ما كان مألوفا من العطل الدينية مما نسمّيه باللّغة المحلّية بـ "العواشير"، وفي النشاط الرياضيّ لم تتخلّف المدرسة عن ممارسة البعض منها، وهي كرة القدم، ولكن من للمدرسة بميدان منظم تمارس فيه اللّعبة ويرتاده المتفرجون؟ وكان ذلك أعزّ عليها من الكبريت الأحمر، لقلّة الإمكانيات وتخلّف الذهنيات. فإذا تأتّى للمعلّم وتلاميذه أن يجدوا البديل للملعب الرياضي في كثبان شعبة "بولاب" أو "باعبد الله بن يحيى" بكيفية متخفية، فأنّى لهم أن يقنعوا الجيل القديم بقاعدة: "العقل السّليم في الجسم السّليم".

غير أن وتيرة التجديد والتغيير تقتضي اختراق الحواجز وتحدي الصعوبات، وفي ذلك من الجرأة والصبر ما لا يطيقه إلاّ الفحول من الرجال. وصدق المتنبيّ حين قال:

ومن البلية عذل من لا يرعوي عن غيّه وخطاب من لا يفهم

ويا ما سمع المعلّم الشابّ من أنواع العتاب واللّوم، إن على منابر المساجد أو في منتديات الناس، ولكنّه تغابى عن ذلك واستمرّ في أداء مهمّته بصبر وعزيمة وثبات، وهكذا لعبت المدرسة دورها الفعّال في إيقاظ الضمائر وبعث الحيوية في النفوس الهامدة، وتحريك دواليب المجتمع لاستقبال الحياة الجدية المتطوّرة بقناعة وإرادة، أفرزت بعد ذلك ما عرفته البلاد من تطوّر في المجال التربويّ والثقافي؛ وأخذ الأعيان في القرى الأخرى يتحركون ويسعون لتكوين المدارس الحديثة.

وفي أوج نشاطه توجّه للمعلّم الشاب طعنة نجلاء تبخس من حقّ كفاءته، فلم يستطع لها صبرا، وذلك حين حطّ خصومه من قيمته في نظر النّاس بأنّه لا يحفظ القرآن. وحفظ القرآن ما يزال إلى ذلك العهد هو المقياس الأعلى في كفاءة التعليم التقليدي، فعقد الشابّ عزمه في تحدّ وإصرار أن يرتحل في فترة مناسبة إلى معهد الحياة بالقرارة لاستكمال ذلك النقص في نظر العرف المتّبع، فاستطاع في خلال سبعة أشهر أن يستظهر القرآن بأكمله، وينخرط في هيئة "إيروان"، وخلال هذه الفترة قام بدور حيويّ في البعثة البيوضية تحريرا في مجلة "الشّباب"، شعرا ونثرا ونظما لبعض الأناشيد. من أشهرها نشيد الترحاب لزعيم الحركة الإمام الشيخ بيوض -رحمه الله- إثر عودته من إحدى رحلاته فقال منشدا:

لنمدّ الصّوت يعلو ... فوق أجواز الفضاء
إذ بلغنا كلّ سؤل ... ومرام وهناء[1]

ويستمر الشابّ المعلّم في نشاطه الدؤوب بالمدرسة ليكمل تربية الجيل الرائد لما يقرب من سبع سنوات، ويبلغ التذمّر مداه لدى السلطات الاستعمارية وأشياعها وهم يلمسون بذور تلك النهضة المباركة أخذت تتأصّل

1- انظر النّشيد بأكمله في كتاب "المعلّم الرائد" الشيخ أحمد بن الحاج يحي بكلي

في المجتمع، وتحرّك نخوته الوطنية، وهي نذير شؤم عليها في تسلّطها على هذا الشعب المسكين، إذ تحمل في طياتها بوادر السخط والثورة على المحتل الدخيل، وقد أصبح الجيل يتغنى بمقومات شخصيته: دينا ولغة وتاريخا، وذلك بعد أن اطمأنت فرنسا باستحواذها على التراب الجزائري وإدماج شعبه في الثقافة الفرنسية بالحديد والنار، وهي تحتفل بالذكرى المئوية للاحتلال في الثلاثينات.

ومن طبيعة البغي والاستبداد أن يصبح القائمون على المشروع معرّضين للمتابعة الأمنية، والمحاصرة في أعمالهم، علما بأنّ الجنوب الجزائريّ ما يزال يرزح كلّه تحت الحكم العسكريّ الغاشم، لا حقّ فيه للمواطنة الكريمة، ولا سبيل للمقاضاة القانونية، بل الأمر كلّه بيد الضابط العسكريّ وأعوانه، لهم السلطة المطلقة على رقاب الناس وعلى أموالهم وأعراضهم. ويكفى أن ينعت أحد المشايخ أو الأعيان أنه مشوّش خلاّط حتّى يجرّ إلى السجن في غرداية، مع القيام بالأعمال الشاقة ككسر الحجر تحت الشمس المحرقة، أو تغريمه بما لا يطيق. وهكذا حدث ما لم يكن منه بدّ من غلق المدرسة في حدود سنة 1938م. ليتسكع التلاميذ في الطرقات بعد أن ذاقوا حلاوة التعليم المتفتح على الأساليب التربوية الحديثة، وليذهب المعلّم الشابّ إلى حيث يكتسب رزقه على الطرق التجارية التقليدية.

06- عمله في عين الدّفلة:

شاءت الأقدار أن يحطّ الشابّ أحمد بعين الدفلة في متجر بسيط كان الشيخ عبد الرحمان قد أنشأه بالشراكة مع السيّد: بكلي محمّد بن الحاج بكير، ومعهما أخو أحمد، محمد حاتو. وذلك بعد أن تدهورت حركة والد الشيخ عبد الرحمان في العاصمة. وخلال تقلّده لمسؤولية التجارة هناك ومعه أخوه محمّد انسحب الشريكان المؤسّسان للمتجر لأسباب قاهرة، وانطلق الشابّ أحمد يعمل في المتجر بمساعدة أخيه، وخلال ذلك كانت جماعتنا في "غليزان"

تلّح عليه أن يدرّس هناك. وبعد تماطل وتردّد استجاب لدعوتهم، ولكن لمدة سنة فقط، عاد بعدها إلى متجر عين الدفلة، بعد أن برهن مرّة أخرى على كفاءته ونشاطه في التدريس، ودّت جماعتنا في "غليزان" لو استمر معهم طويلا. غير أنّ مسؤولية المتجر لم يطمئن عليها ببقاء أخيه وحده، فاضطرّ إلى العودة ليكمل مشواره التجاريّ هناك في عين الدفلة بخطى وئيدة، وبوسائل تقليدية تتناسب مع المستوى البسيط لسكان تلك المنطقة أيام كانت عين الدفلة مدينة صغيرة في منطقة الهضاب العليا. فاستطاع بجهده المتواضع أن يوفّر العيش الكريم لأسرته في سنوات امتدت إلى السّبعينات، فأحسن رعاية أخويه عمر وقاسم تعليما وتربية حتّى اشتدّ ساعدهما، وأخذا معه بمسؤولية التجارة بعد أن انفصل عنه أخوه الكبير. ونظرا لمستواه الثقافي فقد سعى لتكوين صداقات مع بعض شخصيات البلدة ومسؤوليها، فتجاوب معهم، وساندوه في وجوده وحيدا من جماعتنا هناك. وأبرزهم مكانة وأصدق صحبة هو السيّد: رزق الله أمحمد، الأمين العامّ للبلدية وأحد أعيان البلد.

وما أن اندلعت الثورة التحريرية المباركة، وتكوّنت اللّجان السرية للنضال حتّى بادر بالمشاركة الفعّالة بالمال والرأي في حيطة وحذر، لم يستهتر في موقف ولم يكشف له سرّ. وكان لا يطول مقامه في مسقط رأسه إلاّ بالقدر الضروريّ الذي يتيح له الاطمئنان على أحوال عائلته كغيره من تجار جماعتنا. يعانون من ألم الغربة والابتعاد عن أسرهم، إذ لم تتوفّر لهم السكنيات المحترمة بأزاء متاجرهم إلاّ بعد الاستقلال الوطنيّ. وكان الفتى لا يبخل بمجهوده الثقافي والاجتماعي في بلدته كلّما حلّ بها، إذ يكنّ له المجتمع العطفاويّ كلّ تقدير واحترام لما قدّمه من مجهود في تربية أبنائه. وقد ونيت خطى التعليم العصريّ بعد غلق مدرسته، إذ بقيت على الوتيرة التقليدية في الكتاتيب، وكان للشيخ الحاج إبراهيم محمّد بن بهون محاولات محتشمة في محضرة "أبي سالم" اقتصرت على بعض الدروس البسيطة في اللّغة

والفقه، ولكن بالوسائل القديمة المألوفة. وكانت النهضة الإصلاحية في القرارة على يد الشيخ الإمام المرحوم الحاج إبراهيم بن عمر بيوض تتأصّل وتتحفّز للانطلاقة الكبرى بعد الحرب العالمية الكبرى سنة 1951م. إذ عرفت الجزائر نوعا من المرونة السياسية لدى المستعمر بعد تأسيس جمعية الأمم المتحدة وإعلان حقوق الإنسان. فسمحت القوانين بتكوين الجمعيات الخيرية المختلفة، وتأسّست "جمعية النهضة" بالعطف في صائفة 1945م إثر الزيارة التاريخية التي قام بها الشيخ الإمام إلى بلدة العطف، وما تخلّل ذلك من المهرجانات الكبرى لمدّة ثلاثة أيام كان الشيخ بكلي أحمد الفرس المجلى فيها تنظيما وتنسيقا وإنشادا مع الأساتذة المرحومين: الشيخ باباعمي الحاج أحمد، الشيخ محمّد بن بهون، الشيخ القرادي الحاج إبراهيم.

وتشاء الأقدار أن تصبح قاعدة المدرسة مرّة أخرى مجمعا للطلبة، وعلى مكتبها الشيخ أحمد بأسلوبه الحيويّ، يدرّب التلاميذ على المحاورات الأدبية، وعلى تلقين الأدوار لرواية: "بلال بن رباح" وهكذا انطلق العصفور من قفصه ليرتّل ألحانه الشجية في زهو وإقبال، وليصبح نائبا أوّلا للرئيس في مجلس إدارة النهضة، ومعه رفاقه من المشايخ المذكورين وغيرهم من سراة البلدة، وعلى رئاسة الجمعية الشيخ ابن يوسف سليمان بن الحاج داود -رحمه الله-، وهكذا تنطلق المسيرة من جديد، بعد أن تحطّمت الحواجز وانفكّت القيود. وبهذه المناسبة العظيمة أنشد الشيخ أحمد قصيدته الرائيّة، والتي يقول في مطلعها:

الله أكبر فجر العز قد ظهرا ونوره في سما العطفا قد انتشرا

07- عودته إلى البلد واستقراره:

لقد انتعش الاقتصاد الجزائري شيئا ما في فترة الثورة التحريرية، ضرورة ما كان ينفقه المستعمر على جيوشه من أموال، ثمّ نما وانتعش بعد الاستقلال الوطني سيّما بعد التصحيح الثوريّ لسنة 1965م، وإنفاذ المخططات الثلاثية والرباعية والخماسية، إذ استفاد التجار بذلك الانتعاش النسبيّ، فتحسّنت

القدرة الشرائية للمواطنين، وتوسّعت الفئة المتوسطة لدى شعبنا الكريم. فلم يتخلف الفتى الكهل عن الركب، وقد كبر أخواه عمر وقاسم، كما تعدّد أبناؤه ذكورا وإناثا، مما يتطلّب منه إعادة ترتيب البيت القديم لأخويه وأخواته. وتمّ ذلك لسنة 1958م تقريبا. فأخذ يترك المسؤولية التجارية في عين الدفلة لأخويه عمر وقاسم شيئا فشيئا، بينما كان ولداه الحكيمان: إبراهيم، ويحيى في الطبّ العامّ وجراحة الأسنان يتابعان دراستهما الجامعية ليتخرّجا. إنّهما الأمل الباسم للأسرة والسند القويّ لوالديهما. وهكذا طاب للوالد الكهل مقامه في البيت الجديد بحيّ "باعلي وعمرو" الذي ابتناه في حدود سنة 1957م، وترك البيت القديم في وسط البلدة لأخويه وأخواته.

لقد تجدّد نشاطه الاجتماعي والثقافي في البلدة، وقد قطعت أشواطا كبيرة في وتيرة الإصلاح الاجتماعي والثقافي، وتتابعت الأجيال في نيل حظها من كلّ ذلك، كما تطوّرت الأحوال في أنماط التفكير والسلوك، وفي ظروف المعيشة للمواطنين. وها قد ذرف الفتى على سن التقاعد، وما تزال في نفسه طاقة لخدمة بلده لم يستنفدها، فليجدّد عهده بالتعليم، وليأخذ مكانه في الهيئات الاجتماعية، على ما طرأ فيها من تغيير وتجديد:

فذو الشّوق القديم وإن تعزّى مشوق حين يلقى العاشقينا

فلا عجب أن نرى المعلم الكهل المتقاعد يعود إلى السبّورة والطبشور، وإلى مناغاة التلاميذ ولكن بصوت شجّته الشيخوخة، وقوام أخنى عليه الدهر. فأصبح لشخصه الكريم مسحة من جلال ووقار، رشّحته للالتحاق بحلقة العزابة بعد أن فقدت من أعضائها الرعيل الأوّل، فدعت الضرورة إلى ملء ذلك الفراغ. وهكذا لبّى نداء "العزابة" فتقلّد الوشاح الرمزي لهم في شهر أكتوبر من سنة 1971م. ولكن الإنسان يعود إلى حالة الضعف والشيبة بعد القوّة والحيوية، وتلك سنّة الحياة والله تعالى يقول: ﴿**وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي**

﴿الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾[يس:68]. وكم تمنينا له طول العمر ومزيدا من النشاط ليسدّ ثغرة في مسؤولية المسجد إلى أمد طويل، ولكن القدر المحتوم لا يترك الفرصة للإنسان بعد أجله المعلوم، ولله المصير. وتشاء الأقدار أن يلمّ به حادث مرور خطير أصيب فيه بكسر في رجله عانى منه طويلا بعد أن أجريت له عملية جراحية، فلزم الفراش مكسوف الخاطر.

08- مرضه ووفاته:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول

تمضي الأيام وتتوالى السنون، والناس عن الموت ساهون، يلهيهم الأمل ويدفع بهم الحرص إلى التشبّث بالحياة ومتعها وهي كما قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[آل عمران:185]. وقليل من الناس هم أولئك الذين يحيون وهم يذكرون أنّهم سيموتون. فكلّما مرّت عليهم مرحلة من العمر شكروا نعمة الله فيها، واستشرفوا ما بعدها مشفقين. وهم في كلّ مرحلة يختارون من السلوك والتفكير ما يتناسب معها من الخوف والرجاء ومن القصد والاعتدال. ولعلّ الشيخ أحمد من هذا الصّنف الذي أمضى حياته متوازنا في كسبه ومعيشته، لم يجازف بشرفه وعرضه في مغامرات دنيوية مهلكة، و لم يتكفّف الناس إذ عاكسته الأيام في ما انتدب نفسه إليه من خدمة مجتمعه. وها هو ذا يلقي عصا الترحال ويستقرّ في بلده، ويحاول أن يستنفد فضل جهده للصالح العامّ، وقد ذرف على السبعين. فهو وإن لم يردّ إلى أرذل العمر، فقد بدت عليه علامات التعب والإعياء. وأصبح يعاني من انهيار بدني ونفسيّ جعلاه ينطوي على نفسه شيئا فشيئا، سيّما وهو يشاهد كثيرا من أقرانه ولدانه يطويهم الموت تباعا، ويعزّيه الناس فيهم، وهم شطر من حياته مثل أعضاء أسرته والشاعر العربيّ يقول:

ولد المعزّى بعضه، فإذا مشى بعض الفتى فالكلّ في الآثار

وهكذا يدبّ العجز والوهن في الشيخ لأيام قلائل وهو طريح الفراش، ويجد من زوجه وأولاده ورفقـــائه كلّ رعاية وعناية حتّى توفاه الله مغفورا له -إن شاء الله- ليوم 13 ديسمبر 1980م. فأقيم له حفل تأبين يليق بمقامه وهـــو مسجّل في شريط "فيديو" لعل الفرصة تواتينا لمشاهدة مراسيمه. طيّـــب الله ثراه، وجعل الجنّة مثواه، والحمد لله ربّ العالمين.

العطف يوم الخميس 15 محرم 1421هـــ / الموافق ليوم 20 أفريل 2000م



السيّد: بوبكر الحاج محمد بن عمر " الشّرح "
1892 - 1980

من مواليد العطفاء خلال 1892م، من أبوين كريمين السيّد: بوبكر عمر بن قاسم بن حمودة، والسيّدة: بابا عدون مامّة بنت حاج مسعود، وله إخوة أشقاء توفوا كلّهم بمرض الجدريّ، و لم تعش إلاّ أخت له لأب هي السيّدة بوبكر زوليخاء.

مرضت والدته فعاش شبه يتيم في كفالة خالته السيّدة: بابا عدون عائشة بنت حاج مسعود عاش والده في كفاف من الرزق تاجرا طوافا في صحراء أولاد نايل. فاضطرّ الطفل محمّد إلى السفر في سنّ مبكرة إلى الشرق الجزائري تحت رعاية أخواله بين مدن الحروش والعالمة وقسنطينة، فنشأ معتمدا على نفسه ولكنّه حرم من التعليم إلاّ ما حصل عليه من المبادئ ومن حفظ بعض سور القرآن في مسقط رأسه بالعطف.

وفي سنة 1918م بنى بأمّ أولاده السيّدة: بابا عدون عائشة بنت عيسى، و لم يعش من أولاده الخمسة منها إلاّ ولده الأستاذ: بوبكر عبد الرحمان، كما أنجبت له زوجه الثالثة ولده الأستاذ: بوبكر مصطفى.

وفي قسنطينة لمع نجم السيّد بوبكر الحاج محمّد بن عمر. وذاع صيته في جماعة التجار الميزابيين في الثلاثينيات إذ تسلّم من أحد أخواله محله التجاريّ لبيع الأقمشة في رحبة الصوف. ثمّ عقد شركة مع المرحوم السيّد بمون بكير بن حاج إبـــراهيم، ورغم انفصالهما بعد ذلك فقد استأنف السيّد محمّد عمله حتّى نهاية 1930م

وكان هذا المحلّ التجاري بمثابة مدرسة لتكوين الرجال أمثال: شاعر الثورة: مفدي زكرياء، الشيخ: بن يوسف سليمان بن حاج داود، الشيخ: لبسيس قاســم بن حاج سعيد، بابا عدون الحاج مسعود بن رمضان، بابا عـــدون إبـــراهيم بـــن عيسى، كما آوى الشيخ: بابا عمي الحاج أحمد بن الحاج موسى.

لقد غدا السيّد الحاج محمّد محور نشاط دؤوب في تدبير شؤون الجماعة هناك تنظيما وتوجيها ومواكبة للأحـــداث الجاريـــة في المجـــالات الثقافيـــة والاقتصادية والسياسية التي كانت قسنطينة حاضنة لها، وبـــالأخصّ نشـــاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين برئاسة الإمام: ابن باديس.

كما كانت له مواقف جريئة مع السلطات الولائية الاستعمارية عندما حاولت شقّ طريق معّبد وسط أرض المقبرة الخاصّة بجماعتنا إذ تقاضـــاها في العدالة وربح القضية.

لقد توسعت معارفه في المجتمع القسنطيني فاحتك بعلّية القـــوم هنـــاك وأسهم بحظ وافر في تأسيس جمعيات خيرية هناك.

وبعد إنهاء نشاطه في قسنطينة مع اندلاع الحرب العالمية الثانية وبعد استقراره في ميزاب. واصل نشاطه الإصلاحي في "وادي ميزاب" دعاية ومشاركة في أهـــمّ القضايا الاجتماعية والثقافية. فكان من الأعضاء المؤسّسين لـــ"جمعية النهضـــة" في العطف سنة 1945م وبقي وفيّا لفكرته الإصلاحية لا يداهن فيها أحدا يشدّ من أزر العاملين ويمدّهم بتجربته إلى أن توفّاه الله ليوم: 28 ذي الحجة 1400هـــ الموافق ليوم 05 نوفمبر 1980م ودفن جثمانه الطاهر في مقبرة الشيخ "بابا حمو".



السيّد: بكلي حاجو بن الحاج سليمان
1907 - 1981

من مواليد العطفاء خلال سنة 1907م ترعرع في أحضان والديه السيّد بكلي سليمان بن حاجو والسيّدة أزعابة مامة بنت إبراهيم، فنشأ في بيت علم وجاه، إذ كان والده شيخا لعزابة المسجد العتيق، واعظا ومفتيا، ثمّ تعيّن أوّل قاض للمحكمة الإسلامية في بلدة العطف لأوائل القرن الماضي.

تلقّى الفتى حاجو مبادئ التعليم على يد والده وفي قريته، ثمّ سافر إلى العمل في مدن الشمال، شأن أمثاله من الغلمان في تلك الفترة، وقد حذق فنون التجارة، وأصبح له متجر مستقل في العاصمة لبيع القماش بالشراكة مع أخيه محمّد في أوّل دكان له بنهج عمّار علي "راندون سابقا" وذلك سنة 1932م، ثمّ توسعت تجارته في متجر أرحب وأوسع للبيع بالجملة، وقد بسط الله له في الرزق واستقرّ بعائلته هناك إذ تزوّج بزوجه الثانية السيّدة جعدي عائشة بنت حمو في العاصمة، فكان أغلب استقراره هناك.

و لم تشغله تجارته عن الاهتمام بشؤون بلده العطفاء، إذ كان ضمن أبنائها المهتمين بإصلاحها وتطويرها، فهو من المؤسّسين لـ"جمعية النهضة" سنة 1945م فتقلّد مسؤولية أمانة المال حتّى تجديد مكتبها في أوائل الخمسينات.

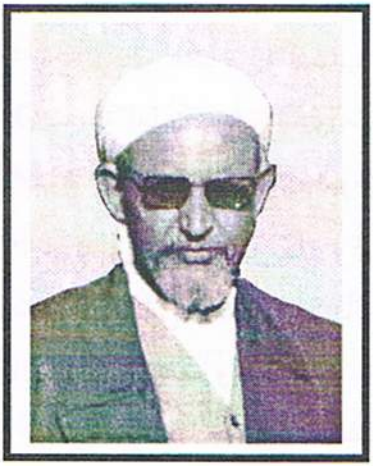
وكان -رحمه الله- يقدّم المبالغ الضرورية لتسديد أجور المعلّمين قبل أن يجمع المتجوّلون الميزانية الضرورية لذلك، وهو الذي سخّر المحلّ الذي آوى مدرسة الهداية، لأبناء العاصمة حيث لا تزال حتّى اليوم.

وكانت له مشاركة فعالة في الثورة المباركة، وذلك بإمداده لجيش التحرير بأنواع القماش الخاصّ باللّباس العسكري، فألقيّ عليه القبض سنة 1959م فعانى من الاستنطاق ثمّ أفرج عنه، وكان منزله الجديد في حيّ "باعلي وعمرو" في العطف كان مركزا للقيادة العسكرية للمنطقة الخامسة من الولاية السّادسة حتّى الاستقلال الوطنيّ.

وعلى بسطة رزقه كان -رحمه الله- متواضعا غيورا سخيّا بماله في سبيل المشاريع الخيرية، إذ اشترى بماله دورا مجاورة لتوسعة المسجد العتيق، كما تبرع بحائط كبير في حيّ "باهيمان" لبناء المصلى وأقسام تابعة للنّهضة وبأرض واسعة في حيّ "باحيو موسى" لبناء دار عشيرته "أولاد عبد الله".

ومن مآثره الحميدة أن موّل مشروع طباعة متن كتاب "النّيل" في ثلاثة أجزاء للشيخ عبد العزيز الثميني، وكتاب "قواعد الإسلام" في جزأين للشيخ إسماعيل الجيطالي، وكلاهما بتحقيق وإشراف الشيخ البكري: بكلي عبد الرحمان بن عمر. كما كانت صدقاته بأنواع الأقمشة في كلّ سنة تكسو كثيرا من العائلات الفقيرة في بلده.

ولئن انتقلت مسؤولية أمانة المال في الجمعية إلى غيره فقد بقي عضوا إداريا وفيا إلى أخريات عمره، إذ لبّى نداء ربه لسنة: 03 أبريل 1981م فدفن في مقبرة: "با عبد الله" بالعطف رحمه الله وطيّب ثراه.



السيّد: بابا عدون الحاج مسعود بن رمضان
1908 - 1981

هو من مواليد العطف خلال 1908م من أبوين كريمين السّيد: بابا عـــدون رمضان بن الحاج مسعود والسّيدة: الحاج سعيد فافة بنت محمد.

تلقى مبادئ العربية وحفظ القرآن في محضرة المسجد العتيق. ونظـــرا لاحتياج والده إلى مساعدته في تحمّل نفقات الأسرة فقد اشتغل مبكّرا أجيرا في متجر السيد: بهون بكير بن الحاج إبراهيم في رحبة الصـــوف بقســـنطينة حيث أصبح المقرب الأثير عند مدير المتجر السيد بوبكر الحاج محمد بن عمر "الشرح" فاكتسب بذلك خبرة مرموقة في شؤون التجارة وعـــاش الواقـــع الحضاريّ الممتاز للمجتمع القسنطيني، فاتسعت مداركه وتعززت شخصيته. ثم أصبح شريكا مرموقا في متجر ابن عمّه السيد بابا عدون محمد بن حمو لما يزيد عن عشر سنوات. إذ أجتمع له رصيد ماليّ استطاع به أن ينشـــئ حركـــة مستقلة في العاصمة، فكان له المتجر المشهور في نهج محمد الخامس الذي أصبح مركزا هامّا لقادة الثورة في العاصمة. وعندما انكشف أمرهم لدى الســـلطة الاستعمارية اضطرّ إلى نقل حركته مع شركائه إلى المنيعة ثمّ إلى غرداية. وبعد

الاستقلال الوطني أسّس حركته التجارية في الدار البيضاء والتي ورثها عنه ولداه إبراهيم ومحمد وهي مستمرّة بنجاح حتّى اليوم.

وإلى جانب نجاح السيد الحاج مسعود في حركته التجارية إذ كان صادقا وفيا مع كل الشركاء الذين تعامل معهم، كان من أعيان البلد المرموقين عملا ونشاطا في كلّ ما يرفع شأن بلده. فكان عضوا مؤسّسا لـ"جمعية النهضة" سنة 1945م كما التحق بحلقة العزابة سنة 1971م.

يتسم بالصلاح والتقوى ولا يألوا جهدا في عمارة بيت الله بالمسجد العتيق حتّى وافاه أجله. ومن مآثره الخيّرة أنه تبرع بجنانه في الجاوة بكلّ ما فيه من نخل ومرافق للسكنى مع مساحة كبيرة من الأرض تبرع بها وقفا للمسجد العتيق حيث يتربع الآن المجمّع القرآني يدخل عليه الرحمات.

تدهورت صحته في أخريات أيامه فوافاه أجله ليوم 09 أوت 1981م ودفن جثمانه الطاهر في مسقط رأسه طيّب الله ثراه.



السيّد: الحاج عيسى الحاج صالح بن الحاج عمر
1908 - 1981

من مواليد العطفاء خلال 1908م لأبوين كريمين هما السيّد: الحاج عيسى الحاج عمر بن بالحاج، والسيّدة: الحاج أمحمد عائشة بنت بكلي. نشأ يتيما، إذ توفي والده الذي كان من أوّل التجار العطفاويين، ومن الملاّك في بلدة الجلفة، وكانت والدته تفيض عليه رقّة وحنانا، سيّما بعد وفاة والده. فكفله خاله السيّد: الحاج أمحمد الحاج يحي بن بكلي في بوسعادة، حيث تلقّى مبادئ العربية واللّغة الفرنسية حتّى اشتدّ ساعده.

فانتقل إلى العاصمة وأنشأ دكانا للقصابة العصرية بحيّ "عبد اللطيف مختار" "طرولار" سابقا، ثمّ فتح مع أخيه إبراهيم متجرا لبيع الأقمشة بالجملة، فكان أغلب استقراره مع أسرته في العاصمة، ومن بسطة عيشه وأخذه بالأساليب العصرية أنه اشترى "فيلا" أنيقة لسكناه في حيّ "سانت أوجين" في وقت لا يحلم فيه أمثاله من الجزائريين أن يحقّقوا ذلك، كما اقتنى سيارة خاصّة.

ولكن رغد العيش لم يثنه أن يصبح من أقطاب الحركة الإصلاحية في العطف، إذ واكبها بإخلاص من أوّل انطلاقتها، فكان من مؤسّسي "جمعية

النهضة" لسنة 1945م. ومن جملة المستهدفين بالمراقبة الصارمة من طرف الحكّام العسكريين الفرنسيين وأعوانهم بغرداية. إذ فرضوا عليه الإقامة الجبرية لمدة سنة كاملة. وذنبه أنّه زار الشيخ الإمام بالقرارة دونما رخصة، وذلك إبان الحرب العالمية الثانية، كما حكموا عليه بالحبس مع الأشغال الشاقة في غرداية. وعند احتدام الصراع الثوريّ في العاصمة سيّما عند مجابهة المنظمة السّرية الفرنسية: O.A.S استهدفت متجره في حيّ "المختار عبد اللّطيف" فقتلت أحد العاملين في المتجر وأصابت السيّد الحاج عيسى صالح ثلاث رصاصات اخترقت جسمه و لم تصب منه المقتل، فعانى لانتزاعها أياما مريرة في المستشفى.

وهكذا عاش بقية حياته وفيا لمبادئه وتوجهاته، حتّى وافاه أجله خلال 1981م وذلك إثر حادث مرور على الطريق الوطني رقم: 01 تغمّده الله برحماته.



السيّد: سماوي الحاج إسماعيل بن الحاج محمد
1903 - 1983

المجاهد الرّمز، يصدق فيه قوله تعالى:
﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[آل عمران: 146].

- المدخـل:

الحمد لله يزيد من فضله لعباده المخلصين، ويقيّض منهم من شاء لنصرة الحقّ المبين، نشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّـدا عبـده ورسوله إمام المهتدين وقدوة المجاهدين، صلّى الله عليه وعلى آله وصـحابته أجمعين، أمّا بعـد:

فيا أيها الإخوة الأعزاء، ها هي ذكرى ثورتنا المجيدة تعاودنـا متوهجـة وضّاءة على مرّ الأيام وتوالي السنين، تذكي في عروقنا نخوة الإبـاء والشـمم، وتنعش في نفوسنا داعية الاعتزاز والفخار، فلم تسـتطع مكائـد الأعـداء ولا تصاريف الزمن أن تطفىء جذوتها أو أن تخمد أنفاسها، على ما لاقته من عنـت وما تلقته من ضربات؛ ذلك لأنّ جذورها الطيّبة ضارية في أعماق هـذه التربـة

المباركة من وطننا المفدّى، وقيمها الصالحة الغالية متأصّلة في سويداء هذا الشعب الكريم، يوم أن باركته عناية السماء، وعقد عزمه على الحرية والانعتاق.

ولكلّ دعوة ركائزها من دعاة أوفياء وأتباع أصفياء يخوضون الغمار ويركبون الأخطار لتغيير أوضاع مجتمعهم مهما كلّفهم ذلك من ثمن، وهم في ذلك لا يبالون، أرجعوا فائزين أو خائبين؛ لأنّ الوطن في معتقدهم وديعة للأبناء والأحفاد، وشعارهم في جهادهم النصر أو الاستشهاد.

وقد قيل سفها وحسدا: إنّ بني ميزاب لم يشاركوا في الثورة التحريرية، حرصا منهم على سلامة مؤسّساتهم وأمن بلدهم، وأن القلّة من مناضليهم والأقلّ من مجاهديهم إنّما تحرّكوا تحت التهديد والإكراه، ولم يكن لهم إيمان راسخ بالقضية الوطنية، بل جرّهم التّيار ودفعهم الاضطرار. إلى غير ذلك من الترهات التي ما فتئ الأفّاكون يردّدونها حماقة وجهلا، أو سفاهة وكيدا.

وحرصا منّا على الأمانة التاريخية، وإنصافا لأولئك الأبطال الذين صنعوا الحدث، وعاشوا بكلّ جوانحهم، وضحّوا بكلّ ما يملكون لتطهير الأرض الطيّبة من أرجاس الكفر والزيغ والضلال، فإنّني أقدّم بين أيديكم نبذة عن حياة أحد رموز الثورة وصانعي أمجادها من أبناء هذا الوادي الأمين المجاهد السيّد: الحاج إسماعيل بن الحاج محمد سماوي. أقدّمه لجيل الاستقلال في صورته الفطرية أخلاقا وسلوكا دونما تضخيم أو تفخيم. عسى تجد فيه الأجيال مجالا للاتعاظ والاذّكار، ورمزا للاعتزاز والافتخار.

01- محتدة الأصيل:

من الأسر الماجدة العتيدة في بلدة العطف "تاجنينت" "آل سماوي"، وهم فرع من الدوحة الفينانة لعشيرة "آل الحجاج" الأماجد، والتي لها من الفروع كلّ من: الحاج أمحمد، الحاج إبراهيم، الحاج إسماعيل، الحاج عيسى. ومن الثّابت نسبا أن أسرة "آل سماوي" إنّما هي في الحقيقة فرع من أسرة

"آل حاج إبراهيم" وكثيرا ما تحدث التجزئة في الألقاب لأسرة واحدة عندما يكثر أفرادها. وغالبا ما يتمّ ذلك باتفاق شيوخ تلك الأسرة. وقد استقرت الألقاب في كلّ عشيرة من عشائر البلد السّبع سنة **1934**م عند تنظيم الأحوال المدنية بصفة رسمية.

أمّا متى حدثت هذه التجزئة في الألقاب لأسرة "آل الحاج إبراهيم" التي تفرّع عنها "آل سماوي" فيحتاج ذلك إلى وثائق ثبوتية من خلال العقود القديمة. أمّا الجدّ الأعلى الذي يجمع فروع هذه الأسرة فهو المرحوم "باحمد بن بهون" وقد اشتهر بالشّهامة والبطولة. وحسب في ذلك أن يجير الشيخ بالحاج القراري -دفين العطفاء- متحدّيا في ذلك عرش القرارة بأكمله، وقد خرج منها طريدا مهانا.

ومن الرجال المغاوير في هذه الأسرة الطيّبة السيّد: الحاج أحمد بن صالح الذي كان من أوائل تجار العطف في مدينة "الجلفة". وكانت له اليد الطولى في تدبير شؤون الجماعة هناك. آوى إليه قطب الأئمة -رحمه الله- إذ مهّد له الطريق الآمن لسفره بأسرته إلى البقاع المقدّسة، على ما تعرّض إليه من مضايقات بني عمومته من أجل ذلك. فإلى هذه الأسرة الماجدة ينتمي السيّد الحاج إسماعيل فهو سليل مجد أثيل وشرف أصيل، زكا به منبته وطاب منشأه: ﴿**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ**﴾[الأعراف:58]. إذ أنّ كلاّ من والديه ينتمي إلى نفس الأسرة. وهما المرحوم السيّد: الحاج محمّد بن حاج أحمد، والمرحومة السيّدة الحاج إبراهيم زوليخاء بنت الحاج عمر. ففي بيت هذه الأسرة المصونة في حيّ "بوسالم" صرخ الوليد صرخته الأولى لنور الحياة سنة **1903**، ولدا بكرا لأمّ لا تتجاوز أربع عشرة سنة. وهي -لعمري- تجربة قاسية، ولكن من ورائها يد الله الحانية تحتضن الوليد وتحوطه بأسباب الحفظ والعافية في ظروف صعبة لا تعرف قوابل ولا حواضن، ولا أطبّاء أو مستشفيات.

والوالد الكريم -الحاج محمّد- كان بين أشقائه: صالح وبكير وعمر. كان المرشح للاستقرار في البلد لرعاية الأسرة والتكفل بشؤون الفلاحة في أجنة "آل سماوي" بـ"أحباس". وهذا التنظيم المحكم لدى الأسر الكبيرة في البلد يعكس مدى التضامن والتعاون في مواجهة تكاليف الحياة من جهة، ومراعاة القيام بشؤون المجتمع ومؤسساته العرفية من جهة أخرى، وذلك لتوزيع المسؤوليات المادية والروحية بين الإخوة. فيتولّى بعضهم مسؤولية الكسب والارتزاق ضربا في أرض الله، ويستقرّ آخرون في البلد لتعهّد الأسرة وتدبير الشؤون الفلاحية، والاطّلاع بالمهامّ الاجتماعية والروحية في المسجد، أو في جماعة البلدة أو في العشيرة. وليت الأجيال الحاضرة تتحلّى بهذا الحسّ الديني والاجتماعي، وتتأسّى بأسلافها في هذا التنظيم المحكم، إذن، لسدّت بذلك ثغورا تشكو اليوم فراغا مهولا، وتعصف منها رياح التحدّي والكيد لنسف قواعد هذا المجتمع الفاضل في أعزّ مقوّماته وأغلى رموزه، وصدق مولانا العظيم إذ يقول: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[الأنفال:53].

وقد بارك الله هذا الاستقرار العائلي بين الوالدين الحنونين، فنشأت عنه ذرية صالحة طيّبة ذكرانا وإناثا، تفرّعت عنه فروع وارفة الظلال، وهم على ترتيب أعمارهم: إسماعيل، أحمد، نانة، إبراهيم، لالة، عادة، أيوب، عائشة.

02- نشأته غلاما وشابّا:

نشأ الفتى بين أحضان أسرته نشأة بسيطة على غرار بني جيله في مجتمع ما يزال يعاني من شظف العيش وعدم استقرار أغلب الرجال في البلد. والأمية الكالحة ضاربة أطنابها، إلاّ ما يزاوله الأطفال من تعليم دينيّ تقليديّ في الكتّاب، ومن مبادئ الفرنسية في قسم عصريّ وحيد في البلدة، لا يرتاده إلاّ الأطفال الفقراء؛ لأنّ تعليم الاستعمار كفر في اعتقاد أغلب الأولياء في تلك

الفترة العصيبة. وكان حظ الفتى من هذين التعليميين زهيدا، غير أنّه تمرّن على اللّغة الفرنسية أكثر من خلال عمله في سنّ مبكّر بمتجر "آل سماوي" بالحراش الذي أسّسه عمّه السيّد سماوي صالح بن حاج أحمد، وكان معدّل العمر للفتيان الذين تضطرّهم ظروف العيش إلى العمل في مدن الشمال، لا يتجاوز السنّ الثانية عشرة. حيث يتدرّج الصبيّ من أبسط الأعمال في الطبخ والغسيل والتنظيف وجرّ البضائع وترتيبها إلى العملية التجارية من بيع وشراء وضبط الحسابات. فأظهر الفتى تفوّقا في هذه المجالات. غير أنّه ضاق ذرعا من سوء المعاملة التي كان يعامله بها بعض من سبقوه هناك، وقد اشتدّ ساعده، وتبلور طبعه الأنوف مع فترة المراهقة، ولم يطق صبرا من تلك الوضعية فارتحل -مغاضبا- إلى تونس الخضراء ليعمل بها قابضا للكراء في إحدى شركات النقل، وذلك في أواخر العشرينات، وليس هذا الموقف من أمثاله في تلك الحقبة بالأمر الهيّن في أعراف جماعتنا وتقاليدها، في الانضباط والالتزام بالتنظيمات المتّبعة داخل منطقة ميزاب أو خارجها، فكان هذا التمرد من الفتى -إن صحّ التعبير- مؤشر الخصائص أخذت تتنامى في شخصه عشقا للعزة والكرامة وحبّا للحرية والانعتاق. لم يطل مقامه في تونس، إذ قيّض الله أحد سراة عشيرته المرحوم الحاج عيسى الحاج إبراهيم بن الحاج محمّد بن صالح، فأقنعه على أن يعود إلى الوطن فيساعده ماديّا وروحيا ليرسم خطّ سيره في الطريق الصحيح لمستقبل حياته. وقد جسّد هذا الرجل الفذ بمسعاه في إنقاذ أحد أبناء عشيرته، جسّد ذلك التكافل الاجتماعيّ الذي قام عليه مجتمعنا منذ أقدم العصور -فاعتبروا يا أولي الأبصار-.

وهكذا اعتمد الفتى على نفسه، فأسّس أولاً متجرا بسيطا في ساحة أوّل ماي بالعاصمة، ولم يطل به العمل هناك حتى أسّس متجره المشهور في نهج "المختار عبد اللّطيف" -"ترولار" سابقا- سنة 1932م، وضمّ إليه إخوته متعاونين متكاملين.

03- زواجـه وأولاده:

إن سنّ العشرين هو المعدّل الأنسب لزواج الفتيان في عادات المنطقـة، إقتداء بسنّة رسول الله ﷺ وتلبية لندائه:«**يا معشر الشّباب من استطاع منكم الباءة فليتزوّج**». وقد تدفع أسرة ما ظروفها الاقتصادية إلى التقديم أو التأخير عن هذه السنّ، ولكن اتّباع السنّة يظل الهاجس الكبير للوالدين، وفي أوليات مسؤوليتهم نحو أولادهم، ولا تزال مراسيم الأعراس مناسبة سعيدة وفرصـة غالية لتكافل الأسر وبسط الأنس والسّرور، وتبادل الهدايا والزيارات تحـت إشراف الهيئة الدّينية وفي إطار التعاليم الإسلامية السمحة، فـلا رفـث ولا فسوق ولا لغو ولا مجون في مراسيم أعراسنا.

في ظل هذه التقاليد العريقة توّج الفتى بتاج الرجولة وبنى بزوجه الأولى مـن أسرة "آل الحاج إبراهيم" السيّدة "مامة بنت سليمان" خلال العشرينيات، ولكـن ظروف الحياة القاسية في تلك الفترة قد لا تشجع أسباب التوافـق والانسـجام؛ فاغتراب الرجال لفترات طويلة، والفقر، والجهل، وبعـض القيـود الاجتماعيـة الصارمة، كلّها عوامل قاسية، تعرّض -أحيانا- الحياة الزوجية للهزات العنيفة، فلا يهتدي الزوجان ولا أفراد العائلة إلى التصالح والتوافق. وبالتـالي تكـون النتيجـة الحتمية هي الطلاق. وذلك ما عاناه الفتى في زواجه الأوّل.

وتشاء الألطاف الإلهية أن تجعل من تجربة الفتى في تونس محكّا يختبر فيه معدنه، ومن مسعى السيّد الحاج عيسى الحاج إبراهيم في تهدئة نفوره وضمّه إلى سربه، يجد الفتى مسلكا آمنا للاستقرار في حياته الزوجية مـع زوجه الثانية السيّدة: الحاج عيسى مسعودة بنت الحاج محمّد بن صالح، إذ بنى بها بكرا حَصانا في شهر ماي **1930**م. فجعل الله بين الزوجين مـودّة ورحمة ورزقهما أولادا بررة وهم: الحاج قاسم، باية، عمر، خالد، صالح، أبو عبيدة، سعد، إبراهيم.

وظلت هذه الزوجة الوفية أمّا لأولاده وشريكة حياته حتّى وفاته وصدق من قال: «حسنة الدّنيا المرأة الصّالحة».

04- نضاله الاجتماعيّ والإصلاحيّ:

لقد واكب الفتى أحداث القرن العشرين من أوائله، لأنّ ما فطر عليه من حدّه الطبع وهمّة النفس ونقاء السريرة، ثمّ الظروف البيئية التي درج فيها منذ طفولته، جعلت منه عصاميا في مواقفه، توّاقا إلى التغيير والتجديد، إن على مستوى أسرته، أو على مستوى مجتمعه ووطنه، فهو -وإن لم يتسلح بسلاح المعرفة الضرورية ليكون رائدا من رواد النهضة الإصلاحية- فقد ارتقى بحسّه المدنيّ والاجتماعيّ ليساهم بإخلاص ووفاء في دفع عجلة الإصلاح إلى جانب الرواد الأوائل.

ففي الشمال كانت له اتصالات وطيدة مع كثير من الشخصيات البارزة في الحركة الإصلاحية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين أمثال الشيوخ: عباس التركي، عباس الحسين، الشيخ محمد خير الدين.

وفي الجنوب كانت الحركة الإصلاحية قد انطلقت مسيرتها خلال الثلاثينيات، وقد اكتهل الشاب العصاميّ الغيور فكان لا يتوانى في نصرتها والوقوف إلى جانب رجالاتها، وما إن تكوّنت النواة الأولى للبعثة البيوضية في معهد الحياة بالقرارة، حتّى بادر بإرسال أخيه الحاج أيوب لينضم إلى الطليعة الأولى من أفراد البعثة العطفاوية هناك. وذلك في شهر أفريل من سنة 1943م. وإن أَنْس لا أنسى تلك النصائح الغالية التي أسداها لي في شهر جويلية من سنة 1943م. وقد كانت له زيارة إلى مدينة "مسعد" على سيارته الخاصّة صحبة صهريه المرحومين السيّد: الحاج عيسى الحاج محمّد بن صالح وابنه السيّد: الحاج إبراهيم بن حاج محمّد. وكنت يومها أجيرا صغيرا مع ابن عمّي السيّد: باحمد بن صالح كعباش. فقد نصحني بلطافة

بعيدا عن رقابة معلّمي صاحب المتجر إذ أسرّ إليّ بهذا الحديث قائلا: "أيّها الولد: إن الله لم يخلقك لمثل هذا العمل السّاذج البسيط، بل خلقك للعلم والعرفان، فاعقد عزمك على أن تلتحق بمعهد القرارة، كما التحق به أخي أيوب، فإنّ البلد في حاجة إلى أمثالكم ممّن ينهضها من كبوتها، فإن أسلمك أهلك فاضطررت إلى العمل، فثمّت رجال يكفلونك ويضمنون نفقاتك، وأنا واحد منهم". شكرت له تلك النصيحة بصوت متهدّج خجول؛ لأنّي ما كنت لأعرف الرجل من قبل أبدا، غير أنّ نصائحه الغالية أخذت تعمل في صدري، وتحفزني إلى التفكير الجدّي في تغيير مسار حياتي، كما كانت لرسائل معلّمي المرحوم الحاج إبراهيم محمّد بن بهون في الموضوع نفس التّأثير حتّى تمّ -بفضل الله- ما عقدت عليه العزم من الالتحاق بمعهد القرارة سنة 1945م. وصدق مولانا العظيم: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ، تُؤتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾[إبراهيم: 24-25].

لقد أدرك بحسّه المرهف ما يعانيه مجتمعه من ظلمات الجهل ومتاهات الخرافة، ولئن لم يسعفه الحظ في أن يتزوّد بالعلم والمعرفة، فإنّ الأقدار كانت تهيّئه داعية صدق وإخلاص بمساعيه الحثيثة في تعهّد بذور النهضة الثقافية في أوائل الثلاثينيات في البلد. تلك النهضة المباركة التي برزت نبتتها إلى الوجود على يد الرواد الأوائل في تحديث التعليم وعصرنته رويدا رويدا من أمثال المرحومين السابقين الذّكر: الشيخ محمّد بن بهون، الشيخ بكلي أحمد بن حاج يحيى، الشيخ بابا عمي الحاج أحمد بن الحاج موسى، ومن وقف إلى جانبهم من سراة البلدة وفضلائها، إلى أن هدر سيل الإصلاح لينبت الخير والنفع، ويعلي منار العلم للأجيال.

وعندما تأسّست "جمعية النهضة" سنة 1945م كان من أنصح ناصريها بالدعاية والمال، يقف إلى جانب متجوّليها في كلّ مرّة يزورون فيها العاصمة وضواحيها، فينقلهم على سيارته الخاصّة، ويعنّف بلهجته الصريحة كلّ بخيل يتهرّب ويتعلّل، ثمّ لا يتردّد في إسعاد المتجوّل بما يضيف إليه من تبرعاته إذا ما وجد حصيلة تجواله هزيلة. ويروي الشيخ القرادي -رحمه الله- أنّه كان يلومه إذا ما تردّد على بعض أولئك البخلاء من أبناء العطفاء ثمّ يقول له: "دعك منهم يا هذا، وأنا أعطيك من مالي الخاص كلّ ما تتوقّعه أن تجمعه منهم"، مما ينمّ عن عزة النّفس من جهة، وعلى حبّه للخير والبرّ والإحسان، ويا ما دعا له بالخير أولئك الفقراء الذين لا يتوانى ولا يتردّد في نجدتهم وإسعافهم بسيارته في اللّيل أو النّهار، استشفاء لمريض، أو إغاثة لملهوف، في ظرف لم تكن فيه الطرق معبّدة، وتنعدم فيه وسائل النقل العمومية تماما، حتّى وصفت سيارته بأنّها "سيارة الله"، واعترافا بجميله، وإكبارا لفضله وإحسانه: ﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤتِيهِ مَنْ يَّشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾[الحديد:21].

وفي سنة 1950م عند تجديد المجلس الإداريّ لـ"جمعية النهضة" أصبح ضمن تشكيلته عضوا بارزا مرموقا، لا يألو جهدا في السعي الجادّ والوقوف إلى جانب المعلّمين عند أزمات ميزانية التسيير، وقد عرفت منها الإدارة ضوائق شديدة كادت تتعطل منها المدرسة -أحيانا-.

وفي مجال برّه بوالديه كان النموذج الصالح في الإحسان إليهم وإغداقهم بكلّ ما يتمنونه من حلال طيّب بعدما تحمّلا من نكد الدنيا وأوضارها. فالوالد المرحوم عاش -كما تقدّم- فلاحا بسيطا قوي الإيمان بربّه، زكي النفس، مخموم القلب، وجد من ولده كلّ عطف وبرّ حتّى وافاه أجله سنة 1959م، وأمّا الوالدة الحنونة فكانت أميرة الأسرة لا يعصى لها أمرا، ولا يردّ لها طلبا، عاشت مكرّمة هنيئة بين أبنائها وأحفادها الكثر، وولدها إسماعيل هو الخليفة لأبيه مهاب الجانب ميمون الطالع، موفور

الحبّ والولاء مزوّدا بدعوات أمّه الصّالحة، حتّى لبّت نداء ربّها راضية مرضية في شهر مايو 1982م. ويا ما أسعد الأسرة المسلمة إذا جمع الله شملها وأصلح شأنها، ووفّر لها أسباب الهناء والاستقرار، في كنف الحبّ والاحترام المتبادل، وفي ظل التعاون والتكامل.

05- نضاله وجهاده الثّوريّ في الشّمال:

لكلّ امرء في توجهاته الفكرية، واختياراته السلوكية أسباب ومؤثرات، فما هي تلك المؤثرات التي جعلت الشاب المكتهل -سماوي إسماعيل- يندفع بحماس فياض وإيمان راسخ إلى تبنّي القضية الوطنية؟ وهو التاجر البسيط الذي يحذق اللطافة في المعاملة مع الطبقة الراقية من المعمّرين في حيّ لا يسكنه من الجزائريين إلاّ الأفذاذ القلائل من المرموقين بتكوينهم وثقافتهم، أمثال الرئيس فرحات عباس. و لم يكن الفتى إسماعيل ليندّ عن أقرانه ممن نشأوا في "وادي ميزاب" نشأتهم الأولى اعتدالا في السلوك وهدوءا في الطباع، وطيبة وسماحة في المعاملة.

ولعلّ البذرة الأولى في حسّه الوطني تفتقت في حضن "المولودية"، إذ كان من المتحمّسين لها مع أخيه المرحوم سماوي باحمد، فلا يكادان يتخلفان عن مقابلاتها، وقد كانت تلك الجمعيات الرياضية، وما تشغله من الطاقات الشبانية خير مجال حيويّ لبعث الحسّ الوطنيّ بأسلوب حكيم لا يستفزّ المعمّرين، تذرّع به دعاة الحركة الوطنية في نشاطهم السريّ، غير أنّ هناك سببا مباشرا أثار في الشاب معاني النخوة والإباء، قدّر الله تعالى أن يثيره من خلال مهنته التجارية وينعكس في طبعه كرها شديدا للاستعمار وحقدا مكينا لجلاّديه. فلنستمع إليه يوضّح ذلك ويقول: "كان ذلك خلال سنة 1942م، والحرب العالمية الثانية على قدم وساق، حيث بدأت أمارس العمل في السوق السوداء كغيري من التجار، فانكشف أمرنا وألقي القبض علينا، ومورست

ضدّنا ألوان من المكر والتعذيب نلت منها الحظ الأوفى، إذ لذت بالصّمت وعدم الإقرار دون غيري من التجار، فلم تثبت ضدّي التهمة -بحمد الله- ولكن بثمن فادح في جسدي، غير أنّي خرجت من هناك بنفس ثائرة جموحة تحمل في طياتها بغضا شديدا للاستعمار وأعوانه، وتتربّص الفرص المواتية لسحق قواعده وأركانه. خرجت من هناك أقسم بالله ألاّ آلوا جهدا في نصرة أيّ موقف يغيظ الكفار وتلبية أيّ دعوة تناهض الاستعمار". انتهى.

تتوالى الأيام وتمضي الأحداث الأليمة إمعانا في الظلم والطغيان بلغ ذروته في أحداث 08 ماي 1945م، وتداعى الأحرار إلى غسل العار والأخذ بالثأر فإذا بالطبول تدق للثورة العارمة في فاتح نوفمبر 1954م. فأخذ الأسد الجريح يتأهب للقراع والنّزال، ويترقب المسلك الذي يلحقه بزمرة الأبطال.

وهاهو الموعد المرتقب يتحدّد وذلك في شهر أكتوبر 1955م، حين كان قادة الثورة يخطّطون لتركيز انطلاقتها وتوسيع دائرتها لتعمّ أرجاء الوطن. وصادف أن كان إسماعيل حينها في رحلة تفقدية لأسرته "بميزاب" وذات يوم تسلّل شاعر الثورة -مفدي زكرياء- إلى المتجر ليطلب من السيّد سماوي إبراهيم -كنّوني- أن يتخذ بعض من قادة الثورة من متجره ملتقى لهم، فوافق الأخ إبراهيم مبدئيا على المقترح، وهو واثق من أخيه إسماعيل أنّه يسرّ للخبر ويبارك المسعى؛ لأنّ ذلك هو أمله المنتظر، بل حمد الله إذ أبرّ بقسمه وصدّق ما كان من حلمه. وصدق رسول الله القائل: **«إن لله عبادا لو أقسموا على الله لأبرّهم»**.

أخذ قادة الثورة يتردّدون على المتجر، وأول رائد لهم اطّلع على المكان وخبر حناياه ومعبره الداخليّ هو الرئيس ابن يوسف بن خدّة، ومعه رفيق له يدعى "سي الحسين"، ومن ثمّ أصبح يتوافد عليه كلّ من الإخوة: العربي المهيدي، كريم بلقاسم، عبّان رمضان، سعد دحلب، وغيرهم. ومن هناك

كانت اتصالاتهم بمسؤولي الولايات كما أخذ القادة يخطّطون لمعركة الجزائر العاصمة. وعندما دعت الجبهة للإضراب الأوّل في نوفمبر 1955م كان ذلك هو المحك الأوّل لاستجابة الشعب، وقد ألحّ الشهيد العربي المهيدي لدفع الثورة إلى الشارع الشعبي. ولم يكن المتجر محلّ شبهة من طرف الأمن الفرنسيّ إطلاقا. فالأخ ابن خدة يدخل إلى المحلّ بزيّه الأوروبيّ الأنيق وقبعته الممتازة ونضرة وجهه الزهية يدخل كأيّ زبون عادي، ثمّ يتسلل إلى الداخل في الوقت المناسب، وقد أمر الأخ سماوي إبراهيم أن لا يمتثل لدعوة الإضراب دفعا لأية شبهة متوقعة، ولم يكن إسماعيل على دراية بذلك، فعظم عليه -وهو في ميزاب-، أن يتخلّف متجره عن استجابة دعوة الجبهة، فقرر الرّحيل لتوّه إلى العاصمة مغاضبا، غير أنّ ظنونه قد زالت عندما عرف الحقيقة، وأصبح مع القادة في صميم المعركة وهو يعانقهم ويعاهدهم على التضحية والفداء، وعلى الأمانة والوفاء، ومن ساعته تحمّل إسماعيل مسؤولية النظام، وتنفيذ الأوامر مهما تطلّب ذلك من مغامرة أو مخاطرة داخل المتجر أو خارجه، نقلا على سيارته واتصالا بمختلف المراكز السرّيّة. وكم رافقه الأخ ابن خدّة متنكّرا بزيّه تساعده بطاقات مزيفة وإسماعيل يتخطى حواجز المراقبة ويعرّف صاحبه باسم "مسيو مورينة" وليس له من الوسائل المساعدة في الأوقات الحرجة إلا ترديده لآيات القرآن من مثل قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سُدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سُدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾[يس:9]. وآية الكرسيّ. وقد حباه الله سكينة ورباطة جأش مستأنسا بدعوات والديه الصّالحة. وثقته في الله تعالى:

عناية الله أغنت عن مضاعفة من الدّروع وعن عال من الأطم

اطمأن القادة لمأمنهم في المتجر، واتسع نطاقهم للعمل المتواصل، ودعت الضرورة إلى إيجاد مراكز أخرى تتمّ فيها عملية الطباعة للمنشورات والبيانات فكلفوا إسماعيل باختيار تلك المراكز على أن تكون كلّها في متاجر بني ميزاب

المتواجدة في الأحياء الفرنسية مما يدلّ على ما كان يتمتع به إخوتنا من الثّقة الكاملة في نزاهتهم وسرّيتهم من طرف قادة الثورة فتعيّنت المتاجر الآتية:

أ)- متجر آل ابن عيسى في نهج مصطفى فروخي "ريشوليو" سابقا، حيت كانت تطبع المنشورات في حركة دائبة بدهليز المتجر.

ب)- متجر "آل بابا عدون" في نهج محمّد الخامس.

ج)- متجر المرحوم السّيد: زرقون الحاج عبد الله في نهج "ديدوش مراد".

د)- متجر جلمامي عمر في نهج "كلود ديسي".

وفي إطار اتخاذ المآوي الآمنة للمسؤولين، اكترى إسماعيل شقة في حيّ أوروبي على اسم المرحوم سماوي باحمد بن بكير. وهكذا ظل المتجر -بلطف الله- بعيدا عن أعين الرّقباء، حتّى كانت قصة حقيبة المال التي لاحظها أحد المعمّرين السّاكنين في عمارة المتجر، وهي تسلّل من رواق العمارة إلى المدخل الداخلي فأخبر الأمن، غير أنّ إسماعيل كان أمضى من أعوان الأمن، إذ حملها للتوّ على سيارته مخترقا بها عدّة حواجز إلى مدينة الحراش، لتبقى في حرزها الآمن عند المرحوم السّيد: ابن لولو صالح. قام إسماعيل بتلك المغامرة الجريئة، وهو لا يعلم المبلغ الذي تحتوي عليه الحقيبة المشؤومة، إذ تعرّض لعتاب مرير بل وإلى تهديد بالإعدام بعد ردّه الأمانة إلى أهلها عندما وجدوا نقصا في المبلغ المودع بالحقيبة يقدّر بمليونين من الفرنكات، وهو الواثق من نفسه بأنه ردّها كما أخذها بدون تثبت لما بداخلها نظرا للظروف القاهرة. وبكلّ جرأة وثقة في النفس واجه ذلك التّهديد داعيا الله أن يكشف الخائن الجبان، وبالفعل فقد انكشفت الحقيقة للمسؤولين فعرفوا صاحبهم، وقد نال من الله جزاءه، فاستسمحوا إسماعيل، و لم ينل ذلك من عزيمته؛ لأنّه في اعتقاده لا يجاهد لأحد بل يعمل لله والوطن. وبعد إضراب 08 ماي 1957م أصبح المتجر محلّ رقابة مستمرة فقلّل إسماعيل من مكثه في المتجر، مما اضطره إلى الانتقال إلى ميزاب

فأصبح أخوه إبراهيم يتعرّض إلى المضايقات وإلى الاستنطاق والحجز أحيانا للإقرار بما كان يجري داخل المتجر، ولكنّه لم يبح بأيّ سرّ، فكان إبراهيم لأخيه إسماعيل بمثابة هارون لموسى في مواجهة طغيان فرعون.

06- نضاله الثّوريّ في الجنوب:

ما إن استقرّ المقام بإسماعيل في مسقط رأسه بالعطف -وهي المدينة المجاهدة- حتّى استأنف نشاطه مع مسؤولي الجبهة المتواجدين في البلد منذ 1955م. فبقي ينشط في الخفاء برزانة وحذر، حتّى أخذت الشبهة تحوم حوله بعد فترة قصيرة فألقي القبض عليه للاستجواب يوم 07 أوت 1957م، ولكنّه عرف كيف يراوغ المباحث فلم تثبت عليه أيّة تهمة هنا، كما أنّ التحقيق في العاصمة لم يستكمل بعد إجراءاته، فأطلق سراحه بعد أسبوع غير أنّ الرياح سوف تلهب النار التي تحت الرماد ويكون لها ضرام يجب الحذر منه. وهكذا أصبح إسماعيل لا يأمن على حريته في ليل أو نهار، أضف إلى ذلك ما تعرّض إليه من مضايقات جند الخائن "بلونيس" وقد تمركزوا في حيّ الشهيد "رزاق" وقد أنجاه الله من قبضتهم، وحين جدّ الجدّ وجاءت الأوامر من العاصمة بإلقاء القبض عليه عمل بنصيحة رجل موسى حين قال له: ﴿**يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ**﴾[القصص:20]. وكان ذلك في أكتوبر 1957م حين دخل الجند إلى جنانه بـ"أحباس" بحثا عنه في حنايا الدار والجنان وصادف وقتها أن دخل المدينة بسيارته، فلم يتوان في تدبير أمره للخروج وتفويت الفرصة على أعدائه. فخرج إلى "بريان" بمساعدة المرحوم السيّد: بابا عمي مسعود بن باحمد، إذ نقله على سيارته وأنزله قبل حاجز التفتيش، ليتسلل خلال الأجنة إلى غابة المرحوم ابن يامي موسى بن بالحاج كمرحلة أولى في لجوئه إلى تونس عبر الحدود والأسلاك الشائكة المكهربة في مغامرة فريدة من نوعها، كانت فيها الألطاف الإلهية تصاحبه وتعصمه.

07- لجوؤه إلى تونس:

إنّها مغامرة خطيرة لا تكاد الأجيال الحاضرة تصدّقها، ولكنّها الواقع التاريخي لهذا الرجل الفذ يسجّل له بالفخر والاعتزاز. فقد ابتعد عن الخطر بخطوات، ولكنّه لم يبرح دائرته ما دام في الأرض المشتعلة بنار الثورة. فلا مناص له -إذن- من توخّي المسالك الوعرة عبر الجبال والأودية أو الدروب المغفلة عن أجهزة المراقبة في المدن والقرى. وقد رافقته عناية الله، فلم يعثر الاستعمار له على أثر فتسلّل إلى مدينة "الجلفة" فإلى البرج ثمّ قسنطينة، وهو لا يعدم من إخوانه وذويه أدلاّء ومجيرين، ومن حمام "أولاد بوعلي" من ولاية قالمة.

انضمّ إلى مجموعة من اللاجئين لعبور خط "موريس" على الحدود التونسية، حيث الموت الزؤام في كلّ موطىء قدم أو لمسة يد. ولكنّها الإرادة الفولاذية والإيمان الراسخ يفلاّن الحديد ويعطلان في النّار طبيعة الإحراق فتكون بردا وسلاما. أو ليست إرادة الشعب من إرادة الله. وكم في صفوف هذا الشعب الكريم من أخلاء لله كإبراهيم إيمانا وحبّا لله، ووفاء وإخلاصا للوطن، لا لحظوة أو جاه أو مال، ولكن ليغدو مثابة لدين الله ووديعة للأجيال. فإذا كان المؤمن يبتلى على قدر إيمانه اختبارا أو تمحيصا. فإنّ إسماعيل ورفاقه في تلك المغامرة قد ترصّدهم الموت في كلّ خطوة ورأوه رأي العين عندما تنفجر الألغام على فريق منهم أو يتفحّم أحدهم على الأسلاك الشائكة المكهربة في ظلمة اللّيل أو يسقط على وابل الرّصاص المصوّب شطرهم من فرق المراقبة. وها هي البقية الناجية تتخطى خط الموت، وكم كانت المفاجأة مفجعة عندما وطئت أقدامهم التراب التونسي، وهم ما يزالون على مرمى من الخط المكهرب ليجدوا الوادي يهدر سيله في أمواج متلاطمة فأصبحوا بين فكيّ الأسد بين الحرق والغرق. فلا حيلة لهم سوى ركوب

أمواج السيل قبل طلوع الفجر مهما تكلّف ذلك من ثمن. وهكذا نزلوا غمار الموج يشدّ بعضهم إلى بعض وقد تنقطع السّلسلة فتجرف المياه بعضا منهم ولا يدري مصيره، ومن حظ إسماعيل أن نجاه الله فعصمه من الانجراف فتابع السّير إلى سوق الإربعاء حيث حمام "آل مجّوج" من جماعتنا بالقرارة. وهناك التقط أنفاسه وأصلح شأنه، إذ وجد منهم كلّ مواساة وإكرام، ثمّ استأنف سيره إلى العاصمة ليدخلها يوم الجمعة 11 ديسمبر 1957م وقبل أن يكتري حجرة تأويه في حيّ "سوق البلاط" كان يتردد بين حمام "آل الزيتون" في "الحلفاوين" ودار البعثة البيوضية في نهج ابن خلدون بباب منارة. وقد أصبح تحت عهدة النظام ولواء جبهة التحرير الوطني، ومن المفارقات أن لا يلتقي بأخيه سماوي أيوب ضمن أعضاء البعثة، إذ غادر تونس ضمن فريق جيش التحرير لكرة القدم إلى المشرق العربيّ.

ولعلّكم -أيها الإخوة- تتصورون أن اللاجئين كانوا مكفولين في معاشهم بمعونات دولية أو كان في مقدور النظام يومئذ أن يقوم بذلك، اللّهم إلاّ ما كان يتسرّب إليهم من ذويهم أو ما يساعدهم به إخوانهم التونسيون. فإسماعيل ذو الهمة الأنوفة كان يعتمد على نفسه وذويه بما كانوا يمدّونه به من مال بواسطة المرحوم السيّد الواهج الحاج يحيى. ولكن المدد سوف ينقطع بعد قنبلة المتجر وغلقه. وتأسّس الحكومة المؤقتة في 19 سبتمبر 1958م وتأخذ على عاتقها وضعية اللاجئين في معاشهم وتعليم أبنائهم، فيتعيّن إسماعيل داعية للجبهة في المشرق العربيّ. فتتسع بذلك آفاق خبرته، ويقوم بواجبه على أكمل وجه انطلاقا من الأردن، فمصر، ثمّ المملكة السّعودية، مرورا من سوريا، ليستقرّ به المقام في المدينة المنوّرة في شهر ديسمبر 1961 ثمّ عاد إلى تونس ومفاوضات "إيفيان" على قدم وساق، وبوارق النصر تلوح في الآفاق.

08- العودة الميمونة إلى الوطـن:

دقت طبول النصر بوقف إطلاق النار يوم 19 مارس 1962م إذ وضعت الحرب أوزارها، فماجت جبال الوطن وأوديته بقوافل المجاهدين وعانق الشعب أبطاله في عزّة وافتخار، وتدفقت الحدود باللاجئين يهزهم الحنين والشوق إلى ذويهم وأهليهم، وهم لا يدرون كيف فعل الجلاّدون بهم، وهل هم في عداد الأحياء أو الشهداء؟ فيا لله ما أغلى ثمن الحرية، وما أفـدح ضـريبة العـز والكرامة، كان المجاهد إسماعيل من أوّل العائدين إلى بلدهم موفور الكرامـة ميمون الطالع إذ وفّرت له الجبهة مقعدا في طائرة عسكرية خاصّة حطّت في "بومرداس" مركز الحكومة الانتقالية يومئذ لينتقل إلى مسقط رأسه في شـهر أفريل 1962م، فاستقبلته العطفاء في يوم مشهود كما اسـتقبلت رفقـاءه في الجهاد أمثال الأخوين: حاج أيوب إبراهيم قرادي، وبابا عمي إسماعيـل، ثمّ أعضاء البعثة البيوضية في تونس. لله ما أعظم حلاوة اللّقاء وما أحلى الهنـاء والراحة بعد العناء والشقاء. فقد كانت الجماهير الشعبية في موجة عارمة من الزهو والفرح، وفي غمرة من النشاط الثقافي والفنيّ، وهي تحتضن في حـبّ وإجلال أبناءها المخلصين، حتّى لكأنهم ملائكة السّماء جاؤوا لينشروا الحـق والعدل ويملؤوا الأرض خيرا وسلاما.

ففي ساحة المدرسة وفي رواقها جلس العزابة وأعيان البلـد وأقيمـت منصّة الشرف. فإذا البطل إسماعيل يدخل من المدخل الخلفي المفتـوح علـى الساحة العمومية فازدحمت الجماهير لمعانقته بحرارة، وتتـابع علـى المنصـة الخطباء، كلّ من الشيخ بابا عمي الحاج أحمد، الشـيخ القـرادي، باسـعيد عدون، ثمّ قصيدة من الكاتب هي مسجلة صوتا وكتابة.

ألقى إسماعيل عصا الترحال وقرّت عينه بالنصر، وعاد الأسد إلى عرينه مرفوع الرأس موفور الكرامة.

09- إعادة ترتيب البيت:

عاد إلى البيت الجماعي للأسرة الكبيرة، وقد فقدت من قبل راعيها المرحوم اسماوي الحاج محمّد، ومن فضل الله أن يمدّ في أنفاس الوالدة الرّؤوم "ماما دوخة" وحولها الأزواج والأبناء والأحفاد. وهاهي واسطة العقد ينتظم بها الدرّ النضيد.

وقد آن الأوان لإعادة ترتيب البيت الذي ضاق بأفراده، فكان إسماعيل أوّل من اكترى بيتا مستقلا لإيواء عائلته الخاصة، ريثما يبني داره في حيّ "باعلي وعمرو" وبذلك آثر إخوته على نفسه وهو يقسم تركة والده ليستأثر كلّ واحد بنصيبه ويعتمد على نفسه في تدبير شؤونه، وكان لهم إسماعيل في ذلك القدوة الحسنة حين انطلق في إعادة تنظيم متجره معتمدا على نفسه، وقد ارتضى من الغنيمة بالإياب في فترة استعرت فيها حمّى السّلب والنّهب، لما تركه المعمّرون، وحين أخذ الانتهازيون يتسابقون ويتصارعون على مراكز السلطة والنفوذ. وهكذا دبّر إسماعيل أمره لينطلق في الكسب والارتزاق من جديد. وحتّى في الحقوق الشرعية للأسرة الثورية لم يفكر في تكوين الملفّ اللازم لذلك إلاّ في أخريات عمره، وقد حزّ في نفسه مشاهدة بعض الظواهر التي لا تمت لأخلاقيات الدين بصلة، ولا لمثالية الثورة بسبب. فأصبحت المقولة التاريخية "الجلوس على الربوة أسلم" أصبحت هي الحكمة البالغة لأمثال إسماعيل ممن درجوا على الأمانة والنّزاهة وارضعوا لبان التقوى.

10- مرضه ووفاته:

ما كادت الأيام تبتسم لبطلنا، وقد أعاد متجره سيرته الأولى فضمن لأسرته المأوى والعيش الكريم وهو يناهز السبعين من عمره حتّى أخذ الضعف يدّب في أوصاله، غير أنّ نفسه الطّيبة لم تتغيّر عن طبعها في حبّ الخير وتكريم أهله. فقد كان -رحمه الله- من أولئك الذين يعتزون بأن يروا أبناءهم

يتقلّدون أنواعا من المسؤوليات في جزائر مستقلة حرّة، فلا يسمع منه إلاّ ما ينمّ عن الطيبة وحبّ الخير، وها هو يكمل العقد الثامن من عمره وقد سلك عشرين سنة في ظل الاستقلال الوطني. وذات ليلة انزلقت رجلاه على درج منزله الجديد ببلدية العطف، فأصيب بخدوش في عظام حوضه اضطرته إلى التزام الفراش لعدّة أيام. غير أنّ أهله قرروا نقله إلى مستشفى "مايو" العسكري بالعاصمة، وإنّ أجل الله إذا جاء لا يؤخر إذ لبّى نداء ربه ليوم 05 جويلية 1983م، فيا للمصادفة العجيبة أن يقدر الله انتهاء أجله في الذكرى السعيدة للاستقلال الوطني. ومن ذلك من العبرة ما فيه.

نقل جثمانه الطّاهر إلى مسقط رأسه "العطفاء"، حيث دفن إلى جوار آبائه في مصلّى "باعبد الله" فحضر جنازته حشد عظيم من أصدقائه ورفاقه في الكفاح التحريريّ من قرى الوادي ومن شمال الوطن. فأبنته بخطاب مؤثر هو مسجّل في كتاب "صرخات على مسرح المجتمع" تغمده الله برحماته وأسكنه فسيح جنانه.

العطف: نوفمبر 1998م



الشيخ: بكلي عبد الرحمان بن عمر "البكري"
1901 – 1986

يصدق فيه قول المتنبي في ممدوحه:

ذي المعالي فليعلونْ من تعـــالى ... هكـــذا هكـــذا وإلاّ فـــلا لا

شرف ينطح النّجـــوم برَوْقـــ ... ـــيـــْـــه وعزّ يقلقل الأجبـــالا

أ- المـدخـــل:

الحمد لله الذي جعل اللّيل والنّهار خلفة لمـــن أراد أن يـــذكّر أو أراد شكورا، وجعل في حياة الشعوب والأمم شخصيات فذة تخلّد مآثرها وتبقى ذكريات تاريخها للأذكار سراجا وقمرا منيرا. نشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله المبعوث إلى العالمين بشيرا ونـــذيرا، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اتّبع هداهم إلى يوم الدين.

وبعـــد:

فقد انطوى من تاريخنا القريب قرن متميّز بأحداثه المتقلّبة، وكرّت أيامه ولياليه بتقلباته ومفاجآته العجيبة بين السّراء والضّراء، فعزّت أمم وذلّت أمم،

وخرجت أمم من العدم، فسبحان الحيّ القيوم كيف يداول الأيام بين النّاس فيعزّ من يشاء ويذل من يشاء.

فإذا كانت أجيالنا الحاضرة تفتّحت عيونها على نعمة الاستقلال، وما تفيأت في العلوم والمعرفة من وارف الظلال، فإنّ الفضل في ذلك لمن شقّ الطريق ووضع عليها المعالم، وقد بشّر رسول الله أمّته بأنّ الله يبعث على رأس كلّ قرن من يجدّد لها أمر دينها.

وكما عرف العالم الإسلامي أفذاذا من عظماء الرجال أزاحوا عنه ركام الجهل والتخلف فقد عرفت جزائرنا الحبيبة ثلة من أولئك العظماء، انبثّوا في أرجائها كالنجوم اللّوامع في غياهيب الظلماء.

ومن هؤلاء الأفذاذ الشيخ عبد الرحمان بن عمر بكلي الملقب "بالبكريّ" ممن أنجبتهم العطفاء -رحمه الله- إذ أبصر نور الحياة خلال 1319هـ- 1901م من أبوين كريمين المرحوم السّيد بكلي عمر بن عيسى بن حمو والسيّدة عائشة بنت الحاج بكير بن حمو، وكلاهما من أسرة "آل بكلي" الفرع الأصيل من دوحة "آل عبد الله" الأماجد. ويصدق فيه قول المتنبي في ممدوحه:

شرف ينطح النجوم برَوْقيْه وعزّ يقلقل الأجبالا

ولئن أبرزت جيل النهضة والإصلاح في العطفاء بلدة النضال والكفاح فإن الشيخ عبد الرحمان في قوّة شخصيته وعلوّ كعبه في العلم والمعرفة وجهاده البطوليّ إلى جانب الشيخ الإمام الحاج إبراهيم بن عمر - بيوض- رحمهما الله يعدّ الشيخ عبد الرحمان الدوحة الفينانة التي تحتضن ذلك الفوج الرائد في مجالات الإصلاح والتغيير.

ب- في عهد التربصّ والإعداد:

نشأ الفتى سويّ البنية وربيب النعمة في أحضان والديه، ضرورة كون والده ناجحا في تجارته بالعاصمة، وإن الولد هو المولود الذّكر المحظيّ عنده.

درج في أحضان قريته غلاما يافعا تعلّم القرآن ومبادئ التوحيد في محضرة المسجد العتيق، كما تعلّم مبادئ اللغة الفرنسية في المدرسة الرسمية يومئذ. وقد أولاه عمّه الشيخ بكلي الحاج عمر بن حمو عناية خاصّة فدرّس له علوم الشريعة واللّغة. كما تابع ذلك في حلقة الشيخ يوسف بن بكير حمو عليّ بدار "إيروان". ولكن أنّى للطالب الفتى أن يقتنع بالنّزر اليسير مما تقدّم له قريته. فبعد وفاة عمّه الشيخ الحاج عمر شدّ رحاله إلى تونس الخضراء لينضمّ إلى بعثة الشيخ أبي اليقظان -رحمه الله- سنة **1922**م. فهناك وجد الفتى الطالب ضالّته في التزوّد بالعلوم الشرعية والأدبية على يد فطاحل العلماء والتحق بالمعهد الخلدوني لدراسة العلوم التطبيقية والاستزادة من اللّغة الفرنسية. وأصبح المساعد الأوّل في تسيير شؤون البعثة وبذلك جمع بين التزوّد من العلم والمعرفة واكتساب المهارة في التنظيم والتسيير. وما البعثة إلاّ مجتمع صغير بكلّ أشكاله وتداعياته تتفتّق فيه المواهب، وتهذّب الطّبائع فيغدو بحقّ مدرسة للتربّص وإعداد الرجال. وإذا أضفنا إلى ذلك ما كان من الاتصال الوثيق بين البعثة وحركة الشيخ عبد العزيز الثعالبي في الجهاد السياسي للحزب الحرّ الدستوريّ القديم أدركنا ما كان من أثر ذلك في بلورة شخصية الشيخ عبد الرحمان سعة في المدارك وسدادا في الرّأي، وخبرة في معالجة القضايا الشائكة، بما يؤهّله ليصبح في طليعة رواد الحركة الإصلاحية في بلده، وما يزال الاستعمار البغيض يضيق الخناق على فريسته.

ج- على مفترق الطرق:

كم هو صعب على الطالب النابه الطموح أن ينتهي به مطاف دراسته ثمّ هو لا يدري أتتاح له فرصة التوجّه الذي يواتيه ويشبع فيه طموحه. فقد عاد الطالب من تونس الخضراء إلى مسقط رأسه سنة **1928** فأصبح محط الآمال لأعيان بلدته ليشغل منصب القضاء فأصبح بين أمرين أحلاهما مرّ، أن يخالف رغبة والده وأعيان

بلدته، وفي ذلك تمرّد ونكران للجميل أم يذعن للأمر الواقع فيصبح محكوما بإرادة المستعمر البغيض، وهو المتشبع بالروح الدينية والوطنية. وشاءت الأقدار أن تفصل في الأمر، حين تقرّر ضمّ محكمة العطف إلى محكمة بني يزقن.

وكانت أوّل محطة لجهاده الإصلاحي مشاركته مع الشيخين: أبي اليقظان وبيوض في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالجزائر سنة 1931م وفي صياغة قانونها الأساسيّ.

ومع اشتداد الأزمة الاقتصادية في العالم بكامله في أوائل الثلاثينيات فقد دعاه والده لمساعدته في تدبير شؤون تجارته بالعاصمة في نهج "بوزرينة" لالير سابقا. وهناك في قلب العاصمة ونشاطاتها الصاخبة ازدادت شخصيته تبلورا فاستطاع أن يحلّ كثيرا من المعضلات التجارية لوالده، ولم يمنعه ذلك من المشاركة مع الشيخ أبي اليقظان في تدبير شؤون صحافته تنسيقا وتحريرا لكثير من المقالات الصحفية في مختلف المواضيع وترجمة لكثير من المقالات الفرنسية بحكم ثقافته المزدوجة وما كان الجوّ الحيويّ للعاصمة لينسيه وداعة قريته العطفاء وحرمانها من أدنى الوسائل الحضارية يومئذ وهي ترسف في قيود الجهل والتخلف. وهل وسيلة تحريرها من ذلك إلاّ التعليم والتربية للنشء الصّاعد إيمانا منه لما قاله أمير الشعراء:

فعلّم ما استطعت لعلّ جيلا سيأتي يحدث العجب العجابا

فقد تحرّك في قلبه الكبير الشعور بالمسؤولية أزاء بلدته قبل أن يصبح في قمّة المجتمع عضوا في حلقة العزابة بالمسجد العتيق في سنة 1934م.

فكيف السبيل إلى تأسيس مدرسة عصرية تكوّن النبتة الأولى لجيل رائد يحدو بقوافل الأجيال في مسيرة الإصلاح والتغيير؟؟..

أخذت الفكرة تراود الشيخ وتلحّ عليه أن يعرضها على بعض أعيان البلدة من تجار العاصمة. فجمع ثلة منهم وهم السّادة:

الحاج عدون بن بكلي، سليمان بن الحاج عيسى سماوي، حمو بن صالح سماوي، داود بن بالحاج بكلي، يحيى بن باحمد سماوي، الحاج مسعود بن إبراهيم هيبة "بزباز"، بمون بن بابا عيسى الحاج إسماعيل، محمد بن حاج بكير بكلي، إبراهيم بن الحاج محمد الحاج عيسى، الحاج محمد بن إبراهيم الحاج عيسى، الحاج أمحمد عمر بن عيسى، باسة الحاج يحيى بن باحريز، ابن لولو صالح بن الحاج محمد، وانضمّ إليهم في التسيير: طالب باحمد الحاج محمد بن إبراهيم، أمحمد إبراهيم بن عمر.

اتصل الشيخ بهذه الجماعة المباركة فأخذ يشحذ عزائمهم ويستحث هممهم في لقاءات متعدّدة حتّى اكتمل لديهم الحسّ والقناعة بتجسيد مشروع المدرسة العصرية في البلدة تعتمد عليهم في التمويل والتسيير، على أن يتولى التدريس فيها الشاب المبرّز في بعثة تونس الشيخ أحمد بن الحاج يحيى بكلي وتكون المدرسة تابعة للمسجد العتيق وبمباركة العزابة. وهكذا تبلورت الفكرة لتجسيدها على أرض الواقع. وذلك في الجلسة الحاسمة التي انعقدت في شهر ربيع الثاني 1351هـ الموافق لشهر ماي 1932م إذ ألقى الشيخ عبد الرحمان محاضرة قيّمة حلّل فيها أوضاع ميزاب بصفة عامّة وأوضاع العطف بصفة خاصّة ومما جاء في مقدمتها قوله: "لقد رأيت أن ألقي عليكم محاضرة في هذا الموضوع إيقاظا لشعوركم واستنهاضا لهممكم لتقوموا بإنشاء مدرسة عصرية. والأمر معقود فيكم -أيّها السّادة- وفي أمثالكم من أبناء الأمّة الصّلحاء الغيورين، أن يتمّ ذلك على أيديكم وتفوزوا بفخر الدنيا والآخرة.

من يسعد الأوطان غير بنيها وينيلها الآمال غير ذويها"

وتمّ حرّر الشيخ القانون الأساسي للمشروع من ثلاث عشرة مادة. جاء في مادته الأخيرة ما يلي:

"أول سنة للمشروع يبتدئ من أوّل السنة الهجرية 1351هـ وقع يوم 15 مارس 1932م فوفّق الله إلى تحقيق ذلك إذ اشتهرت أخبار المدرسة فأصبحت الوفود من مختلف قرى الوادي تترى على المدرسة للاطلاع، فيحتفل بهم ويعودون متأثرين، مما أوحى إليهم أن يقتفوا أثر العطف في ذلك فتتابع إنشاء المدارس في مختلف القرى ولكن أنّى لعيون الاستعمار أن تنام، وأنّى للمتخاذلين أن يرتاحوا ليواكبوا تلك النهضة المباركة. ومع اضطراب الحالة الاقتصادية وتضعضع أحوال الذين قاموا بالمشروع، أقفلت المدرسة أبوابها نهائيا خلال سنة 1936م. ولكن تلك المدة القصيرة كانت كافية لميلاد تلك الطليعة الرائدة من الطلبة الممتازين على يد الشيخ أحمد بن حاج يحيى بكلي ممن أصبحوا في طليعة الشباب النيِّر الطموح".

وكانت نذر الحرب العالمية الثانية في أواخر الثلاثينات تتلبّد غيومها وكانت الأقدار تهيّئ للشيخ مجالا آخر لكفاحه وجهاده وقد اكتهل واكتمل عقلا وروحا ليحلّ في بريّان معزّزا مكرّما لينطلق في مسيرته الإصلاحية هناك مربّيا قديرا وشيخا للعزابة وإماما مرشدا. وقد تمّ ذلك في شهر سبتمبر من سنة 1939م بمسعى من سراة "بريان" الأوفياء كانوا له نعم السّند في السرّاء والضرّاء -رحمهم الله أجمعين-.

ففي ربوع "بريّان" طاب للشيخ المقام ونهض بهمام جهاده الإصلاحي مرابطا ومصابرا حتّى أخريات عمره، وما انقطعت صلاته الحميمة في يوم من الأيام بمسقط رأسه. بل كان حاضرا في كلّ ما يمرّ عليها من أحداث، وما يستجدّ فيها من تطورات.

وليس من غرضي في هذه النبذة من حياة الشيخ أن أبيّن جهاده في بريّان لأنّ ذلك مفصّل في كتاب: "فعاليات الأيّام الدّراسية العلمية الوطنية حول فكر الشيخ عبد الرحمان"، فهو الموسوعة الكافية في هذا الموضوع

ولكنّني مع غبطي لآل بريان بوجود الشيخ بين ظهرانيهم وتمتّعهم بعلمه وخبرته، أقول له ما قاله المتنبي في ممدوحه:

قد شرّف الله أرضا أنت ساكنها وشرّف النّاس إذ سوّاك إنسانا
وأنت أبعدهم ذِكرا وأكبرهم قدرا وأرفعهم في المجد بنيانا

فكرّم الله بيتا آواك، وبارك جيلا آزرك وواساك، وقبرا بالروح والريحان واراك.

د- وقفاته الخالدة في العطفاء:

لقد كانت للشيخ وقفات خالدة في مسقط رأسه -بلدة العطفاء- فهي مرتع صباه ومغنى أهله وذوي قرباه، فلا عجب أن يبقى وفيّا لمنزله الأوّل وإن نأت به الدار، ويسعى لما يسعد أهله وإن فرقت بينهم الأقدار كانت زياراته في كلّ المناسبات لا تنقطع؛ إذ كان الحكيم الأريب في الرأي والمشورة، والعالم النحرير، له الصدارة في كلّ المجامع وله الحفاوة والتقدير عند هيآت المجتمع كلّها. فمن وقفاته الخالدة:

أ- وقوفه إلى جانب الشيخ الإمام بيوض -رحمه الله- في حملاته الإصلاحية بقرى "وادي ميزاب" بعد الحرب العالمية الثانية **1945**م. ففي العطفاء دوّت صيحات الشيخ الإمام لثلاثة أيام بلياليها حرّكت العزائم وألهبت الحماس. فكان من ثمرات ذلك إرسال ذلك الفوج الكبير من أبناء البلدة إلى بعثة القرارة، وتأسيس "جمعية النهضة" بصفة رسمية، كان الشيخ عبد الرحمان من أبرز بناتها، تأسيسا وتنسيقا لقانونها الأساسيّ ورئيسها الشرفيّ بلا منازع. كيف وقد كانت مبادرته في تأسيس أوّل مدرسة عصرية بالبلدة سنة **1932**م -كما سبق- كان ذلك إرهاصا لما كشفت عنه الأقدار بعد خمسة عشر عاما وها هو ذا -مرة أخرى- يشحذ العزائم ويستحث الهمم بخطابه الرائع الذي ألقاه في الاحتفال

بتدشين "جمعية النهضة" ليوم 06 شوال 1364 الموافق ليوم 16 سبتمبر 1945م. لقد كان خطابا رائعا ضمّنه الأغراض والأهداف المنتظرة من الجمعية وما تخلّل ذلك من التوجيهات والتوصيات التي تضمن حسن سيرها وتحقّق الغاية منها. ومما جاء في ذلك الخطاب قوله: «إنّ إخوانكم -أعضاء "جمعية النهضة"- أدركوا بحكم ثقافتهم وما أكسبتهم التجربة أنّ الأمّة لا تحيا حياة حقيقية، ولا تنهض نهضة تعتز بها في الوجود إلاّ إذا كانت أدبية مادّية، فالحياة الأدبية بلا حياة مادية جذوة خامدة، والحياة المادية بلا حياة أدبية جثة هامدة. فعلى كلّ أمّة تحاول أن تنال حظها من أكسجين الحياة وقسطها من الشمس المشرقة أن تجمع بينهما، ولا تنقطع لإحداهما دون الأخرى».

وبعد أن بيّن بتفصيل أغراض الجمعية وبرامجها المستقبلية ختم حديثه بقوله: «فلجمعيتكم عليكم أن تعاهدوها على التعاون والتآزر ما دامت على المبدأ الذي شرحته لكم، وعلى الصبر والثبات والتضحية والانقياد لأنّها بصدد البناء، وفي البناء صعوبة، وتحاول الرقيّ وفي الصعود مشقة.

كما لكم -أيّها السّادة- عليها أن تعزّز قولها بالعمل، وأن لا تألو نصحا للدين والأمّة والبلدة. لا تفتر لها عزيمة ولا تقلّ لها إرادة ولا يصدّها عن غايتها صادّ مادمتم تعزّزون جانبها مادّيا وأدبيا وتحدون بقلوبكم ركبها، وتلتف جموعكم حولها. وليكن رائد الجميع الإخلاص في القول والعمل» انتهى.

ب- تلكم هي الكلمات الخالدة التي أعطت دفعا قويّا لانطلاقة الجمعية في مراحلها الأولى، ولكنّها في أواسط الخمسينيات تعرضت لشيء من الفتور، سيّما بعد وفاة أمين مالها المرحوم السيّد: الحاج عيسى الحاج إبراهيم بن الحاج محمد. فقد مضت عشر سنوات على تأسيس الجمعية و لم تستطع أن تبني ولو قسما واحدا عصريا للتعليم، بل بقي العمل التربويّ حيث كانت المدرسة القديمة للشيخ بكلي أحمد بن الحاج يحيى إلى جوار المسجد لا تتوفر فيها أدنى

شروط الصحة للتلاميذ. فكان من مساعي الشيخ عبد الرحمان الحميدة أن جمع الطاقم الإداريّ في جلسة طارئة بالعاصمة استجاب لدعوته جميع الأعضاء وعلى رأسهم رئيس الجمعية الشيخ ابن يوسف الحاج سليمان. فأوسعهم لوما وعتابا، و لم ينفضّ الاجتماع إلاّ بقرار حاسم للشروع في بناء "مدرسة النهضة" – أي الجناح الأوّل السفليّ منها– حيث تتربع الآن بناؤها الشامخ العتيد. وتمّ ذلك القرار التاريخي في شهر جويلية سنة **1955**م و لم تقبل طلائع سنة **1956**م إلاّ وقد استقبل المشروع أفواج التلاميذ في سرور غامر ونجاح باهر.

ج– كانت للشيخ الوقور كلمته المسموعة لدى هيئة العزابة بالمسجد العتيق بحكم عضويته في الحلقة. –وكنّا نحن معلمي النهضة وعلى إدارتنا الشيخ الحاج أيوب الحاج إبراهيم قرادي– كنّا نحاول تطعيم حلقة العزابة بعناصر جديدة تكون في مركز القرار لمحاولة الإصلاح والتجديد. فقد شاخ أغلب الأعضاء وربّما تجاوزتهم الأحداث فلم نجد إلاّ الشيخ عبد الرحمان دليلا حكيما لدخول تلك القلعة إذ استطاع بحنكته وقوّة شخصيته إقناع كبار العزابة بتعيين بعض الأعضاء الجدد لمساعدتهم فتعين الفوج الأوّل سنة **1958**م ثمّ التحق به الفوج الثاني سنة **1961**م. وكان من نتيجة ذلك إعادة بناء المسجد بكامله وتجهيزه بأحدث وسائل الراحة مع القيام بعدّة إصلاحات في تنظيم أوقافه وفي بعض تقاليد المجتمع وعاداته مع تباشير الاستقلال الوطني سنة **1962**م.

د– كان الانفصام الشائن بين حلقتي العزابة بالمسجد العتيق ومسجد أبي سالم لمدة سبعة عشر عاما. كان الهمّ المقيم المقعد لعقلاء البلد يتمنون الحلّ الرشيد له. ولا يتمّ ذلك إلاّ بالمساعي الحميدة بين الطرفين لرتق الفتق ورأب الصّدع. وكانت المبادرة إلى ذلك من المجلس السرّيّ للثورة؛ وتولّى الشيخ عبد الرحمان مهمّة الوساطة الرشيدة فيها حتّى كتب لها النجاح فأذعن الطرفان للمصالحة والوفاق. وحرّر الشيخ وثيقة الصلح بنفسه أمضاها الجميع

فاستقبلها جمهورنا الكريم إذ أعلن عنها ليوم الجمعة 17 شوال 1381هـ الموافق ليوم 23 مارس 1962م.

تلكم هي بعض الوقفات الخالدة للشيخ في مسقط رأسه، وهي غيض من فيض. لأنّه يصدق في أمثاله ما قاله المتنبي في ممدوحه:

كالبدر من حيث التفتّ رأيته ... يهدي إلى عينيك نورا ثاقبا
كالبحر يقذف للقريب جواهرا ... جودا ويبعث للبعيد سحائبا
كالشمس في كبد السّماء ونورها ... يغشى البلاد مشارقا ومغاربا

وهكذا يكمل الشيخ رحلة عمره حافلة بالأمجاد والمآثر في بريّان كما تقدّم ذكره، إذ انتدبته جماعة خيِّرة ممّن نوّر الله بصيرتهم وهداهم لنصرة بلدتهم وتربية وتثقيف أبنائهم، فأنشأ معهم "جمعية الفتح" للتربية والتعليم هناك سنة 1947، وكان أوّل رئيس لها.

لقد عيّن عضوا في أوّل مجلس إسلامي أعلى للجزائر غداة استقلالها، كما ترأس مجلس عمّي سعيد الهيئة العليا لمساجد ميزاب ووارجلان بعد وفاة الشيخ بيوض وعجز خلفه الشيخ يوسف بن بكير حمو علي رحمهم الله.

هذا وقد نظّم في أواخر أيّامه حلقة فقهية أسبوعية لرواد العلم والمعرفة، كما حقّق كتابي "النيل وشفاء العليل" للشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني، في ثلاثة أجزاء، و"قواعد الإسلام" للشيخ إسماعيل الجيطالي في جزأين، كما نشر فتاواه في جزأين كذلك.

أمّا متروكه الأدبي فقد صدر منه عدد محترم من العناوين.

التحق رحمه الله بالرفيق الأعلى مساء يوم الاثنين 03 جمادى الأولى 1406هـ الموافق ليوم 13 جانفي 1986م. ليوارى جثمانه في "بريان" يوم 15 جانفي 1986.

طيّب الله ثراه بالروح والرّيحان، ونعّمه بالمغفرة والرضوان.



السيّد: سماوي الحاج أحمد بن بكير
1909 - 1987

من مواليد العطفاء خلال 1909م لأبوين كريمين السيّد: سماوي بكير بن الحاج أحمد والسيّدة: سماوي مسعودة بنت الحاج عيسى بن بهون.

يمتاز بحصافة الرأي وذلاقة اللّسان، ويحسن الحديث باللّغة الفرنسية على اللهجة الباريسية إلى حدّ إعجاب المعمّرين الفرنسيين به، إذ تقلّد مسؤولية إدارة متجر "آل سماوي" المشهور في الحراش، كما أسّس تجارة للمواد الغذائية بالجملة وبنى مع شركائه حمام "آل سماوي" هناك فأصبح عضوا بارزا في جماعة "الحراش"، يشدّ من أزر رفيقه السيّد: ابن يوسف سليمان بن الحاج داود. وغدا معه من المؤسّسين لـ"جمعية النهضة" سنة 1945م. وكان لهما اليد الطولى في شراء أرض العالية من ولاية الجزائر لتصبح وقفا للإباضية. وبحكم مسؤوليته أصبح أغلب استقراره في "الحراش"، يتفاعل مع الأحداث الوطنية، سيّما إبّان الثورة التحريرية. وقد اكترى شقة أنيقة في قلب العاصمة، بحيّ فرنسي، لتصبح مأوى أمينا لقادة الثورة بالتنسيق مع ابن عمّه المجاهد الرّمز السيّد: سماوي الحاج إسماعيل بن محمد، تعرّض مستودعه لقنبلة المنظمة

الفرنسية السرّية: O.A.S فاحتـــرق عن آخره. ولكنّه عاش مســـتور الحـــال حتّى أخريات عمره.

كانت له نشاطات عدّة في الحقل الاجتماعي، يؤازر كـــلّ الأعمـــال الخيرية. إذ كانت له مكاتبات مع الشيخ الحاج إبراهيم محمد بن بهون، ومـــع السيّد بوبكر الحاج محمد "الشرّح" في قضية مقبرة قسنطينة. ويعتبر عضـــوا بارزا في عشيرته "أولاد الحجاج" يدبّر أمرها ويهتم بشؤونها.

وافـــاه أجله ليوم: 23 نوفمبر 1987م فدفن في مقبرة: "عمي حمو".



السيّد: سعيد الحاج عمر بن الحاج أمحمد "قبّاض"
1912 - 1989

هو المرحوم السيّد سعيد الحاج عمر بن الحاج أمحمد بن إبراهيم بن صالح من مواليد العطفاء خلال **1912**م لأبوين كريمين المرحوم السيّد: سعيد الحاج أمحمد بن إبراهيم والمرحومة السيّدة: الحاج عيسى شيخة بنت صالح.

لم ينعم بحنان والده فبقي في كفالة والدته ووصاية أعمامه الذين كانت لهم تجارة في "الجلفة". وفي أحضان قريته الوديعة درس مبادئ القراءة والكتابة وجزءا من القرآن الكريم. وبعد وفاة والدة انتقل إلى الجلفة حيث التحق بالمدرسة الفرنسية الرسمية سنة **1925**م وكان من التلاميذ القلائل الذين تحصّلوا على الشهادة الابتدائية.

وفي تلك الفترة كان قد بدأ العمل مع أعمامه تحت وطأة اليتم وحاجة الأمّ الأرملة لمن يساعدها، وتشاء الأقدار أن ترزئه في أخيه الأكبر "قزولة محمد" سنة **1932**م مخلّفا وراءه متجره المشهور في الجلفة ليصبح مسيّرا من طرف مجموعة شبانية اختارهم سراة عشيرة الفقيد "أولاد باكة" لتصفية تركة صاحب المتجر. فكان السيّد الحاج عمر من أبرز

أولئك الشركاء وأخذت الشركة اسم "أروقة الجنوب" كان له فيها اليد الطّولى في تطويرها وترقيتها وبحكم إتقانه للغة الفرنسية فقد اكتسب خبرة ومعرفة بكثير من شخصيات البلد ومثقفيها وما إن نشطت الحركة الإصلاحية بعد الحرب العالمية الثانية حتّى أصبح ضمن طلائعها من الشباب المتحمّس الغيور تشجيعا للبعثات العلمية ومساندة للمؤسسات التربوية. وقد أبلى البلاء الحسن مع شركائه في إنجاح انتخاب الشيخ الإمام بيوض في المجلس الجزائري لعهدتين متواليتين. وهو يمتاز بالجراءة والشجاعة والإقدام ممّا أكسبه لدى أقرانه مودّة وإعجابا، ومما أهّله لمهمّة المراقبة والتفتيش لفرق الحراسة على مستوى البلدة ثمّ الرئاسة لها بعد ذلك، ويصدق فيه قول الشاعر:

إذا قيل يوما من فتى؟؟ خلت أنّني عنيت فلم أكسل ولم أتبلّد

وقد لعبت شركة "أروقة الجنوب" في الجلفة دورا فعالا في توفير الأحذية وبعض الأدوية والأدوات لجيش التحرير في يقظة بالغة والترييم على القوات الفرنسية وعلى أذيالها من جيش "بلونيس" وكان على اتصال بالمجالس السرّية للثورة كلّما حلّ ببلده في حماس مشبع بالروح الوطنية.

وبعد الاستقلال الوطني كانت له نشاطات اجتماعية معتبرة في كلّ المناسبات الدينية والوطنية وفي الولائم والأعراس والحملات التطوعية بالأخصّ في مجال عشيرته "أولاد باكة" إذ أصبح لها وكيلا رسميا مع المرحوم السيّد بابا عدون الحاج إبراهيم بن عيسى وشارك بفعالية في بناء أركان دارها الجديدة بحيّ النهضة.

وعندما استقرّ في البلد وأتمّ بناء منزلة الجديد في حيّ "باعلي وعمرو" سنة 1961م. استجاب دعوة "جمعية النهضة" إلى الانضمام لعضوية إدارتها المجددة سنة 1969م. فأصبح من أعضائها البارزين ماديًا ومعنويًا.

كما رأس جمعية الهلال الأحمر الجزائري لفرع العطف. فأعطاه دفعا قويا بجهده وماله.

وبما أنّه كان مولوعا بالفلاحة وخدمة الأرض فقد انخرط -أيضا- في منظمة الفلاحين، وهكذا أمضى بقية حياته في نشاط دؤوب إلى أن داهمه مرض الموت لم يدم به طويلا حتّى وافاه أجله ليوم 29 ماي 1989م فدفن في مقبرة "الشيخ بابا حمو" تغمّده الله بواسع رحماته.



الشيخ: الحاج أيوب الحاج إبراهيم بن يحيى " قرادي "
1927 - 1989

رجل الإصلاح والقيم والمبادئ وأنسُ المجالس والنّوادي

تمهيد:

تمرّ حياة الأمم والجماعات البشرية بفترات تتدهور فيها الأوضاع الاجتماعية، وتتردّى التقاليد والعادات إلى مستوى لا يتأتى معه لتلك الجماعة أن تتابع مسيرتها الحضارية باطّراد واتّزان، وبضغط من المؤثرات الخارجية وتفاعلها مع الوعي الداخلي تتهيأ أسباب التغيير، وشيئا فشيئا تتحرّك دواليب تلك الجماعة لتأخذ بأسباب التطوّر، فتنطلق المسيرة الحضارية بعد التوقف والركود، يأخذ بزمام المبادرة فيها جيل تهيئه الأقدار لتلك العملية التغييرية بما يتوفر عليه من الحدس والذكاء ومن عزيمة وإرادة لمواجهة الأحداث، ومغالبة ردود الفعل التلقائي من أولئك الذين يرون في المواقف السلبية وفي التحجّر والجمود خير وسيلة لصدّ تيار التجديد حفاظا على تراث موهوم أو نفع مقصود.

لم تكن منطقة ميزاب بمعزل عن هذه السنة الاجتماعية عندما أخذت رياح التغيير تهبّ من المشرق العربي على يد الرواد الأوائل للحركة الإصلاحية التي كان

لها الصدى القويّ في مغربنا العربيّ على العمـــوم وفي جزائرنـــا الحبيبـــة علـــى الخصوص، إذ تجاوبت أصداؤها وتكاملت مخططاتها ما بين شمال البلاد وجنوبه، على يد عمالقة أفذاذ من علماء وزعماء هذا البلد الحبيب، وفي طليعتهم الإمامان العظيمان عبد الحميد بن باديس والحاج إبراهيم بن عمر بيوض.

فإذا كان التغيير الحضاريّ يعتمد أساسا على تكوين الإنسان وإيقـــاظ وعيه وإرهاف حسّه الديني والوطني، فلا عجب أن تركز الحركة الإصلاحية الفتية على إنشاء هذا الجيل وتزويده بالطاقات الدافعة التي لا تصدّها الحواجز ولا تمنعها السدود. ولابدّ لذلك الإعداد والتعبئة من مراكز ووسائل، تشحذ لها الهمم وتجنّد الإمكانيات، فكان قيام المعاهد والمؤسسات التربويـــة نقطـــة الانطلاق مع طلائع هذا القرن الذي تمخض عن أحداث جسام عصفت منها رياح التغيير عاتية إن على المستوى العالمي أو المستوى الجهوي والإقليمي.

وهكذا اختارت العناية الإلهية فقيدنا المرحوم الشيخ الحاج أيوب إبراهيم بن يحيى قرادي، أن يصبح جنديا بارزا مرموقا يتخرج من المدرسة المتخصصة فيترل إلى الميدان بروح قوية متوهجة وإرادة صلبة متوثبة، وإيمان راسخ بقدسية الرسالة ونبل المقصد، فيشق طريقه بخطى ثابتة، ومعرفة تامّة بمواقع الخطـــو، وهو يتدرج في سلّم الكفاءة ليصبح بطلا مغوارا وقائدا محنّكا.

01- في مدارج الطفولة والصبا:

كانت الأمّ الرؤوم المرحومة بكلي خديجة بنت الحاج بكير تمنّي نفسها في كلّ مرة تضع فيها مولودا أن يكون ذكرا وهي ما تزال في ريعان شـــبابها محظية عند زوجها الكريم المرحوم الحاج أيوب يحيى بن إبراهيم قرادي. ولكنّها في مرات أربع ما يكاد يسرّى عنها من غمة الوضع حتّى تســـتعطف ربّهـــا صارخة: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾[آل عمران:36]. وتتابعت علـــى الأســـرة الكريمة هؤلاء البنات الأربع عزيزات مكرّمـــات، ولم يكـــن الأب الحنـــون

ليستثقل ظلّهن، وهو الرجل الصالح الشكور لنعمة ربّه الوهّاب لما يشاء لمن يشاء، ولكن الإنسان منجذب بقوّة إلى المألوف المستكنّ في الأعماق، والغالب على النفوس مهما حاول أن لا يظهره للعيان. وما ذنب هذا الولي الصالح وهو الدّارس للقرآن الكريم إذا نازعه هاجس المنى، وهو يردّد قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾[آل عمران:36]. إنّها أمنية كلّ أسرة ترجو لها ذكرا في الصالحين.

وهكذا شاءت قدرة الله أن تثلج صدر الوالدين الكريمين بأوّل مولود ذكر يحمل اسم جدّه إبراهيم ڤرادي، أيّة فرحة، وأية بشرى عاشتها الأسرة عندما دوّت صرخة المولود في يوم 31 مارس 1927م. إنّها صرخة الأمل وبسمة الحظ السعيد، جعلت الوالدين يكرّسان جهدهما في رعاية الطفل وإحاطته بأسباب السعادة والهناء، فنشأ مغمورا بالحبّ والحنان محفوفا بوسائل الرعاية الكريمة حسبما تسمح به الظروف آنذاك لعائلة متوسطة الحال.

ظهرت على الصبيّ مخايل الفطنة والنجابة في طفولته المبكّرة إذ نازعه عرق الخؤولة النابهة الصيت في مجال الفطنة والذكاء من عائلة آل بكلي الماجدة، فقد اشتهر خاله المرحوم السيّد بكلي صالح بن الحاج بكير بمشاركته الفعّالة في كلّ الحركات الثقافية والوطنية بالعاصمة من أوائل القرن، إذ غدا دكانه المشهور في نهج بوزرينة -"رود لالير" سابقا- ملتقى للأقطاب النّابهين، ثمّ محضنا أثيرا لشيخ الصحافة المرحوم أبي اليقظان الحاج إبراهيم.

درج الطفل في العقد الأوّل من عمره ما بين أمّ ترى فيه قرة عينها مقيما بين ظهرانيها، وأب وخال يغمرانه حبّا وعطفا وهو مشدود إلى الجوّ الصاخب في العاصمة وطابعها الحضاريّ بحيويته ونشاطه، فأخذ يتردّد على مدرسة قرآنية يقوم عليها كلّ من الشيخ صالح النفوسي والشيخ إبراهيم متياز رحمهما الله، فتعلّم عنهما المبادئ العربية وسورا من القرآن الكريم، كما وافاه الحظ للدخول في القسم

التحضيري بمدرسة فرنسية حيث تعلّم مبادئها مع أولاد المعمّرين، وأيّ قدر من النجاح والتفوق كان يرجى منه لو طاوعته الأقدار؟ ولكن ماذا دهى الطفل اللعوب؛ وما الذي ينتابه من الأوجاع حين ذوت نضارته وفترت حيويته؟ ما باله ينكمش أحيانا مقوّس الظهر وهو يتجمّع كالمنتظر لصفعة لقد ظنّ الوالدان أنّ الولد ربّما قد تلقى إصابة عنيفة إثر صدمة أو كبوة رضّت عظام ظهره؛ غير أنّ الكشف الطبي أظهر بعد لأي أعراض السلّ العظميّ أخذ يدبّ في العمود الفقري وهو الوحش الذي لا يرحم، فلا بد من الإسراع في العلاج، و لم تكن الوسيلة سهلة ولا التكلفة ميسورة آنذاك، و لم يكن الطفل بأقل حبّا من نفس والديه إذ تميّآ لإنقاذه بكلّ ما يملكان. مكث برهة في المستشفى الجامعيّ بالعاصمة، و لم يطب خاطر والده لوضعيته، فقرّر أن يذهب به إلى تونس شأن أغلب الجزائريين في ذلك الوقت، إذا همّوا بعلاج جديّ سيّما في العمليات الجراحية. وبدون تردّد شدّ الرحال إلى تونس سنة 1931م، ليحطّ في مستشفى الرابطة بعيدا عن الأهل والوطن.

فيا لله، كيف يمكن لطفل لم يتجاوز العقد الأوّل من عمره أن يتحمّل مضاضة غربة تمتد لثلاث سنوات؟ وأيّ مقام ينتظره على سرير المستشفى ملفوفا في جبيرته محروما من الحركات؟ إنّه الامتحان القاسي والمحكّ الخشن الذي يروّض عزيمته ويمحّص قدراته ويهيئه لمهمّته التاريخية. تعلّم هناك كيف يكتسب الأصدقاء من لداته نزلاء المستشفى، وكيف يجتذب إليه عطف الممرضات الأخوات يواسينه بأحاديثهن العذبة وقصصهن المسلية، فانطلق لسانه باللّغة الفرنسية كما لو تعلّمها في مدرسة عالية.

هناك تدرّب على الصبر والاحتمال، وعرف كيف يغالب الآلام بالآمال، آمال العودة إلى الوطن بعد الخلاص من الدّاء العضال. وفي ربيع سنة 1934م تعالت زغاريد أسرته لتحتضنه بحرارة وتستقبله بشوق، فآثر والده أن ينسيه آلام غربته بثلاث سنوات يقيمها إلى جوار والدته مدلّلا مكرّما، وهو

يتردد على أوّل مدرسة عصرية في البلد بإشراف الشيخ بكلي أحمد بن الحاج يحي يتعلّم فيها مبادئ العلوم واللّغة العربية.

02- الحاج أيوب الطّالب:

عرفت العطفاء من بداية الثلاثينات فترة نشاط للحركة الإصلاحية غذّاها ونمّاها الرواد الأوائل للبعثة التونسية أمثال الشيخ البكري بكلي عبد الرحمن إلى جانب شخصيات لمعت في المجال المحليّ وقفت إلى جانب الشيخ أطفيش -رحمه الله- ثمّ إلى جانب الشيخ الإمام بيوض الحاج إبراهيم، وكانت البعثات العلمية تؤم يزقن والقرارة تباعا من أوائل القرن. وبإنشاء معهد الحياة وسطوع نجمه سنة 1925م على يد الشيخ الإمام بيوض أخذ يستقطب أعدادا من الطلبة من قرى وادي ميزاب. وكان الطالب الناشيء ضمن الرواد الأوائل من البعثة العطفاوية بالقرارة ارتحل إليها صحبة الشيخ البكري يوم 30 جويلية 1937م، وكان أفراد البعثة لا يتجاوز عددهم بضعة وعشرين طالبا يتلقون حصصا في اللّغة والعلوم الشرعية والأخلاق على الطريقة التقليدية في حلق أمام الشيخ وبعض مساعديه، وفي طليعتهم شيخنا الوقور الشريفي عدون بن بالحاج -رحمه الله-.

ولمّا كان استظهار القرآن الكريم عن ظهر قلب شرطا أساسيا في الانخراط بالمعهد فقد استطاع الطالب النبيه أن يستظهره بعد مدّة لم تتجاوز ستّة أشهر. وبعدها أصبح ضمن رفاقه، إن في حلقة الشيخ في درس التفسير والحديث والآداب، أو في الحلقات الأخرى لدراسة النحو والفقه. ومن خلال نشاطه في جمعية الشباب استطاع أن يساهم في وضع مخطط لتطوير المعهد مع كبار الطلبة أمثال الشيخ المرحوم علي يحي معمّر، وبتنسيق مع الشيخ عدون، وهم يضغطون على الشيخ الإمام في كلّ مرّة حتّى يوافق على مقترحاتهم في تحويل البرنامج إلى نظام الطبقات تحدّد موادها وحصصها، على أن تكون لها

حلقات في المسجد بالذّات، وتمّ ذلك سنة 1941م، بعد مماطلة من الشيخ الإمام، كان يترقب فيها الظروف المواتية، ويمحّص همم طلابه في تجاوبهم مع الوضع الجديد.

وعلى مرّ الأيام ازداد عدد الطلاب وتركزت حصص التدريس، وعرف المعهد انطلاقته المباركة في رحاب المسجد من أوائل الأربعينيات، والحرب العالمية الثانية على قدم وساق، والإقامة الجبرية مفروضة على الشيخ الإمام، ويأبى الله إلاّ أن يهيئ أسباب التمكين والاكتمال لهذا المعقل الأمين، لتكوين أشبال الحمى وأسود العرين.

دأب الفتى على الجدّ والمثابرة والمشاركة الحيّة في كلّ نشاطات المعهد والبعثة، حتّى لمع نجمه وأصبح عضوا في مجلس إدارة الشباب والبعثة، يسهم فيهما برأيه الحصيف ونشاطه الدؤوب، إن بقصائده وأناشيده، أو بعروضه ومناقشاته، يشيع المرح في المجالس بأحاديثه النديّة ولطائفة البديعة، وقد حباه الله ذاكرة قوية ولسانا ذلقا وبداهة فائقة في بساطة وتواضع وبشاشة ومرح، ملك بها القلوب واستمال الرقاب، الأمر الذي خوّله بعد فترة وجيزة أن يرتقي إلى مهنة التدريس في المعهد سنة 1944م في مادة الأدب والإنشاء والتاريخ، حتّى يختم رحلته الطّالبية سنة 1947م، على أمل اللّحاق بالجامع الزيتوني في تونس، غير أنّ الظروف الاقتصادية لوالده لم تمكّنه من تحقيق هذا الحلم، فاحتضنته العطفاء معلّما نابها وشابّا مثقفا جريئا.

03- في رحاب العطفاء:

لم تكن لي صلة بالفتى من قبل سنة 1945م، وإن كان لي إلمام بأسرته من خلال زمالتي لأخيه السيّد الحاج أيوب بكير في المدرسة الفرنسية، وكنت أمرّ على دارهم يوميا، وقد أصبحت تحفةً للنّظار عندما أتمّ الوالد الحنون بناءها سنة 1937م، إذ التحق هو بمعهد الحياة بينما اغتربت أنا إلى العمل في مدن

الشمال لمدة خمس سنوات طيلة الحرب العالمية الثانية، وقد ذاع صيت المعهد وازدهرت حركة البعثة، وأصبح نشاط الشيخ الإمام حديث النوادي. وكان يلذ لأمثالي من الفتيان العاملين المحرومين أن يستمتعوا بسماع أخبار الحركة الإصلاحية، ونشاط الطلبة النابهين في مجال الشعر والخطب والأناشيد. وكان الفتى الطالب هو الفرس المجلى في البعثة العطفاوية، وقد ازداد عدد أفرادها، وشاءت الأقدار أن تكون لي دعوة إلى مسقط الرأس في صيف سنة 1945م. وفي نفسي شوق كبير إلى لقاء هذا الفتى النابه ويساورني شعور غامض بأنّني سوف ألتحق بالبعثة إن عاجلا أو آجلا، غير أنّي لا أدري كيف ولا متى يتمّ ذلك؟؟

التقيت به ذات ليلة هنيئة في جنان عمّه المرحوم السيّد الحاج أيوب بالحاج في أعالي "آولاوال" حيث تقضي أسرته فترة الصيف. وتحت شجرة المشمش الرابضة إلى جانب الدار طال سمرنا في جوّ هادئ مقمر، وهو يفيض في حديثه الساحر عن البعثة ودروس الشيخ الإمام، ويمنّيني بلقائه عمّا قريب في العطفاء بالذّات في جولته الكبرى بقرى وادي ميزاب. ويحاول الفتى في لباقة أن يوحي إليّ بضرورة التحاقي بالبعثة وهو يهوّن عليّ كلّ المصاعب التي كانت تعترضني لتحقيق هذا الحلم، وأنا الأجير البسيط ساقه اليتم والفقر إلى العمل في سنّ مبكر، فخرجت من عنده وطيد العزم طافحا بالأمل لتغيير مجرى حياتي. وتلك هي إحدى مكرماته بالنسبة إليّ، لأصبح له بعد التّكوين رفيق الدرب وشقيق العمر، اصطحبته في البعثة لسنتين ونصف وتلقيت عنه دروسا في الأدب والإنشاء والتاريخ.

وفي سنة 1947م استقرّ بالعطفاء ليصبح مديرا لمدرسة النهضة مع مساعديه المرحوم الحاج إبراهيم محمّد بن بمون ثمّ السيّد الحاج صالح لبسيس القراري. تحمّل تبعة الأجيال في فترة عرفت فيها الحركة الإصلاحية انطلاقتها العملاقة بعد الجولة التاريخية للشيخ الإمام في وادي ميزاب. فتكوّنت "جمعية

النهضة" برئاسة الشيخ ابن يوسف سليمان بن الحاج داود، استقطبت في مجلس إدارتها أهمّ سراة البلدة منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر. وكان الفتى المدير لسان صدق لها في كلّ المجامع، يزجي في مدرستها صفوف الأجيال، ويشحذ لمؤازرتها همم الرجال، ثمّ غدا لها المتجوّل الحاذق والمعتمد الأمين لجمع الأموال.

وبعد التجديد الأوّل لمجلس إدارتها أصبح الكاتب العام يطّلع بهذه المهمة حتّى فجر الاستقلال، وعلى قلّة الوسائل المعتمدة في ذلك الوقت، وانعدام الأجهزة المادية اللازمة لمدرسة عصرية فقد استطاع بجهده وصبره أن يهيئ عناصر من الطلاب أصبحوا نابهين في المجالات الحيوية المختلفة، ورابط في الميدان على تلك الوضعية المعنتة حتّى سنة 1955م، عندما تمكنت "جمعية النهضة" من بناء الجناح الأوّل لمدرستها الحالية أمام مدخل البلدة.

لم يقتصر نشاطه على التدريس، بل أصبح في مجتمع تواجهه فيه عادات وأوضاع يجب أن تغيّر أو تهذّب، ولكن ما سبيله إلى ذلك وأغلب من يمكن أن يعضده من مسؤولي النهضة غير مستقرّ في البلد؟ وكأنّني به في ساحة الميدان ينازل: يردّد مع المتنبي:

أصارع خيلا من فوارسها الدّهر وحيدا...وما قولي كذا ومعي الصبرُ؟؟

وهل يعدم الصّبر من امتدّ على سرير المستشفى ثلاث سنوات بدون حراك؟ فليشق الطريق ريثما تلحق الإمدادات، فهناك جنودهم في فترة التربّص والتدريب، وحتّى لا يؤتى من مأمنه، ولا يصفع بيده آثر أن يبدأ بعشيرته الأقربين في محاولته لترشيد الجيل الشابّ والكهل إلى جانب تربية الجيل الناشيء، فتعيّن ضامنا لعشيرته لدى السلطة الحاكمة آنذاك، والمتمثلة في القائد ومن ورائه الضبّاط الفرنسيون في ملحقة غرداية. انتخبته عشيرته أولاد عبد الله ممثلا لها بإجماع سنة 1948م ولما يتجاوز عمره خمسا وعشرين سنة، ولم يكن

يجمع أمرها قبل ذلك شخص ذو كفاءة ولا مركز محترم، فراح يلمّ شعثها وينظم شؤونها، ويستغلّ ما فيها من طاقات شابّة للرفع من مستواها حتّى تصبح نموذجا حيّا للعشائر الأخرى. وسرعان ما اتخذت لها مركزا محترما في وسط البلدة، استطاعت الحركة الإصلاحية أن تستغلّه في كثير من المناسبات، و لم تكن المجالس العشائرية تلعب دورها الاجتماعي المطلوب إذ كانت جسدا بلا روح لا ترشد ضالا، ولا تكفل عاجزا ولا تحتضن أمرا ذا بال، غير أن النفوس كانت متهيئة لأحداث الحركة الإصلاحية في وعي وحماس. وسرعان ما دبّ النشاط والحيوية في تلك المجالس فنسجت على نفس المنوال في التنظيم الداخليّ لها. وكان الفتى يدير الحركة ويتعهّدها من خلال الجلسات الدورية مع الشباب الذين نظم لهم لقاءات أسبوعية على مستوى البلدة كلّها حتّى ينصهروا كلّهم في بوتقة الإصلاح وتزول من بينهم رويدا تلك الحواجز التقليدية التي كانت تعزل تيار الاتصال والتجاوب. وكان من الطبيعي أن تحدث هذه الحركة نوعا من الملاحاة والمواجهة أحيانا ما بين الجيلين تختلف حدّته من عشيرة إلى أخرى، ولكنّه واجهها برزانة وحكمة وأناة. وهكذا مهّد بعمله الدؤوب الأرضية الصالحة والمنطلق الصحيح لعمليات التغيير التي شهدتها العطفاء من بدء الخمسينيات حين تجمّعت من حوله عناصر أخرى من رفاق الدرب والنضال. فأعطوا للحركة الإصلاحية دفعا قويا، ممّا حدا بالمجلس الإداريّ لـ"جمعية النهضة" أن يطوّر أسلوب عمله بالتركيز على التخطيط المتدرج في إنجاز الهياكل الضرورية لتحقيق أهدافها. ففي سنة 1955م تمّ إنجاز الجناح الأوّل من "مدرسة النهضة" كما أسلفت، وقد التحقت بالبلد راجعا من تونس في سنة 1954م لأطلع بمهمّتي التربوية إلى جانبه، و لم يكن التعليم قد استكمل أفواجه الابتدائية، ولا كان للبنت أيّ حظ من التعليم العصريّ الكامل إلاّ ما كان يقدّم لها من حصص منتظمة على الأسلوب التلقيني القديم. فآثرنا أن نركب الصّعب ونكون روادا في هذا القطاع من التعليم للبنت الذي

لم يكن الشيخ الإمام نفسه قد اقتنع بعد بضرورته. ونسجّل هنا للأمانة التاريخية بأنّ الشيخ ابن يوسف سليمان رئيس "جمعية النهضة" كان على العكس من ذلك متحمّسا إلى ضرورة البدء في هذه العملية، الأمر الذي شجّعنا على المضيّ فيها قدما، فسرعان ما تكوّنت أفواج لبناتنا موازية لأفواج البنين في التعليم النظري، و لم نتردّد في إضافة حصص لهنّ في التكوين المهني الذي اخترنا له ثلاث أخوات أجنبيات متخصّصات لإعداد فوج رائد من بناتنا يتولين القيام بهذه المهمّة بعد ثلاث سنوات من التكوين. ويا ما تعرّضنا لانتقادات لاذعة وتهجمات قاسية من الداخل والخارج، و لم نأبه لها إطلاقا؛ لأنّنا كنّا في موقف مسؤول ندرك أنّنا سلكنا فيه مسلك ارتكاب أخفّ الضررين. وأمام ضغط الأفواج المتزايدة وإقبال الأولياء أنجزنا الورشة الخاصة بالتكوين المهني للبنات في أواسط السّتينيات بعد الاستقلال الوطني.

أخذت دائرة التوعية الاجتماعية تتّسع من خلال جلسات الشباب واللّقاءات الخاصّة ببعض أعيان البلد، وكنّا نخطط لإدخال إصلاحات ضرورية في بعض العادات والتقاليد، لم تكن تستجيب لتطورات الوضع، وقد أخذ مستوى المعيشة يرتفع ودائرة المعرفة والثقافة تتّسع، فوجدنا أنّ العقبة الكأداء هي في المجتمع النسويّ الذي بقي منغلقا، لا تصل إليه أصوات النصح والإرشاد، ولا يشعر بحركية التغيير؛ لأنّ منبر المسجد هو الآخر ما يزال خافت الصوت، واهي الحركة. فلا بد إذن من العمل في هذه الواجهة لتنال حظها من الإصلاح، فعجّلنا بفتح مراكز للإرشاد النسوي في دور خاصة، نظمنا بها دروسا حيّة سرعان ما حظيت بإقبال كبير كان لها الأثر الفعّال في إصلاح كثير من الأوضاع الاجتماعية، حتّى تمكّنا من إنجاز مركز خاص للتجمعات النسوية في أواخر السّتينيات، بعدما أتممنا إعادة بناء المسجد الكبير الذي انطلقت أشغاله في يوم الأحد 18 ربيع الثاني 1380هـ الموافق لليوم 09 أكتوبر 1960م. في يوم مشهود وضع فيه الشيخ الإمام

حجره الأساسي بيده المباركة في هالة من العزابة وأعيان البلد والمواطنين. و لم يكن هذا العمل الجبار صدفة، بل كان ثمرة لجهود مضنية بدأناها بعد نجاحنا في تطعيم هيئة العزابة بعناصر جديدة كان للشيخ المرحوم بكلي عبد الرحمان اليد الطولى في إقناع مجلس العزابة لقبول الثالوث الأوّل المتمثّل في كلّ من السّادة: هيبة الحاج عيسى بن حني، بكلي محمّد بن الحاج محمّد، سعيد محمّد كعباش، وتمّ ذلك في أواخر ربيع 1958م.

وهنا يتجسّد تواضع الفقيد ورحابة صدره، عندما علم بأنّ مجلس العزابة قد اقتصر على الثّالوث المذكور من المترشحين المقترحين الذين كان هو من ضمنهم وكنت فيهم الأصغر سنّا، وقد عزّ عليّ أن أسبقه وهو أستاذي وأقدم منّي هجرة وأقوى تجربة. ولكنّه -رحمه الله- شجعني على القبول، وخفّف من حدة انكساري، بل اعتبر أنّنا أحرزنا على أوّل انتصار في مجال الإصلاح الاجتماعي الذي يجب أن ينطلق من رحاب المسجد، ومن ثمّ عرف المسجد تجديدا شاملا في هيكله الماديّ والأدبيّ، قامت على إنجازه اللّجنة المباركة التي كان يرأسها السيّد سعيد الحاج صالح بن الحاج أحمد قباض، ليصبح بعدها وكيلا رسميا للمسجد. وظل الفقيد يقدّم لها الدّعم الماديّ والأدبيّ بما كان يتمتع به من خبرة في مجال استدرار الأموال من المحسنين، وبما له من جاه وسلطة، باعتباره عضوا ممتازا في أوّل مجلس بلديّ بالعطف لسنة 1958م.

وبحلول شهر جويلية لسنة 1961م أصبح عضوا رسميا ضمن الفوج الثاني للعزابة الذي يضمّ الفقيد والسيّد المرحوم بابا عدون الحاج مسعود بن رمضان والأستاذ بكلي بابة الحاج أحمد بن حمو، وهكذا جمع الفتى بين السلطتين الروحية والمدنية، فعرفت الإصلاحات الاجتماعية دفعا قويا تناولت كثيرا من العادات والتقاليد والأنظمة فيما يخصّ الأفراح والمآتم والأوقاف إلى تجديد هياكل المسجد وإتمام مرافق الجمعية.

04- الحاج أيوب الزّوج والأب:

في سنة 1942م بلغ الفتى مبلغ الرجال فبنى بزوجه الأولى المرحومة السيّدة بكلي فافة بنت عيسى وهو في كنف والديه طالبا في معهد القرارة، و لم يكد الوالد الحنون يدركه الضعف والوهن ويستقر في البلد بعد الحرب العالمية الثانية حتّى أصبح ولداه يدران عليه بعض المال، وإن كان الأخ الأصغر هو المعوّل عليه في إنفاق العائلة إذ بدأ يشق طريقه في العمل التجاريّ من سنّه المبكّر، وحسب الفتى أن يكفي أدنى قدر من الضرورات بأجره الزهيد من عمله التربويّ. فتكافل الأخوان في رعاية الأسرة وتعاونا في محبّة وانسجام.

وعلى تزايد أولاده وبنائه بزوجه الثانية السيّدة: هيبة عائشة بنت عيسى، لم يرد الأخوان أن ينغّصا صفو والديهما بالانفصال. بل ظلا على تكاملهما حتّى توفاهما الله، فقرّت بذلك عين الأمّ الرّؤوم التي ترمّلت لما يقرب من عشر سنوات، غير أنّ زواجه الثاني قد اضطرّه إلى كراء مأوى ثان تنقل فيه بين عدّة ديار إلى أن اتخذ لكلّ من الزوجين وأبنائهما دارا خاصّة في مطلع الثمانينات. ولقد مرّت عليه فترات عصيبة من الضيق والعسر، وأولاده الكثر كزغب القطا. فنتشاكى من هذه المعاناة وكلّنا في الهمّ شرق، ولكنّه -رحمه الله- لا يتحرّج ولا يتزعزع ولا يتذمر مما قسم الله له، وكان على يقين راسخ بأنّ الله تعالى سيخلف له من أولاده، ويتسلّى دائما بأنّ الشيخ عدون أمدّ الله أنفاسه كان يدعو لجميع المعلّمين بصلاح أولادهم، لأنّهم يجاهدون في سبيل الله بتربية أولاد المسلمين. وعلى ذلك العسر كان بالغ الكرم يعنت عائلته أحيانا فيحرمهم من وجبتهم الضرورية إذا ما ألمّ طارق أو نزل به ضيف على غير موعد. ويا ما أكثر معارفه وأصدقاءه ممّن يأتون إليه في استشارة أو شكوى أو وساطة وجاه أو أداء لحق الصحبة، وهو في كلّ ذلك لا يعدم مخرجا أو

وسيلة، ولو أنّه لا يملك أحيانا فلسا في جيبه. لا يستفزه شره ولا طمع، ولا يمدّ عينيه إلى ما في أيدي الناس ولو كانوا من أقربائه وذويه. وإن جامل بعض المحسنين في بعض المواقف، أو سعى لبعض مصالحهم فلأجل ما يرتجي منهم لنفع المؤسسات العامّة ومساندتها، وهو المتجوّل لها والحريص على فعاليتها واستمرارها.

وكان خيرا لأهله إلى حدّ بعيد، عرف كيف يواجهُ مشكلة الضرّتين وكيف يوازن في الحقوق والواجبات، ثمّ يدعو الله بدعاء الرسول أن لا يؤاخذه في ما لا يملكه من الميل والركون أحيانا. أنجب من زوجيه ستة عشر ذكرا وخمس عشرة بنتا، ولكنّه فقد من الذكور أحد عشر ومن الإناث اثنتين، وشاءت حكمة الله أن يزيد إلى رصيد حسناته ومبراته ذلك العديد المهيب من البنات اللائي مددن فروعه في أغلب عشائر البلدة، وقد بذل جهدا مضنيا في تربيتهن وإحصانهن بيده في حياته إلاّ صغراهنّ من زوجه الأولى إذ تزوجت من قريب يتيمة الأبوين.

أمّا أولاده الذكور فقد حقّق الله فيهم ما كان يأمله من عون ومساندة. فكلّهم مطيع بارّ مزوّد بدعواته الصالحة سيّما الابن البكر محمّد، ونحن نشهد لهم بذلك شهادة حق ووفاء. وقد ربّاهم تربية مثلى بلطافة معشره، وفرط حنانه ومحبته لهم كأنّه أخ أو صديق؛ فنشأوا معتمدين على أنفسهم في فكر مستقلّ وشخصية معتدلة وهم يبادلونه حبّا بحبّ ووفاء بوفاء في تقدير واحترام. فأية مترلة ترجى عند الله لمن حصّن ثلاث عشرة بنتا إذا كان الرسول ﷺ، قد ضمن الجنة لمن فعل ذلك لثلاث أو اثنتين؟

وأيّ جزاء يدّخر لمن لم يستمتع بثمرة أولاده الرجال في فترة ضعفه إلاّ لمدة وجيزة لا تبلغ العقد من الزمن؟ وهكذا المؤمن الصادق لا تكون غايته العاجلة، بل يتشرف ما عند الله ممّا هو خير وأبقى في الآجلة.

05- الحاج أيوب المناضل:

يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنَ انفَقَ من قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الذِينَ أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ وَقَاتَلُواْ وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾[الحديد:10].

إذا كنا نحن في وطننا المفدّى نعتبر أيام الثورة التحريرية هي الحدّ الفاصل بين عهدين، أو هي بمثابة الفتح بالنسبة للإسلام، فإنّ ميزان التقييم لمواقع الرجال في الجهاد والنضال يأخذ معاييره من طبيعة المعركة ومجالاتها الزمانية والمكانية، فأين منازل السّابقين الأوّلين من مسلمة الفتح؟ ليسوا سواء كما قال الله تعالى. فلنتبيّن موقع الفتى من الغيرة الوطنية والنضال الثوريّ.

لم يكن حسّه الوطني والثوريّ وليد ظروف عاجلة مؤثرة لفترة معيّنة من عمره، ولكن الغيرة الوطنية رضعها في عهد طفولته وهو يستمع إلى كبار الشخصيات الوطنية من خلال أصدقاء خاله في العاصمة وأحاديث الشيخ البكري وشيخ الصحافة أبي اليقظان، ومن خلال إقامته في تونس أيام الحركة الدستورية النشيطة، ثمّ مواكبة للحركة الإصلاحية عند الثلاثينات وهو تلميذ، على يد المدرّس النابه المرحوم الشيخ بكلي أحمد بن الحاج يحيى، ثم الرسكلة النهائية على يد الشيخ الإمام بمعهد القرارة. وقد عبّر على ذلك في مختلف قصائده وأناشيده الوطنية، وكان شديد الإعجاب بشاعر الثورة مفدي زكرياء، يروي عنه كثيرا من قصائده الوطنية، ويتغنّى في كلّ مناسبة بنشيد: "فداء الجزائر روحي ومالي". ولذلك لم يتردّد بعد الحرب العالمية الثانية في أوّل انفراج للحركة الوطنية من خلال حزب الشعب، لم يتردد في المشاركة في كثير من التظاهرات واللّقاءات لدى زعامة الشعب في بوزريعة، وفي الموكب العظيم لتشييع جنازة المجاهد الكبير المرحوم إبراهيم غرافة في صيف 1947م عند روضة سيدي بنّور حيث ألقى كلمة تأبينية في شجاعة وجرأة كان

لها وقعها الكبير، كما شارك في أعظم تجمع وطني بمدينة سطيف سنة 1948م لتشييع جنازة المجاهد المرحوم معيزة إبراهيم، بتنظيم حركة انتصار الحريات الديموقراطية. إذ ألقى كلمة تأبينية في الجموع الحاشدة، وحتّى لا يبقى على هامش الحركة آثر أن ينخرط رسميا في خلية الحراش لحركة الانتصار سنة 1948م فتوطّدت علاقته برفاق النضال أمثال الإخوة: العلمي سليمان، وخاله عمر وعبد القادر المسمى "نيقوص"، فأصبح إيمانه راسخا بالقضية الوطنية، وهو يعيش مهزلة النضال السياسيّ في أوّل تجربة خاضها في المجالس المنتخبة، إذ رشّح عضوا ممثلا لعشيرته في مجلس الجماعة بالعطف تحت إشراف القائد سنة 1948م. وكم كانت له مواقف بطولية ضدّ الإجراءات التعسفية على المواطنين مما كان يمليه الحكام العسكريون الفرنسيون من خلال القائد وأعوانه، مما دفع الكومندان "قوتي" حاكم الملحقة العسكرية بغرداية أن يعتبر حركة الشباب بالعطف بوادر تمرّد ثوري كتب عنه التقارير الضافية، كما استجوب كثير من الشباب وفي طليعتهم المرحوم الدكتور بابا عمر جلمام عبد الرحمان بن محمد بحكم علاقته الوطيدة بنا آنذاك. وناهيكم بمقاطعة "لاريصا" الشركة الاستعمارية لاستغلال المياه الجوفية، والتي تبنّاها أبناء العطف لما يزيد عن ثمان سنوات في فترة كانت أجنّتهم تموت صبرا بالجفاف، وكان للفقيد الدور الحاسم فيها بمؤازرة أسرة آل بكلي الذين واجهوا الشركة بخصومة شرعية لكون العين الأولى الارتوازية حفرت في أرضهم، ولم يفكّ الإضراب إلاّ بعد إذعان الشركة لتخفيض سعر المتر والمكعب في كلّ أنحاء ميزاب كما هو المطلوب.

أصبحت إلى جانبه في "مدرسة النهضة" في أكتوبر 1954م. وقد عدت من تونس أشدّ ما أكون حماسا للقضية الوطنية، إذ واكبت الثورة التونسية لمدة سنتين مع الطلبة الجزائريين، وكنّا نعيش إرهاصات الثورة الجزائرية، فوجدت الرفيق يعيش نفس المعاناة وهو على يقين بأنّ انفجار الثورة في الجزائر عمّا

قريب، ولكنّه يعتقد أنها سوف تكون أشدّ عنفا وأحسن نظاما وأقصر مدّة لتحقيق النصر استنادا إلى ما كان يعرفه من التحركات السرّية للمناضلين، وكم كان حماسنا غامرا لبيان جبهة التحرير الوطني لفاتح نوفمبر 1954م والذي عكس توقعاتنا ونحن نتابع الأحداث على مسرح المغرب العربيّ. وكذا نتوقع أنّ المدّ الثوريّ سوف لا يغمر مناطق الصحراء إلاّ بعد مدة تستقطب فيها الثورة كلّ المناطق الشمالية، و لم ينعقد بعد مؤتمر الصّومام الذي أعطى للثورة هياكلها النظامية وحدّد مناطق الولايات.

وكنا في العطف نتوقع أن تكون البلدة منتجع الرواد الأوائل لعناصر جيش التحرير لموقعها الإستراتيجي، وفعلا، فلم يكد يدور الحول لاندلاع الثورة حتّى أوفد إلينا الشهيد الحاج عاشور زيان من منطقة بوكحيل الصحراوية أوّل كوكبة من الجيش الصحراوي بقيادة العريف بلخير العيفاوى، و لم يكن الشهيد زيان قد انضمّ إلى الجبهة، فدعي الفتى بحكم مركزه القيادي إلى تنسيق العمل وتكوين أوّل خلية سرية للثورة، فلم يتردد في الاستجابة لنداء الواجب، وتمّ اللّقاء بالعريف في جنان السيّد الحاج أيوب بـ"أولاوال"، وكلّف بالتنسيق على مستوى المنطقة للعمل المشترك، وبتشاور مع الشيخ الإمام بيوض بالقرارة، وتنسيق مع الممثل الجهويّ للشهيد زيان المجاهد المرحوم الحاج سليمان لغزال من "دلاعة" تكوّنت تلك الخلية السرّية للثورة، قامت بتزويد الجيش الصحراوي بما يزيد على 800 قطعة من مختلف الأسلحة وقشاشيب وأموال. ثمّ اختار أن تكون داره بمنطقة أولاوال مركزا للجيش حتّى فجر الاستقلال.

وبعد مؤتمر الصومام وتحديد مناطق الولايات، وفد إلى العطف المسؤول السياسي الأخ محمّد علي من قبل الولاية الرابعة للعمل على ضمّ صفوف الجيش وتوحيد القيادة تحت إشراف الجبهة، الأمر الذي تطلّب عملا مضنيا

للالتحام والوئام، كان فيه للفتى المناضل القدح المعلّى، حتّى إذا استوى النظام وانضمت الجهود حدثت نكسة "بلونيس" في اجتياحه لمنطقة الجلفة وبوسعادة، فإذا بالعريف بلخير العيفاوى يعود إلينا مع كوكبة من جنود "بلونيس" بقيادة محمّد الأكحل ويدخلون بسيارتهم سوق العطف مخفورة بجنود المظلات الفرنسيين ويرفرف عليها العلم الوطني، فبهت النّاس بما يشاهدون وأخذوا يفركون عيونهم علّهم في حلم، ولكنّهم وجدوا أنفسهم أمام الحقيقة المرّة، إذ جاء هؤلاء لمطاردة مناضلي جبهة التحرير الوطني.

فما المخرج وما الحيلة؟ وهذا العريف بلخير قد احضنته العطفاء لما يزيد عن سنتين، وهو يعلم قاصيها ودانيها، ويعرف دورها وأجنّتها. وكان من لطف الله علينا أن كنّا في العطلة الصّيفية بالشمال نترصّد الأخبار بحذر، ونتابع معاناة كثير من المناضلين، وهم يجرّون إلى مركز قيادتهم في حيّ الشهيد رزاق للاستنطاق، ثم الإفراج عن بعضهم أو السجن والتغريم للبعض الآخر، وفي مقدمة هؤلاء المناضلين المجاهد المرحوم السيد سماوي الحاج إسماعيل بن حاج محمّد. وهكذا إلى أن انفرجت تلك الأزمة بالقضاء على حركة "بلونيس" خلال 1959م.

وظلّ الفتى على عهده بالنضال الثوري ينسق العمل داخل البلدة وخارجها، وكان المعلّمون في "مدرسة النهضة" يتحركون لأوامره في توزيع المسؤوليات، وقد أصبح النائب الثاني لرئيس المجلس البلدي في العطف لسنة 1958م، بإذن من مسؤولي الجبهة، لمراقبة تحركات العدو وتبليغ مخططاته.

وفي أواخر 1960م كانت الولاية السادسة بقيادة الشهيد "سي الحواسّ" ثمّ الأخ "محمد شعباني" قد أنهت صراعها المرير مع قوات "بلونيس"، فامتدت مسالك العمل النظامي آمنة إلى كلّ التراب الجنوبي تحت إشراف الشهيد "أحمد طالبي"، الذي تردّدت مراكز قيادته بين القرارة وبريان، ثمّ أخيرا دخل

إلى غرداية حيث تمّ استشهاده في معركة مليكة العليا الشهيرة ليوم 06 أكتوبر 1961م. وقد أوفد إلينا في شهر جويلية 1961م المساعد السيد "الهاشمي الدّارم"، لتكوين المجلس البلدي السرّي للثورة، وذلك بعد أن اتصل الفتى بالشهيد "أحمد طالبي" بمركزه في بريان بصحبة الشيخ ابن يوسف سليمان، ورجا منهما العمل لتركيز المجالس النظامية للثورة في قرى وادي ميزاب.

واسمحوا لي -أيّها السّادة- أن أفتح القوس هنا لإثبات موقف بطوليّ لهذا الشهيد، كان الفتى المناضل يرويه لنا في خشوع وإجلال. وذلك أنّه عندما تمّ هذا اللّقاء التاريخي بينهم، وبعد تقديم الإرشادات والأوامر والالتزام بتنفيذها، قام الشهيد البطل أحمد طالبي لتوديعهما، فما كان من الفتى إلاّ أن دعا للضابط بحفظ الله ورعايته، راجيا معه لقاء آخر في ظل الاستقلال. غير أنّ الشهيد البطل ربّت على كتف الفتى مستعطفا إيّاه أن يدعو له بنيل الشهادة إن كان يريد له الخير حقا، فعجب الفتى له وألحّ على طلب الحفظ فأجابه البطل بأنّه لا يتمنى ذلك؛ لأنّه يخشى على نفسه أن لا تطاوعه في الجهاد الكبير عند التكالب على الحظوة والسلطة. وهكذا حقّق الله لهذا البطل الشهيد ما تمناه بعد فترة قصيرة من هذا الموقف الجليل، فرحم الله شهداءنا الأبرار؛ لأنّ دماءهم الزكية وأرواحهم الطاهرة سوف تظل -بفضل الله- صمام الأمان وحبل النجاة لهذا الشعب المسكين الذي راح يتخبّط في مشاكله، وتجتاحه رياح المكر والكيد من الأمبريالية والصهيونية العالمية.

وهكذا لم تمرّ أيام قلائل من أواخر شهر جويلية 1961م حتّى أثمرت جهوده في تأسيس المجلس البلديّ الثوريّ برئاسة الأستاذ بكلي بابة أحمد بن حمو "بلال" ومن حوله جماعة من المناضلين الأوفياء، كان الفتى فيهم واسطة العقد. وكان هذا المجلس يحمل رقم 1173. وإثر استشهاد أحمد طالبي وفد إلى العطف الملازم الأخ "رشيد الصّائم" لينضمّ إليه مساعده الأخ "الهاشمي

الدّارم"، مع كوكبة من الجند، واتخذوا من مدينة العطف مركزا لقيادتهم. وبعد وقف إطلاق النار في 19 مارس 1962م أصبحت العطف مركزا لقيادة المنطقة الخامسة التي يمتد نفوذها إلى تامنراست، حتّى فجر الاستقلال الوطني، فأصبحت بذلك مركزا لجيش التحرير منطقة محرّمة على الجيش الفرنسي كما تنصّ عليه اتفاقيات "إيفيان".

ثمّ ترأس الفتى مكتب الأوقاف الذي كان بمثابة محكمة ثورية يتقاضى أمامها المواطنون، ويحتكم إليها المجلس النظامي، وكم حلّ من مشاكل وصان أعراضا وحقن دماء، وكنت إلى جانبه كاتبا أصنّف الملفات وأسجّل التقارير في عمل دؤوب ونشاط لا يعرف الملل. ولكم كان إشفاقنا عظيما لما كلّفنا به الجيش من وجوب إنهاء الصراع التقليدي الذي نشب بين هيئتي العزابة في البلد استمرّ لمدة سبعة عشر عاما لم تجن منه البلاد إلاّ تمزقا وضياعا ومهاترات تمسّ أحيانا بالقيم الخلقية التي يأمر بها الدّين الحنيف. فنحن -وإن كنّا أعضاء في حلقة العزابة-، فإنّنا ما نزال يومئذ في قاعدة الهرم النظامي لهذا المجلس الوقور. فكيف يتسنى لنا أن نقوم بهذه المهمة الشاقة؟ وكيف نتطاول إلى قمّة البوازي، وهي تتلاحى وتتناوش؟ ولكن أنّى لنا أن نخالف الأوامر، وعزيمة القيادة لا ترى مجالا للتلكّئ والتردد؟، فرأينا أن نستعين بحكَم له وزنه العلمي والروحي نستند إليه في أداء هذه المهمة الشاقة. ومَن غير الشيخ البكري عبد الرحمان بن عمر -رحمه الله- يصلح لها وهو ابن البلد البارّ، وفي القمّة من مشايخنا الأخيار.

وهكذا بدأت الاتصالات والمفاوضات بين الطرفين، وامتزجت في جوّها سماحة الدّين ورهبة السلطان. وبعد إبرام الاتفاقيات والإجماع عليها أمضى الفريقان الوثيقة التاريخية للوفاق والمصالحة يوم السّبت 18 شوال 1381هـ الموافق ليوم 24 مارس 1962. وفي يوم الخميس 23 شوال/ 29 مارس 1381/ 1962 أقيمت الحفلة العامة للمواطنين في رحاب هذا البيت المعمور للإعلان عن العهد الجديد، ثمّ أقيمت مأدبة كبرى على شرف الأخ الملازم ومساعديه. وهكذا تعافت الأرواح

وتصافت القلوب وتلاحمت الصفوف في ظل الاستقلال الوطني. وقد سجّل الفتى المناضل بذلك أروع صفحة في تاريخ بلده وهو الحريص على الوحدة والتكامل بين أبناء هذا البلد الأمين مهما كان رهطهم أو قبيلهم.

ولعل من مآثره النضالية في الناحية الاجتماعية والثقافية أن نشيد بعمله التنسيقي بين إدارة جمعية العلماء في القاهرة حيث استقرّ الشيخ البشير الإبراهيمي -رحمه الله-، وكان الفتى يرأس قوافل الحجيج في حافلات شركة "مواصلات الصحراء" ببرج بوعريريج لثلاث مرّات تباعا بدءا من سنة 1954م، وقد توطدت علاقته بالشيخ البشير والأستاذ الشيخ الفضيل الورتلاني والأستاذ الصّديق السّعدي -رحمهم الله-، وبقي وفيا لهذه العلاقة بالشيخ البشير، ولم يثنه الحصار المضروب عليه وهو في فراش المرض أيام حكم بن بالة أن يزوره عدّة مرات في مسكنه بحيّ حيدرة، وحتّى بعد إلقاء القبض على ولده الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي. وكان الفتى يتذمر بخنوع العلماء وركونهم إلى الوظيف الذي جعل منهم إمّعات لا يصدعون بالحقّ ولا يجهرون بالدعوة، حتّى قيّض الله تعالى للفكر الإسلامي الحديث الأستاذ المرحوم مالك بن نبي، واجتمع حوله ثلة من المريدين الأوفياء، فلم يتردّد الفتى في الانضمام إليهم، على ما في ذلك يومئذ من مخاطرة ومطاردة.

توطدت علاقته بالمرشد الحكيم مالك بن نبي حتّى استضافه لمدة ثلاثة أيام أمضاها بعائلته في العطف مقيما بداره، اطلع من خلالها على كثير من عادات المنطقة وخصائصها أشاد بها في ما كتبه على صفحات الجرائد، وعندما استقرّ به المقام في العاصمة مديرا لجمعية الفكر الإسلامي في نهج عبان رمضان لمدّة ثلاث سنوات من 1963 إلى 1966م توطدت علاقته بكثير من الأساتذة الملتزمين بالخط الإسلامي أذكر منهم الأستاذ عبد الوهاب حمودة، الأستاذ رشيد بن عيسى، والشيخ الوقور سحنون، والشيخ المرحوم عبد اللّطيف

سلطاني، ثمّ انخرط رسميا بجمعية "القيم" بنادي الترقي، و لم يثن عزمه ما عانته من مضايقة ومطاردة.

وفي مجال تأسيس الكشافة الإسلامية بالجنوب كان له نشاط مكثف في معهد القرارة ضمن الأساتذة المؤسسين للحركة الكشفية في سنة **1946**م، وفي طليعتهم مدير معهد الحياة الشيخ عدون، ورئيس البعثة البيوضية الأستاذ الحاج أحمد أوراغ. وكان للفتى المناضل صداقة بكثير من قواد الكشافة بمدينتي الأغواط والجلفة، ممن كانوا في سلك التعليم الرسميّ يومئذ في القرارة أو العطف، استفاد بخبرتهم في التنسيق والتنظيم، وهكذا يصدق في فتانا المناضل قول المتنبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصّغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

06- في قمة الهرم:

تسلّق الفتى المكتهل مدارج سلّم العمر بخطى مركّزة ومطّردة، فلم يكد يذرف على السّتين حتّى أصبح في الصّف الأمامي للسلطة الروحية في البلد، وغدا الممثل الرسميّ لها في مختلف الدوائر ولسان صدق لها في كلّ الملتقيات. وقد حباه الله منذ أواخر السبعينيات تفرّغا لهذه القضايا عندما تقاعد عن مهمته التربوية في المدرسة، وأدركه أبناؤه في تحمّل أعباء الأسرة؛ فأصبح لا يستقرّ له قرار في البلد إلاّ لماما.

وفي هذه الفترة بالذات شاءت حكمة الله أن نهيئه لمهامّ جسام يساند فيها رفيقه الأستاذ أبا القاسم عبد الحميد -ناظر الأوقاف الإباضية-، وقد اتحدت جهودهما وتوافقت مشاربهما في توأمة مخلصة ليس لها في مقصد إلاّ المحبة في الله وابتغاء مرضاته وخدمة الصّالح العام في كلّ ما يعود على الأمة بالخير العميم والنفع الجزيل.

ظهرت عليه أعراض الضّعف وهو يعاني من البول السكّري، وكنّا ننصحه بالإشفاق على نفسه، فيلتمس منّا مصاحبته في بعض تلك المهامّ الخارجية أو الإنابة عنه إذا قهره عذر، ولكن مساعديه منّا لا تسمح له انشغالاته الداخلية بالاستجابة لطلبه أحيانا، فيتحامل على نفسه معتمدا عليها، ويتجشّم مشاق السفر ومنغصات الإرهاق، حتّى لا يترك الفراغ ولا يخذل الرفاق. وكم كانت له صولات وجولات على مستوى مجلس عمّي سعيد، وهو يحاول مع رفاقه من العزابة الأجلاء أن يجعلوا منه أداة فعّالة على مستوى الأحداث الوطنية وعلى مستوى العالم الإسلامي حتّى يستجيب لمتطلبات المعركة المصيرية للإسلام والمسلمين، وهم يواجهون أعتى التحديات وأخسّ المؤامرات. كان يتحرك إلى جانب رفاقه الأوفياء في كلّ المجالات التي كان يرجى فيها نفع للأمّة، لا يثنيه شاغل في ليل أو نهار، ثاويا بين أهله أو راكبا مخاطر الأسفار.

وكان -رحمه الله- يتمتع باستقلالية في التفكير، لا يصدر في أحكامه إلاّ عن قناعة ذاتية، فيحاور ويناقش في موضوعية مركّزة وبصيرة نافذة بمجريات الأحداث، ولا يصرّ على رأيه إذا لزمته الحجة ولا يندّ عن رأي الجماعة إذا توافقت على رأي مخالف. ويا ما كانت لنا معه مواقف لوم وعتاب فيما يكون فيه تقصير أو إهمال، لا عن سوء قصد، ولكن لتجاوز الأحداث واحتدام المواجهة، فنجد فيه رحابة صدر وصبر وحلم، واعترافا بمواقع الخطأ، وركونا إلى السّماحة والعفو في تواضع وتقدير. ولكم شعرنا بالطمأنينة والرضى وهو يزجي بنا سفين المجتمع بعد أن اكتملت لديه وسائل الإرشاد والتوجيه، وتهيأت له في ظروف حياته ما يؤهله للقيادة الرشيدة.

وكنا نتمنى له على الله أن يترل من قمّة الهرم متدرّجا في منحدر العمر حتّى يستنفد لأمّته ما حباه الله به من مواهب وطاقات. ولكن حكمة الله شاءت أن تريحه من عناه الرحلة المضنية، فيسقط فجأة من أعالي

المنحدر لا لتهوى به الريح في مكان سحيق، ولكن إلى هناك في أحضان البيت العتيق، إلى جوار رسول الله وصحابته الأبرار، إذ أسلم الروح إلى باريها في عداد المستغفرين بالأسحار، ويوارى جثمانه في البقيع إلى جانب المصطفين الأخيار.

وفي يوم كئيب في شهر جويلية 1989م الفاتح من ذي الحجة 1410هـ نعاه إليّ إخوة لنا من أقربائه، وأنا لا أصدق النّبأ من هول المفاجأة، فاسترجعت باكيا، وأنا أتحامل على نفسي لأرتب مع الهيئة الدينية صلاة الغائب على روحه الطاهرة. إذ أحتشد لذلك موكب جليل من أصدقائه وأقربائه ومعارفه الذين جاؤوا من كلّ حدب وصوب للترحّم عليه وأداء واجب التعزية، وقد غصّت بهم رحاب هذا البيت المعمور الذي بكاه بحرارة وخشوع؛ إذ لا يزال صوته الشجيّ يتردد من على منبره يدعو إلى الله بإخلاص ووفاء، ولا تزال كلّ لبنة في هذا الصّرح العتيد تشهد له بالجهد الجهيد والعرق الصّبيب، وهو يستحثّ جهود المتطوعين لإعلاء بنائه وتشييد مرافقه.

فرحم الله فقيدنا، وأسكنه فسيح جنانه، وسلكه في عداد الخالدين قدوة للأجيال، والذين آمنوا وعملوا الصّالحات طوبى لهم وحسن مآب.

﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[الحشر:10]. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

ملاحظة:

ألقيت هذه المحاضرة لتأبينه في يوم مشهود حضره كثير من الضيوف كما حضرته السلطة المحلية وعلى رأسهم السيّد والي الولاية الأخ: سي يوسف محمود ذلك يوم: 04 محرم 1410هـ - 06 أوت 1989م.



السيّد: ابن أيوب الحاج إبراهيم بن محمد
1940 - 1990

هو المرحوم الأستاذ: ابن أيوب الحاج إبراهيم بن محمّد بن محمد. من مواليد العطف ليوم 05 أكتوبر 1940م من أبوين كريمين: المرحوم السيّد: ابن أيوب محمّد بن محمد والسيّدة: بكلي بابة فافة بنت بكلي.

ترعرع في أحضان أسرته هنيئا سعيدا وتدرّج في كتّاب القرية ثمّ في "مدرسة النهضة" لدراسة اللّغة العربية وختم القرآن والتحق بالمدرسة الفرنسية موازاة مع التعليم الديني الحرّ حتّى حصل على الشهادة الابتدائية بالفرنسية وكان من المتفوّقين ثمّ انتقل إلى القرارة فالتحق بالمصلّى لحفظ القرآن الكريم فاستظهره لنفس السنة أي 1957م لينتقل إلى معهد الحياة حيت أكمل السنة الأولى ونجح فيها بجدارة.

وإذ توفي والده -رحمه الله- لسنة 1954م اضطرته ظروف الحياة القاسية أن يتّجه إلى الحياة العملية في مدينة الجلفة. فعمل أجيرا بسيطا في "محلات الجنوب للأدوات الحديدية" وبفضل كفاءته أصبح محاسبا ماليا للشركة ثمّ مسؤولا مسيّرا لها عندما انتقلت الشركة إلى العاصمة.

بنى بأمّ أولاده السيّدة: ابن أيوب فافة بنت عمر لسنة 1961م ورزق منها سبعة أولاد.

أسهم في الحياة الاجتماعية في بلدته بحظ وافر عمارة لبيت الله إذ أصبح عضوا في هيئة "إيروان" ثمّ عضوا في إدارة "جمعية النهضة" يساعد أمين مالها في ضبط الحسابات كما كان يرافق المتجوّلين لها جمعا لتبرعات المحسنين. وهو ينتقل بهم على سيارته في العاصمة وضواحيها. كما كان عضوا بجمعية الاستقامة "بالعالية" ساهم بفعالية في أنشطتها.

ومن مآثره الحميدة في محيط عشيرته بالبلدة إذ أصبح من سراتها المرموقين أنّه سعى للرفع من مستواها ماديًّا وأدبيًّا، وكان من البارزين في بناء مقرّها وتجهيزه بكلّ الوسائل الضرورية لتأطير أبنائها.

كان -رحمه الله- دمث الأخلاق لطيف المعشر يحبّه كلّ من عرفه ويجود بماله في سبل الخير ويحنو على الأرملة واليتيم وعلى الفقراء بصفة عامّة.

وفي أوج نشاطه وعطائه أصبح يشكو من آلام في أحشائه مما أضطره إلى إجراء عملية جراحية في مستشفى مصطفى باشا بالعاصمة فكانت سببا لوفاته يوم 19 أوت 1990م ونقل جثمانه الطاهر إلى مسقط رأسه حيث دفن في جنازة مهيبة بمقبرة "أبي عبد الله" رحمه الله وأكرم مثواه.



السيّد: هيبه الحاج محمد بن حني
1905 - 1991

هو من مواليد العطفاء خلال1905م من أبوين كريمين السيّد: هيبة حنّي بن إبراهيم، والسيّدة: عبد العزيز نانه.

كان الشريك الوفيّ للشيخ ابن يوسف سليمان بن حاج داود في متجره بالحراش، متشبّعا بالفكرة الإصلاحية غيورا على بلده، مثاليا في حسن القيام بشؤون عائلته وأولاده.

وعندما اضطرتنا الظروف السياسية والإدارية لتجديد قانون "جمعية النهضة" وإدارتها في سنة 1967م. لم نجد لمهمّة الرئاسة إلاّ السيّد هيبة محمد بن حنّي. إذ لا يجد فيه ابن أخته الشيخ ابن يوسف سليمان مطعنا لتقلّد تلك المسؤولية بعده، و لم يكن من السّهل علينا في تلك الظروف الخاصّة أن نجد الأعضاء الأكفاء لذلك التجـــديد، بحيث تزكّيـــهم الإدارة ويقبل الملفّ. وتمّ -بعون الله- ذلك دون آيّة عراقيل تذكر، فتابعت الجمعية مسيرتها بطاقمها الإداريّ الجديد، وكانت أوّل جمعية حصلت على الاعتماد الرسميّ في ظل الاستقلال الوطنيّ.

بقي السيّد هيبة محمد بن حنّي على رئاسة الجمعية وفيًّا أمينا حتّى توفاه الله. بعد أن استقرّ في البلد في أخريات أيامه. وقد خلفه أولاده في تدبير شؤون تجارته وذلك ليوم: 24 جويلية 1991م بعد مرض ألَمّ به، نقل جثمانه الطاهر إلى مسقط رأسه وشيّعت جنازته في موكب مهيب، تغمده الله برحماته، وأسكنه فسيح جنانه.



الشيخ: ابن يوسف سليمان بن الحاج داود

1906 - 1992

الشّيخ العبقريّ

يصدق فيه وصف إيليا أبي ماضي لشقيقه:

ولكن كنت ذا خلــق رضــيّ ... على خلــق لغــيرك لا يكــون
وكنت تحــيط علمــا بالخبايــا ... وتمنع أن تحيط بــك الظّنــون
كأنّك قد قتلت الــدّهر بحثــا ... فعنــدك ســرّه الخــافي مــبين
حكيت الدهر في عمر ولكــن ... ذكــاؤك لا تكوّنــه قــرون
فتى جمعت ضروب الحسن فيــه ... وكانت فيــه للحســنى فنــون

- المدخــل:

يقيّض الله لكلّ حركة إصلاحية تسعى للتجديد والتغيير رجالا يتمتّعون بحصافة الرأي وقوّة العزيمة والإرادة، ويسخّر لهم من وسائل الإعداد والتكوين ما يمتازون به على أقرانهم، وتهيّئ لهم في ثنايا المجتمع ومــن تفاعــل طبقاتــه

ونشاط هيئاته ما يجعلهم في الطليعة روادا لتحريك عجلة التطـوّر والتغـيير، وحداة لقوافل الإصلاح والتجديد.

ومن هؤلاء الأفذاذ ممّن وقفوا إلى جانب الشيخ الإمام الحاج إبراهيم بن عمر بيوض -قائد الحركة الإصلاحية بالجنوب الجـزائري وبمنطقـة "ميـزاب" خاصّة-، من هؤلاء الأفذاذ الشيخ العبقري: الحاج سليمان بن حـاج داود بـن يوسف -رحمه الله-، كان من الرعيل الممتاز حول الشيخ الإمام يؤازره في مغالبتـه لمكائد الاستعمار، ويشدّ عضده في مقارعته لآفات الجهل وتحجّر الأفكار.

ولو اجتهدنا في رسم صورة لهذا الرجل الفذّ لما وجـدنا في ذلـك أحسن مما قاله شـاعر المهجر "إيليا أبو ماضـي" وهو يرثي شقيقه "ظـاهر أبو ماضي"، إذ يقول:

ولكن كنـت ذا خلـق رضـيّ ... علـى خلـق لغـيرك لا يكـون
وكنـت تحـيط علمـا بالخبايـا ... وتمنـع أن تحـيط بـك الظّنـون
كأنّك قد قتلـت الـدّهر بحثـا ... فعنـدك سـرّه الخـافي مـبين
حكيت الدهر في عمـر ولكـن ... ذكـاؤك لا تكوّنـه قـرون
فتى جمعت ضروب الحسـن فيـه ... وكانـت فيـه للحسـنى فنـون

نعم، لقد كانت لفقيدنا فيه للحسنى فنون، فمن هو الشيخ ابن يوسف سليمان بن حاج داود؟

01- أسـرته ونشـأته:

كان والده -رحمه الله- عمّنا الحاج داود بن باسعيد أحد أعضـاء حلقـة العزابة البارزين في المسجد العتيق، اضطلع بمهمة الآذان، وكـان أحـد الأنصـار المرموقين لقطب الأئمة الشيخ أطفيش الحاج محمد -رحمه الله-، إلى جانب عضديه الأيمنين: الشيخ سعيد الحاج مسعود بن إبراهيم، والشيخ بكلي الحاج عمر بن حمو.

وشاءت الأقدار لهذا الثالوث المبارك أن يتّخذ كلّ واحد منهم زوجتين لمقاسمة هموم الحياة، إذ بنى عمّنا الحاج داود بأمّ أولاده الأولى السّيدة: بخيلة بنت مسعود، ثمّ بنى بوالدة فقيدنا السيّدة: هيبة بيّة بنت حنّي، لتنجب له ولدها "سليمان"، مع أخت له لم تعش طويلا، كما ماتت الأمّ وتركت ولدها "سليمان" لتربية الزمان يتيما لا يزيده عمره عن خمس سنوات، فنشأ معتمدا على نفسه، يعوزه حنان الأمّ الرءوم، وقد وهبه الله ذكاء حادّا وعزيمة وطموحا كبير.

أبصر الوليد نور الحياة خلال: 1324هـ / 1906م، وكانت تلك الفترة من أوائل القرن الماضي تشهد تكالبا استعماريا شديد الوطأة على العالم الإسلاميّ، وقد رسخت فيه أقدام فرنسا الاستعمارية على بلدنا الجزائر، وتمّ لها بسط نفوذها على وطننا المفدّى من أقصاه إلى أقصاه، وما كان للصبيّ الناشئ ليجد في قريته ما يشبع نهمه في المعرفة والتحصيل إلاّ ما كان يجده أقرانه من التعليم التقليديّ في كتّاب القرية حفظا لكتاب الله، وتلقيا لمبادئ اللّغة العربية، فشدّ رحاله غلاما يافعا إلى القرارة، وأصبح عضوا حيّا في البعثة العطفاوية لدى الشيخ إبراهيم بن بكير حفّار، غير أن مدّة تحصيله لم تدم طويلا هناك. ولكنّه لفرط ذكائه كانت تلك المدة كافية للتمكن من اللّغة العربية ومبادئ الفقه الإسلامي. فانطلق لسانه بالفصحى يتحدّث بها بطلاقة وجرأة على صغر سنّه نسبيّا.

02- بناء العش العائلي:

لم يرو الفتى ظمأه من منهل العلم في القرارة، إذ اضطرته ظروف الحياة القاسية إلى الاغتراب والضرب في أرض الله للكسب والارتزاق، وقد جرت العادة أن يتزوج الشباب حين يبلغون العشرين من عمرهم أو قريبا منها، وتقع مسؤولية ذلك على الأولياء، إذ يعتبرون تزوّج أولادهم ذكورا وإناثا من تمام حقّهم الشرعيّ في الكفالة والرعاية. فبنى الشابّ بزوجه الأولى السيّدة: سماوي لالة بنت الحاج

محمد بن بايوب في 20 جانفي من سنة 1922م. وبذلك يكون الفتى قد تزوج صغير السن نسبيًا فأنجبت له زوجه من الأولاد الذكور: يوسف، محمد، إبراهيم، الحاج داود. ومن الإناث: بيّة، نانة، فافة، عائشة، حفصة. وقد جمع الله بالخير بين الزوجين، فسارت حياتهما في تكامل وانسجام حبًا ومودّة ورحمة، حتّى صار الشّيخ سليمان مضرب المثل في دلال المرأة على زوجها، وقد لمست بنفسي ذلك عندما كنت أخطّ للشيخ رسائل من زوجه خلال الثلاثينيات تفيض رقة وحبًا، وقد سألنا الشيخ ذات مرّة عن سرّ ذلك الحبّ وذلك الانصياع لامرأته فأجابنا – رحمه الله–؛ لأنّها كانت تفهم السياسة من وجهة نظري، وبصفة عامّة سأله أهل القرارة عن سرّ طاعة رجال العطف لأزواجهم فأجاب على الفور: "لأنّهن ناضجات الأنوثة"، فلا عجب في تقاليدنا ومألوفنا أن يكون رجل من "آل حريز" على ذلك النمط. وشاءت قدرة الله أن يفرّق الموت بين الزوجين المتحابّين إذ توفّيت الزوجة الوفية في 06 شعبان الموافق ليوم 06 أفريل من سنة 1987م. فبنى الشيخ بزوجه الثانية السيّدة: بهون علي عائشة بنت عمر فصحبته بإخلاص حتّى وفاته وأنجبت له طفلتها الوحيدة: ابن يوسف لالة بنت سليمان.

03- حياته العملية والاجتماعية:

توجّه الشيخ في ريعان شبابه إلى شرق البلاد ليعمل أجيرا إلى جانب رفاق له مثل المرحوم السيّد: بابا عدون الحاج مسعود بن رمضان. والمرحوم السيّد: بابا عدون الحاج إبراهيم بن عيسى. إذ عمل الجميع أجراء تحت إدارة السيّد المرحوم: بوبكر الحاج محمد بن عمر (الشرّح). بالشراكة مع المرحوم: بهون بكير بن حاج إبراهيم (ابن شبوط). في "رحبة الصوف" بقسنطينة. وقد جمع هذا المتجر إلى جانب المذكورين أدباء وأساتذة مثل شاعر الثورة: "مفدي زكرياء"، ومدير مدرسة الحياة السيّد: لبسيس قاسم بن الحاج سعيد.

وكانت حاضرة قسنطينة مركز الإشعاع الثقافي والحركات السياسية في بلاد الجزائر، تتفاعل فيها النشاطات المختلفة في مزيج من التوجّه العربيّ الإسلامي، ممثلا في حركة "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين". ومن دعاة المساواة والاندماج في حركة الأمير خالد، والدكتور "ابن جلول" وغيرهما من السّاسة البارزين.

وكانت لجماعة تجار "بني ميزاب" هناك في قسنطينة تنظيمات وهيئات عرفية تختص بهم، ولم تكن في منأى عن تلك النشاطات المتفاعلة في جوّ قسنطينة، بل كانت حاضرة في كلّ موقف يستدعي المشاركة والتمثيل، ممّا أتاح كثيرا من الفرص للشيخ سليمان أن يبرز مواهبه ويسمع كلمة الجماعة في مختلف التجمعات والملتقيات، وكان لمديره السيّد: بوبكر الحاج محمد بن عمر اليد الطولى في تشجيعه ومصاحبته معه إلى كلّ موقف يستدعي تمثيل الجماعة، وكثيرا ما كان يشرّفها بذلاقة لسانه وفصاحته وجرأته الأدبية، فقرّبه إليه الشيخ "ابن باديس"، وأحاطه بالاهتمام والرعاية. وكمثال على ذلك، فلنستمع إليه -رحمه الله- من تسجيل صوتي له في شريط محفوظ يقول: «ذهبت في سنّ مبكرة إلى قسنطينة لأكتسب رزقي بكدّ يميني، فنزلت عند السيّد: بوبكر محمّد بن عمر "الشرّح" في "رحبة الصوف". وقد حضرت الملتقى التأسيسي للجمعية الخيرية التي يشرف عليها علماء قسنطينة، ومنهم الشيخ "المولود بن موهوب" والشيخ "عبد الحميد بن باديس"، وكان الشيخ "عبد الحميد بن ماجات" قائما على باب قاعة الملتقى يسجّل أسماء الخطباء الذين يتداولون الحديث على المنبر، فطلبت منه أن يسجّل اسمي بـ"عطفاوي سليمان"، لأكون ضمن المتحدثين، وأنا ولد صغير، غير أنّ وفد الجماعة الميزابية، وعلى رأسهم المرحوم السيّد: "عمر أوعوشت" طلبوا من الشيخ: "ابن ماجات" أن يحذف اسمي من القائمة خشية أن أوقعهم في ورطة الخجل

أمام العلماء، ولكنّني أصررت على أن أتحدث، وعندما حان دور الشباب على المنبر، اقتحمت الجموع الغفيرة لأبلغ موقف كاتب الملتقى الشيخ: "أحمد بن النجار الحركاتي" لألحّ عليه في الحديث، وعندما أبدى موافقته على ذلك انسحبت الجماعة من القاعة خوفا عليّ من الارتباك والخجل، ولكنّي وفقت -والحمد لله- على الإفصاح والبيان فدوّت القاعة بالتصفيق، فأخذ أعضاء الجماعة يعودون إلى أماكنهم مبتهجين، ثمّ تحدث بعدي الأستاذ الشابّ: "عبد الحفيظ الجنان" بالفرنسية، وعندئذ وقف الشيخ عبد الحميد بن باديس آخذا بأيدينا ليقول أمام الجموع: "إنّ مستقبل الجزائر يقوم على اللّغتين، فهما كالجناحين للطائر"، ثم أكّد تسميتي بـ"عطفاوي سليمان"، وختم عليها بخاتمه، ثمّ رجاني أن ألازم جماعة العلماء. وكم تابعت مناقشاتهم في المواضيع المختلفة من شؤون الجزائر، وهي تشهد في شرق البلاد تلك النهضة الإصلاحية المباركة، وقد يأمرني الشيخ ابن باديس أن أكتب بعض مداولات الجلسة». انتهى.

فمن خلال هذا الحديث المسجل للشيخ يتبيّن لنا مدى تفاعل الفتى مع الجوّ القسنطيني حيوية ونشاطا. ثقافيا واجتماعيا وسياسيا، ممّا أثّر في تكوين شخصيته في سن مبكر، وقد فرض لشخصيته نوعا من الامتياز، بفضل مرونة معلّمه السيّد: "بوبكر محمد" معه لما آنس فيه من الفطنة والذكاء، إذ لم يكن أقرانه من العمّال في المتاجر الميزابية يجدون مثل ذلك الانفتاح على المحيط الخارجيّ حيثما كانوا يعملون.

وكمثال لتلك الصحبة والتجاوب بين الرجلين ارتسمت في ذاكرتي صورتهما وأنا غلام في محضرة "أبي سالم" في أواخر الثلاثينيات عندما زارا كتّابنا على عهد الشيخ المرحوم الحاج إبراهيم محمّد بن بهون، فرحبنا بهما وأنشدنا وتحاورنا أمامهما، فإذا بالشيخ سليمان يلقي علينا كلمة بالفصحى في حماس بالغ عجبنا له وتأثّرنا به، وهما في حلّة بديعة تحكي المستوى الحضاريّ لأهل قسنطينة.

وكان لعمل الشيخ هناك مراحل تدرج فيها من أجير بسيط إلى شريك ثمّ إلى مدير شركة مستقلة وهي تتحدد في التاريخ كما يلي:

أ- من 1927 إلى 1932م: أجير بسيط في متجر "رحبة الصوف".

ب- من 1932 إلى 1934م: شريك بجهده البدني في نفس المتجر.

ج- من 1934 إلى 1940م: إنشاء شركة مستقلة لبيع الأقمشة بالجملة كان سجلها التجاري على اسمه.

د- ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية انتقل إلى الحراش لتأسيس متجره المشهور هناك لبيع المواد الغذائية بالتجزئة.

وكنت وقتها أجيرا بسيطا في الحراش عند متجر المرحوم السيّد: الحاج سعيد إبراهيم بن سليمان (خلفي). فبدأت ألاحظ وجاهة الرجل وتميّز شخصيته، إذ أصبح من الأعضاء البارزين في جماعة الحراش، ولها مقامها المرموق في جماعتنا بالجزائر العاصمة.

وفي تلك الأثناء كانت الحركة الإصلاحية بقيادة الشيخ الإمام بيوض قد تبلورت بالقرارة وامتدت قنواتها إلى قرى "ميزاب"، وكانت فرنسا قد فرضت الإقامة الجبرية على الشيخ طيلة الحرب العالمية الثانية، فلم يدّخر الشيخ سليمان وسعا في تخفيف الوطأة عن الشيخ الإمام في المجال السياسي، فهو الحاذق الأريب والمترفق النبيه، لا تنطلي عليه ألاعيبها، ويصدق عليه ما تقدّم من قول: "إيليا أبي ماضي":

وكنت تحيط علما بالخبايا ... وتمنع أن تحيط بك الظّنون

كأنّك قد قتلت الدهر بحثا ... فعندك سرّه الخافي مبين

ومن ثمّ توطدت العلاقة الإصلاحية والرفقة النضالية بينه وبين الشيخ الإمام، حتّى أصبح عضده الأيمن ودليله الأمين في كثير من المواجهات بينه وبين الحكام العسكريين، من بعد ما وضعت الحرب أوزارها سنة 1945م،

فرفع الحَصْرُ عن الشيخ الإمام، وانطلقت المسيرة الإصلاحية في التغيير والتجديد بتأسيس الجمعيات الخيرية وإنشاء المؤسسات التربوية عبر قرى "ميزاب"، وحيثما تواجد "الميزابيون" في مدن الشمال.

وعندما خاض الشيخ الإمام المعترك السياسي سنة 1947م للنيابة في المجلس الجزائري، كان الشيخ سليمان الفرس المجلّى في مجالس الشورى لزعماء الإصلاح التي كان الشيخ الإمام يعقدها معهم لخوض معركة الانتخابات.

وفي المجال الاجتماعي والثقافي كان له مشاركة فعّالة في المجال القسنطيني، إن مع جمعية العلماء المسلمين -كما تقدّم-، أو في تأسيس "جمعية الهدى" الخاصة بجماعتنا هناك لسنة 1930م. وكذا تأسيس "جمعية السّلام" لسنة 1934م. وتأسيس "الجمعية الودادية" للتجار وأصحاب المعامل المسلمين لعمالة قسنطينة. وتتمثل قمّة نشاطه الاجتماعي في تأسيس "جمعية النهضة" بالعطف لسنة 1945م، إلى جانب رفاق أوفياء له، وهم السّادة: الشيخ بكلي عبد الرحمان، الشيخ بكلي أحمد بن الحاج يحي، الشيخ بابا عمي أحمد بن حاج موسى، الشيخ الحاج إبراهيم محمّد بن بمون، سماوي الحاج حمو بن صالح، سماوي أحمد بن بكير، الحاج عيسى الحاج إبراهيم بن حاج محمد، الحاج عيسى صالح بن حاج عمر، ابن لولو صالح بن محمّد، بكلي حاجو بن سليمان.

لقد قامت "جمعية النهضة" بدور فعّال في عملية التجديد والإصلاح بمجتمع العطفاء، مركزة على الجانب التربويّ تعليما وتثقيفا للأجيال، وأسجّل هنا مبادرة طيّبة جريئة، وهي تبنّيه بحماس بالغ لفكرة تثقيف البنت ومساواتها بالذكور في البرنامج التعليميّ قراءة وكتابة. وقد كنت -بفضل الله- الرائد المخلص في شقّ هذا الطريق الوعر على ما يحفّه يومئذ من أشواك وعراقيل، فانطلق هذا النوع من التعليم للبنات سنة 1954م. وكان لرئيس "جمعية

النهضة" اليد الطولى في إنجاح المشروع، وقد استغل إقبال الجمهور على تعليم بناتهم، فاستحث همهم إلى بناء الشطر الأوّل من مدرسة النهضة في سنة 1955م، وهو عبارة عن خمسة أقسام وما يتبعها من مرافق للصلاة، فاحتضنت أفواج التّلاميذ في الموسم الدراسيّ: 1955/ 1956م.

ومن مآثره الاجتماعية أنّه اشترى قطعة أرض "العالية" من بلدية الجزائر ليجعلها حبسا لجماعتنا، وهي اليوم مركز مرموق للصّلاة واللّقاءات والتظاهرات الثقافية المختلفة.

وبخصوص بلده العطفاء، سعى لدى الحكام المحليين إبان الحرب العالمية لتموين البلد بكمية معتبرة من القمح، وجد فيها الفقراء فرجا لأزمة الغذاء ليميروا أهلهم ويرفعوا عنهم غائلة الجوع، حتّى قال فيه الأخ: "بوشوشة" قصيدته الشّعبية الرّائعة التي مطلعها:

الشيخ بيوض في قلبي نشيته يفتي بالقرءان نزلو مولانا

04- حياته العلمية والثقافية:

تنازع الشيخ في كهولته توجّهان يغالب أحدهما الآخر في نفسه، ويأخذ كلّ منهما من جهده ما يحقّق له الغلبة.

أ)- **التوجّه الاقتصادي والمالي**: بكلّ ما يتطلبه من إمكانيات ومغامرات، إذ قام بعدّة تجارب في مجال السوق الداخلية عندما منحته الدولة الوطنية حقّ استغلال بعض الضياع الخاصّة بإنتاج الزهور مما خلّفه المعمّرون، فأصبح الشيخ يشهّر في كلّ مجلس ما تنتجه تلك الضياع من الزهور، وما يمكن أن تقطره من أنواع الروائح. كما كانت له مغامرات في النقل الصحراويّ لمختلف الشركات البترولية، ومن الطريف -أيضا- أن يجرّب نوعا من الاستيراد بينما لا تزال التجارة الخارجية حكرا على الدولة. خاض

الشيخ كلّ تلك التجارب، فلم يكتب له النجاح المطلوب فيها، ولعلّ ذلك كان من فضل الله عليه، وقديما قال الإمام الشّافعي:

جلوسي في سوق أبيع وأشتري دليل على أنّ الأنام قرود

فلا يعاب على الشيخ أن يبيع ويشتري، ولكن لكلّ مجال حيويّ أبطاله وفرسانه، وقد جمعنا في يوم من الأيام فطور دسم عند الشيخ بابا عمي الحاج أحمد بن الحاج موسى، وكان الشيخ "البكريّ" حاضرا معنا والشيخ سليمان يرتدي حلّة مزهوة ببرنوسه وعباءته "القمراية"، وبيده محفظة أنيقة، وعند ترشفنا لكؤوس الشاي، دار حديث طريف بين الشيخين حول المال وأصحابه وضروب مصادره وكيفية تأثله، وكان الشيخ سليمان يتحدث بشراهة وتلهّف لتأثل الأموال، مردّدا للشيخ البكريّ المثل الشعبي: "قَدْ مَا عَنْدَكْ قَدْ مَا تَسْوَى"، ولكن الشيخ البكريّ قاطعه على الفور قائلا: "والله لا قيمة عندي لتلك المحفظة التي بين يديك إلاّ أن تكون ملأى بالكتب العلمية، وما خلقت إلاّ لأجلها". ولعلّ الدافع لهذا التوجّه عند الشيخ كان لظروف قاهرة مرّ بها.

وفي هذا المجال الاقتصادي كان للشيخ اليد الطولى في شراء شركة: "مواصلات الصحراء" للنقل مع شركاء آخرين، والتي كان مركزها الأساسي في "برج بوعريريج" تحت إدارة السيّد: بابا عمي الحاج إبراهيم بن الحاج محمّد. ظل فيها الشيخ الشريك الأقوى حتّى إنهاء نشاطها بعد الاستقلال الوطني.

وعندما تقدمت السنّ بالشيخ سليمان كانت الغلبة في نفسه إلى التوجّه الثاني.

ب)- التوجّه العلمي الثقافي: فالإنسان منجذب إلى أصله مهما حاولت ظروف الحياة أن تغيّر مجراه، وأخيرا رضي الشيخ بما قسم الله له من رزق كفاف كان يدره عليه متجره في الحراش، فاتّجه في شيخوخته إلى

البُحث العلمي، وقد واتته الفرصة لذلك في ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت تنظمها سنويا وزارة الشؤون الدينية، سيّما وقد توثقت صلته بوزيرها الأخ: "مولود قاسم نايت بلقاسم" فقام بعدّة بحوث قيّمة، وشارك بفعالية في تلك الملتقيات، محاضرا ومعقّبا ومناقشا، وتجاوز حضوره حدود الوطن ليشارك في ملتقيات عالمية في الشرق والغرب، فتوثقت صلاته عبر مراسلاته لمشاهير الدكاترة والباحثين أمثال الدكتور: عمر فروخ، ومحمد سعيد رمضان البوطي، والدكتور: عمر خليفة النامي والشيخ: علي يحي معمّر، وغيرهم كثير، كما فسح له المجال للبحث في عدّة مكتبات مشهورة خارج الوطن، وكان الشيخ مولوعا بجمع الوثائق، وهو ضنين بها إلى أقصى درجة حتّى قلت له يوما: إنّ الوثائق التي تحدثنا عنها كثيرا هي كعنقاء الأدباء، نسمع بها ولا نراها.

وفي مجال التأليف صدر له منها:

أ- ثورة أبي يزيد.

ب- الخوارج أنصار عليّ.

ج- مساهمة علماء الإباضية في علم التفسير والحديث والفقه والتاريخ، في جزأين.

د- حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي.

05- صفاته وأخلاقه:

هو كما وصف "إيليا أبو ماضي" شقيقه:

حكيت الدهر في عمر ولكن ذكاؤك لا تكوّنه قرون

فتى جمعت ضروب الحسن فيه وكانت فيه للحسنى فنون

نعم كان مفرط الذكاء، حاضر البديهة، قويّ العارضة يستكنه الأحداث ويعرف خلفياتها وخباياها، سيّما في المجال السياسي، بصير بشؤون

زمانه، بل قد يستشفّ بنظره الثاقب ما تتمخّض عنه الأحداث، ويرتاد الآفاق البعيدة في المعاهدات الدولية والاتفاقيات العالمية.

أذكر أنّه زار البعثة في القرارة 1945م، فجلس إليه الطلبة ليحدّثهم في اتفاقيات "سان فرانسيسكو" لإعلان ميثاق الأمم المتحدة وحقوق الإنسان، وعن مشروع "مارشال" لإعمار أوروبا... الخ.

وكانت له شخصية جذابة وحديث حلو يتّسم -أحيانا- بالإغراب والمبالغة، وهو طلق المحيا حتّى مع خصومه الألدّاء.

وعندما استقرّ به المقام في البلدة وقد أتمّ بناء مسكنه الأنيق في حيّ "باعلي وعمر" فأصبح على رأس حلقة العزابة، درج على عمارة المسجد وحضور الجماعة ومجالس الذّكر بحائكه الصوفي التقليديّ للعزابة، يضفي عليه جلالا ووقارا دونما تزمّت ولا تماوت.

06- مرضه ووفاته:

ألمّ به مرض داخلي بعدما تقدّمت به السنّ إلى منتصف العقد الثامن من عمره، فاضطر إلى إجراء عملية جراحية بالعاصمة لم يكتب لها النجاح، فوافاه أجله هناك، بعد حياة حافلة بالمآثر، تقلّب فيها بين السرّاء والضرّاء، سيّما في فترة الحرب التحريرية، إذ أنّه على الرغم من أخذ حيطته الشديدة في نضاله في الشمال والجنوب، لم يسلم من الملاحقة والمتابعة، فزجّ به في السجن، وعانى من الاستنطاق، وهو الأريب الحاذق في التريّم على الجلاّدين، ولكن منطق الحرب لا يعرف الرحمة ولا يفلت المشبوهين.

وتلك ضريبة النابهين أمثاله، تصهرهم الشدائد، وتعجم عودهم المحن، وقد سلّمت له شهادة المنظمة المدنية لجبهة التحرير مناضلا في صفوفها سلّمت له بتاريخ 24 جانفي 1989م، للفترة ما بين 1956 إلى 1962 تحت رقم 37 من الدفتر الولائي.

ولم يكن أبناؤه وأولياؤه ليرضوا غير تراب بلدته مقرًّا لمثواه الأخير، إذ نقلوا جثمانه الطاهر إلى مقبرة "أبي عبد الله" حيث يرقد أسلافه وأجداده، فأقيمت له جنازة مشهودة ليوم: 28 ماي 1992م. فأبّنته بخطاب يناسب مكانه ويكرم خاتمته، وذلك عند ختم التلاوة في المسجد العتيق، وكان بحضور السلطات، وعلى رأسهم السيّد والي الولاية.

تغمّده الله بواسع رحماته، وسلكه في عداد الخالدين، والحمد لله ربّ العالمين.



السيّد: زرقون الحاج عبد الله بن محمد

1908 - 1992

هو من مواليد العطف خلال 1908م من أبوين كريمين السّيد: زرقون الحاج محمد بن أمحمد والسّيدة: بابا عمر عائشة بنت يحيى.

تلقى تعليمه الابتدائي "بتيهرت" حيث كان والده يزاول تجارته. ثمّ انتقل إلى القرارة ليلتحق بأخيه زرقون أمحمد الذي كان من كبار الطلبة هناك يشتهر بالجدية والنشاط. ثمّ سافر الأخوان إلى تونس الخضراء ليلتحقا ببعثة الشيخ أبي اليقظان لحوالي أربع سنوات تكفل فيها الوالد بنفقة ولديه. وقد تزوّدا بحصيلة علمية لا بأس بها باللغتين العربية والفرنسية، ونشأ على تربية مثلى في جوّ البعثة ضمن رفاقها من أبناء العطف. وعند عودة الأخوين إلى البلد بدأ الأخ الأكبر "أمحمد" ينشط في الحقل الاجتماعي ضمن الرواد الأوائل لجيل الإصلاح غير أنّ المنية عاجلته وهو في أوج العطاء. فرحمه الله وأرضاه.

وأمّا الأخ الأصغر "عبد الله" فقد دخل معترك الحياة للكسب والارتزاق بعد أن تزوّج بأمّ أولاده الأولى. فبدأ بالعمل أجيرا بالعاصمة في متجر السيد بابا عمر تيازيت الحاج محمّد. وكان يرتبط بالشيخ أبي اليقظان كمترجم طيلة

عمله في المتجر من سنة 1927م إلى 1937م حتّى أسّس مشروعه التجاري الخاصّ به في نهج ديدوش مراد، مستعينا بأخويه مسعود وعبد الرحمان، وقد أشتهر دكانه بالعاصمة في المواد الغذائية فأصبح عضوا في نقابة التجار ورئيسا لتعاونية التجار الميزابيين للاستيراد من الخارج خلال الحرب العالمية الثانية. ولم تكن المسؤولية سهلة في ذلك الوقت العصيب لمقارعة التجار المعمرين واليهود، وبالتالي أصبح بحكم تجربته عضوا في الجماعة الإباضية بالجزائر مع كبار الجماعة يومئذ السيدين حجوط إبراهيم (**رئيسا**) وبسخواص الحاج بكير.

كما كان الحاج عبد الله زرقون أمين مال نقابة التجار للمواد الغذائية بالتجزئة فيما كان رئيسها فرنسيا.

كما كان عضوا في الهيئة التأسيسية لـ"جمعية النهضة" **1945**م.

وقد كان محله أحد مراكز قيادة الثورة التحريرية فكانت تعقد به اجتماعات قيادة الثورة رغم تواجده بحي غالبية سكانه من الفرنسيين، فكان يحضر إليه شخصيات ثورية مثل: بن يوسف بن خدة، عبان رمضان، سعد دحلب، وغيرهم... وقد تمّ ذكر المحل في شهادة الرئيس السيّد بن يوسف بن خدة حول مشاركة الميزابيين في الثورة.

كان يشارك في اجتماعات "نادي الترقي" التي كانت تجمع المثقفين بقيادة 'الطيب العقبي.

وبعد الاستقلال في جويلية **1962** شارك في معظم مؤتمرات الفكر الإسلامي التي كانت تنظمها وزارة الشؤون الدينية سنويا عبر ولايات الوطن.

وبحكم الصداقة الوطيدة فقد كان مفدي زكرياء يتخذ من محل الحاج عبد الله إقامة له بالعاصمة حتّى أنّه اعتقل مرة عند خروجه من المحل ورجع إليه مباشرة عند إطلاق سراحه.

وبما أنّ الشاعر مفدي زكرياء كان من زملائه المقربين بالبعثة فقد استمرت زمالتهما بعد ذلك إذ سافرا معا لأداء فريضة الحج سنة 1963، فكانا ضمن الوفد الذي استقبله ملك السعودية وقتها، حيث ألقى الحاج عبد الله نيابة عن مفدي زكرياء القصيدة التي كتبها وتعذر عليه إلقاؤها بسبب مرضه يومها.

واستقر بالعطف في أواخر حياته سنة 1987 وتزوج بها بعد وفاة زوجتيه بالسيّدة حمودين عائشة بنت صالح، ممضيا جل وقته بين تلاوة القرآن وقراءة الكتب الدينية. وكانت وفاته فجر يوم 28 سبتمبر 1992 بالعطف حيث دفن في مقبرة الشيخ بالحاج.



السّيد: سعيد الحاج صالح بن الحاج أمحمد "قبّاض"

1909 - 1994

كان من الخوافي التي تعطى القوة للقوادم، اسما على مسمّى صالح الأعمال ماضي العزائم، صريح النّصح، لا يخاف في الله لومة لائم، سخيّا جعل مالهُ مطية للمكارم.

- المدخـــل:

لقد كانت مطالع القرن العشرين منبتا لجيل التغيير والإصلاح الـــديني والاجتماعي في الوطن الجزائري عموما، وفي منطقة "ميزاب" خصوصـــا، إذ تجاوبت فيه الحركة الإصلاحية على يدي ثلة من العلماء في الشمال والجنوب، بعثوا روح اليقظة والحيوية في جسم الأمّة، فأخذت تتكشّف ذاتها للتعـــرّف على مقوّمات شخصيتها، وتتلمّس موقعها في موكـــب الحضـــارة البشـــرية الزاحفة، وذلك من خلال محاولتها الربط بين حلقـــات الزمـــان: ماضـــيها وحاضرها ومستقبلها.

وما أعسر المخاض لذلك المولود المبارك الذي تكتنفه يومئذ عوامل المسخ والتهجين التي يكرّسها الاستعمار الغاشم، وهو في أوج قوته وجبروته. ولكن يد الله الحانية قد زوّدته بأسباب المناعة والحصانة، فلم تنل منه جراثيم الوباء، ولم تحتوشه مكايد الأعداء. إنّها قدرة الله التي كفلت موسى في حضن فرعون وقومه ليكون لهم عدوّا وحزنا، ويمنّ به على المستضعفين ليصبحوا أئمة وارثين. وبفضل أولئك الرواد الأفذاذ من العلماء تنامت بذور النهضة الإصلاحية وتفتّحت براعمها عن ذلك الجيل الذي بدّد ظلمات الجهل بعد أن خيّمت طويلا على منابعه الصافية، إن في حلقات الدرس بين يدي علماء أجلاء، أو في بعثات يمّمت شطر الخضراء أو القرارة. وفي محضن البعثات ومجامع حلقات الدرس تتفتّق المواهب وتبرز العبقريات، فلا مناص للجيل المتعلّم إلاّ أن يتفاعل مع واقع عصره، ويحاول إصلاح الأوضاع وفق تصوّره لمقتضيات العصر في مجتمع يعاني من العزلة والتهيّب من كلّ ما هو جديد، مبالغة في الحفاظ على التقاليد والأعراف الموروثة، وهو يضفي عليها طابع القداسة الدينية، بينما هي لا تخلو من عادات وسلوكات بشرية تأصّلت على مرّ الزمن لتندرج في مفاهيم الدين، وتعطي لها إلزامية أحكامه.

وكم هو شاقّ وعسير السعي لتصحيح الذهنيات وتغيير السلوكات لدى أناس خدّرهم الجهل، وعضّ عليهم الدهر بنابه في واد غير ذي زرع، فاضطربت حياتهم الاجتماعية بعدم الاستقرار، يزيدها إعناتا ورهقا حكم عسكريّ استبداديّ يتبنّى سياسة "فرق تسد"، ويزجي رعاياه بالعصا الغليظة.

وفي تلكم الظلمات المطبقة تلتمع نجوم تشعّ بالأمل وتبشر بفجر النهضة المباركة، تستمدّ طاقتها من مؤسسات التعليم، وترتكز على آليات التحديث والعصرنة في توازن واعتدال، لا يغفل الماضي، ولا يستخفّه بريق الحاضر.

وبلدة العطف "تاجنينت" لم تبق في معزل عن تيار تلك النهضة المباركة، إذ قيّض الله لها في تلك الفترة العصيبة رجالا برزوا في سمائها نجوما لوامع، أحاطتهم أسرهم بهالة من الرعاية والتشجيع، ليتفرغوا إلى مهامّهم الأدبية والاجتماعية دونما إرهاق من تكاليف الحياة وضروراتها. وكانت أسرة "آل سعيد" من عشيرة "أولاد باكة" من تلك الأسر التي ساهمت وما تزال في بناء تلك النهضة ببلدة العطف متكاملة ومتآزرة مع الأسر الماجدة الأخرى التي ترجمنا لأبنائها البارزين ممن أدرجناهم في جيل النهضة والإصلاح.

01- في محضن الأسرة المجيدة:

يعتبر عمّنا المرحوم السيّد سعيد الحاج مسعود بن إبراهيم خلال أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، يعتبر ركيزة "آل سعيد" باعتباره شيخ العزابة في المسجد العتيق، ومن أبرز تلاميذ قطب الأئمة -رحمه الله-، بل كان خزينة أسراره مع زميله في الدراسة الشيخ المرحوم: بكلي الحاج عمر بن حمو. فقد أبليا مع شيخهما البلاء الحسن في كسر طابوهات التحجّر والانعزالية، بدفع الحركة الإصلاحية لتغطي كلّ قرى "وادي ميزاب"، بل ليمتدّ صداها إلى خارج الوطن في بلاط العثمانيين في "الأستانة"، وإلى مجامع العلماء في الحرمين الشريفين. ولنا أن نتصوّر حجم المسؤولية في القيام بهذه المهمّة الشاقة إذا وضعناها في إطارها الزمنيّ -أي في المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين-، يوم كان الاستعمار الفرنسيّ يضرب بجرانه في أرجاء صحرائنا الشاسعة من بوابتها في الأغواط وغرداية إلى مفاوز الهقار والطاسلي في أقصى الجنوب.

كان عمّنا سعيد الحاج مسعود مساندا من طرف أخويه سعيد الحاج أحمد وسعيد الحاج صالح، إذ كوّنوا ثالوثا مباركا متكاملا متضامنا في السرّاء والضرّاء، ومتقاسما تكاليف الحياة الأسرية بالعدل والإنصاف، خدمة للصالح

العامّ. فإذا كان عمنا الحاج مسعود قد استقرّ في بلده شيخا في المسجد العتيق، فإنّ أخويه الحاج أمحمد والحاج صالح قد حطّا رحالهما في بلدة الجلفة للكسب والارتزاق، حيث تكوّنت جماعة مباركة من تجار أبناء العطف لتصبح النـــواة الحيّة لبني ميزاب في تلك البلدة النّاشئة، وعلى رأس جماعتها عمّنا الحاج أمحمد فأصبح بشخصيته القوية الرئيس المحنّك والسيّد المطاع. وهكذا تهيّىء الأقدار موقع هذه الأسرة في موكب الأحداث التي تسوقها رياح التغـــيير رخـــاء أو عاصفة -أحيانا-، ويتنامى الشعور بالمسؤولية في هذه الأسر التي مكّنها الله من الريادة في مجال مّا من المجالات الإصلاحية، وتخشى الانتكاس والإحباط، فتدبّر أمرها بحزم لضمان تواصل الأجيال. وذلك ما فكّر فيه عمّنا الحـــاج أمحمـــد بإعداد خلف لأخيه الحاج مسعود، فمن لهذه المسؤولية التاريخية وقـــد أخـــذ الموت يهدّد ركائزها؟

لقد تعدّد أولاده الذكور وتفاوتت أعمارهم تفاوتا كـــبيرا لتفـــاوت زوجتيه في ذلك، وقد أنجبت له الأولى السيّدة الطّالب باحمد فافة بنت الحاج داود كلاًّ من محمد قزولة وبكير وإبراهيم، وأنجبت له الثانية الشابّة الســـيّدة: الحاج عيسى شيخة بنت الحاج صالح كلاّ من صالح وعمـــر. وإذا بالشـــيخ الوقور يعلّق آماله بولده البكر صالح وهو لا يدري ما تخبّئه الأقدار، ولا كيف ينتهي شوط ولده في هذا المسار، ولكنها النوايا الصادقة من والد حنون، يرجو الخير لبلده، وينتدب لذلك فلذة كبده.

02- ميلاده ونشأته الأولى:

أبصر الوليد نور الحياة خلال سنة **1909**م، وهو ثاني اثـــنين مـــن أولاد السيّدة: الحاج عيسى شيخة بنت الحاج صالح. وهم: بيّة، صالح، عمر، مريم. فقد حباه والده حبّا وحنانا، وهل من سعادة هي أغلى من مولود ذكر ترزقه زوجة شابة في حضن رجل شيخ، وضرّتها امرأة عجوز؟ فعند الذين جرّبـــوا

الخبر اليقين. لقد شرب الصبيّ من أمّه كأس الحبّ والحنان والـدّلال حتّـى الثمالة. فنشأ سويّ النفس ممتلىء الوفاض صحة ونضارة، وشاءت الأقدار أن تختطف يد المنون والده الحنون عمّنا الحاج أحمد سنة 1916م، فأصبح الولد مع إخوته يتامى يعانون من شظف العيش وتعب الحياة، وهم في كفالة عمّهـم سعيد الحاج صالح، وقد اضطربت أحواله التجارية بعد وفاة أخيـه الحـاج أحمد. والأمّ الرّؤوم تضحّي بشبابها لتدبّر شؤون أولادها الأيتـام وتغالـب صروف اللّيالي، أخذ الصبّي الصالح يتردّد على كتّاب القرية إلى جوار المسجد العتيق فحفظ سورا من القرآن، وتعلّم مبادىء القراءة والكتابة على الطريقـة التقليدية بين يدي شيخه المرحوم السيّد الحاج داود بـن بعزيـزى، ثمّ بـين مساعده المرحوم السيّد بكلي الحاج مسعود بن محمّد. ولكن العمّ الكفيل أبت همّته إلاّ أن تحقّق رغبة الوالد في تهيئة هذا الولد لمواصلة السير على نهج عمّـه الحاج مسعود، فبعثه إلى القرارة ليتزوّد بالعلم والمعرفة من معهد المرحوم الشيخ إبراهيم بن بكير حفّار. وقد تحوّل قطب العلم والمعرفة والإصلاح في "وادي ميزاب" بعد وفاة الشيخ اطفيّش سنة 1914م تحوّل من بني يزقن إلى القـرارة. وتمثل ذلك في معهدين متزامنين. معهد الشيخ الحاج عمر بن يحيى الذي بـرز فيه وتولّى أمره من بعده تلميذه المرحوم الشيخ بيوض الحاج إبراهيم بن عمر، ومعهد الشيخ إبراهيم بن بكير حفّار. ولكلّ من المعهدين بعثات مـن "وادي ميزاب". وكان فيهما لأبناء العطفاء مقام مرموق، تكوّنت منـهم طلائـع النهضة الإصلاحية المباركة، وكان الفتى ضمن تلك المجموعة، ولو لم يسـعفه الحظ بإكمال عدّته المعرفية كما ينبغي، إذ لم يمكث هناك إلاّ سنتين: من 1922 إلى 1924م. ولكنّه استطاع في تلك الفترة الوجيزة أن يقطع حـاجز الأمّيـة المقـيتة التي ضربت أطنابها في "وادي ميزاب" لعدّة قرون. وبما أنّه كان من التلاميذ الصغار، لم يحظ بحضور حلقة الشيخ إبراهيم بن بكير، بل تعلّم بـين

يدي الشيخ المساعد المرحوم السيّد: بوقرطاس عمر بن الحاج قاسم، وكان من زملائه في الحلقة كلّ من المرحومين: عمر وصالح ابني الحاج محمد بن صالح، وعبد العزيز الحاج محمد بن صالح من أبناء بلدته.

وفي حضن البعثات العلمية في أوائل القرن العشرين، إن بتونس الخضراء أو بالقرارة الغرّاء، تكوّنت الأفواج الأولى من أبناء "وادي ميزاب" الذين انبثّوا في مختلف قراه نجوما لوامع، تشق سجف الظلام، وتزيح عن جسم المجتمع ما خيّم عليه من ركام مميت، أفرزه الجهل، ورسخته الخرافات والأوهام، إذ لا يقتصر التكوين في البعثات على الجانب المعرفي بل تجعل للجانب النفسيّ والخلقي الركيزة الثانية في إعداد الأجيال السويّة المتوازنة في قدراتها الصحية والعقلية والنفسية، وتكشف الأيام عن مدى فعالية تلك التربية في نفس الفتى، وإن لم ينل منها إلاّ الحظ اليسير، ولكنها كانت كافية لتجعل منه الرجل الصالح والمسيّر القدير.

03- في معترك الحياة:

يقول أمير الشّعراء أحمد شوقي:

ليس اليتيم من انتهى أبواه من ... همّ الحياة وخلّفاه ذليلا
فأصاب بالدنيا الحكيمة منهما ... وبحسن تربية الزمان بديلا
إنّ اليتيم هو الذي تلقى له ... أمّا تخلّت أو أبا مشغولا

وهل كان رسول الله محمّد ﷺ إلاّ يتيما، نشأ معتمدا على نفسه في توفير ضرورات حياته، حتّى وهو في كفالة عمّه "أبي طالب"؟

نعم!، إنّها حكمة الله تعالى في إعداد صنوف من خلقه يتولّون عظائم الأمور، لا يقوى عليها أبناء المنعمّين المترفين.

لقد أصاب فتانا بتربية الزمان بديلا من والده الذي ما تزال رهبته مستكنّة في نفوس أبناء بلدته العاملين في بلدة "الجلفة"، وتشاء الأقدار أن

تسوق الفتى إلى نفس البلد، أجيرا بسيطا ليعمل في متجر السيّد: باعلي محمد بن باحمد العياط، إذ فارق أسرته سنة **1925**م ليضرب في أرض الله مرتزقا كسوبا خلفا لوالده في توفير أدنى كفاف من العيش لأسرته، وقد تركها عائلها كزغب القطا تحت جناح أمّها. عمل هنالك لمدة أربع سنوات، اكتسب فيها بعض المهارات البسيطة لما تقتضيه تجارة بدائية هي على مستوى زبائنها من البدو الرحّل يومئذ في منطقة السهوب. غير أنّ هناك من أبناء العطفاء من اشتهر بحذاقته في بيع القماش والحرائر، وذاع صيته في أعيان ذلك البلد وحكامه بحصافة الرأي وحلو الحديث، كالسيّد المرحوم بوصوفة عمر. وفي شهرة هذا المتجر في أوساط "أولاد نائل" يقول القوّال الشّعبي:

يا حسرة على حوانت الجلفة ... وبوقزولة عنهم قادر

يا حسرة عليك يا بوصوفة ... واش إيحبْ القتّه للنادر

لقد تهيأت للفتى فرص التطوّر ومواجهة المسؤولية، إذ لم يكد يشمّر عن ساعد الجدّ تحت مسؤولية أخيه الأكبر، وإلى جانبه ابن عمته المرحوم سعيد بالحاج بن صالح -كعباش- الذي سبقه في العمل هناك، حتّى فوجيء الجميع بوفاة صاحب المتجر السّيد "قزولة محمد" غرقا في البحر، خلال سنة **1932**م، وذلك بعد الهزات الاقتصادية التي عرفها العالم سنة **1930**م. فبقي الطاقم الأجير بدون ربّان خبير يدبّر مسار السفينة وسط الأمواج العاتية، فقد تراكمت الديون وكسدت التجارة وهي كالعذراء المسلولة، تفتقر إلى الدماء الحيّة، ولكنّها تنفث كلما لهثت دما، كما وصفها شاعر المهجر "إيليا أبو ماضي"، فلا بد لكبار الجماعة هناك من تدبير أمر ذلك المتجر الضخم، وكان ضمن أعيان الجماعة العمّ المرحوم السيّد: سعيد الحاج صالح بن إبراهيم ممثلا للجماعة ولأسرة "آل سعيد"، وكذا السيّد كعبوش مسعود من مليكة، ممثلا للجماعة، كما أوفدت العشيرة من العطف كلا من المرحومين: خير النّاس

بكير بن سليمان، وعيسى الحاج محمد بن إبراهيم، فتمّ رأيهم على تكوين شركة تجمع ذلك الطاقم الشاب، وتحمّله مسؤولية تسيير المتجر، وتبرئة ذمة صاحبه الهالك. وهكذا أصبح الطاقم الشريك يضمّ كلاّ من الإخوة: إبراهيم وصالح وعمر، أبناء سعيد الحاج أمحمد (قباض) وابني عمتهم بالحاج وامحمد، بني صالح -كعباش-، باسم "كعباش الحاج وشركائه". وهكذا تطعّم هذا المتجر الضخم بدم جديد سيما، وبينهم من يتقن اللّغة الفرنسية قراءة وكتابة. وبعد أن استعاد الاقتصاد العالميّ صحته وعافيته، تمكّن الشركاء من تطوير تجارتهم وتصفية ديونها. فرأوا أنّ الجمود على الأساليب التقليدية الموروثة عمن سبقهم لا يقنع طموحهم وبالتالي لا يمكّنهم من تغطية نفقاتهم الضرورية التي توسّعت بنموّ أسرهم وتفرّعها. فبدأوا بتطوير حركتهم بانتهاج الأساليب العصرية في التسويق والإشهار وتنويع فروع البضائع بالحصول على اعتماد الشركات الكبرى مثل "فليبس" و"جازوليب" وغيرها. فأصبحت الشركة تحمل اسم "أروقة الجنوب" من سنة 1937م، كان فيها الفتى "صالح" الفرس المحلّى بين شركائه تسييرا وتدبيرا في صرامة وانضباط، وجدّية ونشاط في توسيع معاملات الشركة لتغطي كلّ الشرائح الاجتماعية من حكّام ومحكومين في بلدة "الجلفة"، فسارت بتوفيق الله سيرا حثيثا في جوّ من التشاور والتآزر والتعاون، و لم تنل منها هزّات ومثبّطات الحرب العالمية الثانية، ولا تحدّيات الحرب التحريرية. بل عرف الشركاء كيف يزجون السفين في تلك الأمواج العاتية من الظلم والجبروت الاستعماري، وهم يمدّون جيش التحرير بكلّ متطلباته من أنواع السلع والبضائع، وكان الفتى يمسك -وحده- بالخيوط السرّية لذلك حتّى لا يفتضح أمرهم، وكان الله قد سلّم -وله الفضل والمنّة-.

وبعد فجر الاستقلال انتقلت الشركة إلى العاصمة لتوسّع من حركتها في بيع الجملة، واستقرّ مستودعها في نهج "محمد بلوزداد"، وأصبحت تحمل اسم "الأدوات الحديدية للجنوب"، وهي ما تزال تقوم بدورها ناجحة موفقة

على يد الأولاد والأحفاد، بعد أن تسلّموا بأمانة مقاليد الأمور من يد الآباء والأجداد، وقد انتقل مركزها التجاريّ إلى الدّار البيضاء.

04- بناء العشّ العائليّ:

تجاوز الفتى عشرين عاما، وهو في غمرة النشاط التجاريّ بعيدا عن محضن أسرته، والأمّ الأرملة ترى في ولدها البكر قرّة عينها، يعوّض العاهل المفقود في تدبير أمر الأسرة، وهي تتمنى أن يتقلّد وسام الرجولة باقترانه بشريكة حياته. ومن عادات البلد يومئذ أن لا يتجاوز الشباب ذلك السنّ للزواج. وأغلبهم يكونون قد بدأوا العمل في سنّ مبكّر للتكفّل بمؤونة زواجهم، سواء عملوا في متاجر آبائهم أو في متاجر أبناء جلدتهم، إن كانوا أيتاما فقراء. فقد جمع فتانا من كدّ يمينه ما يكون قد جمعه من أموال في خمس سنوات من العمل الدؤوب، وتحت كفالة عمّه الحاج صالح بن بأمّ أولاده الأولى السيّدة: بابا عدون عائشة بنت محمد سنة **1930**م. وككلّ شابّ طاهر الذيل، فقد وجد في زوجه السكن النفسي والاطمئنان القلبي في ظلال المودّة والرحمة، وكان مثالا للزوج المحبّ الغيور، الشاعر بمسؤوليته الكاملة زوجا وأبا وكافل أسرة تنامى أفرادها، وبعد أن تزوج أخوه عمر وجمعهما بيت واحد، عرف الفتى كيف يكون قوّاما على البيت، يوازن بين واجبات الزوجية وحقوق الأمّ التي ما تزال على قسط من الفتوة المكتهلة، كما كان مثالا لرعاية أولاده، سيّما إذا استقرّ به المقام في البلدة، لا يبخل بمساعدة زوجته حتّى في ما يعتبر من خصوصية عملها كأمّ، لأنها كانت -بفضل الله- ولودا كثورا، إذ أنجبت له إحدى عشرة بنتا، وثلاثة عشر ولدا منهم أتوام أربع مرّات، غير أنّ كثيرا منهم اخترمته يد المنون وبقي منهم على قيد الحياة: محمّد وإبراهيم وسليمان وخديجة ولالة وشيخة وفافة وسعيدة. وبعد أن ضاقت الدار الموروثة على أهلها استقلّ الإخوان صالح وعمر، كلّ بداره ولكنّهما

متجاوران. وعندما اشترى الأب الصّالح قطعة أرض في حيّ: "باعلي وعمرو" في أواسط الخمسينيات ابتنى عليها لأسرته دارا فسيحة يمتدّ أمامها جنان باسق الأشجار والنخيل، ثمّ أضاف على نفس الأرض على طرفها السفلي داريين أخريين في أوائل السّتينيات، حتّى لكأنّ القدر يسوقه ليكون مثل والده في اتخاذ ضرّة لأم أولاده الأولى، والمثل يقول: "ومن يشابه أبه فما ظلم".

كانت الإمكانيات المادية التي توفرت لديه -بفضل الله- كانت تغريه بتلك المغامرة التي يدرك ما ينتظره فيها من تحدّيات الأعراف والتقاليد يومئذ، فالموت أهون على المرأة العطفاوية، من أن يتخذ لها زوجها ضرّة، ولكن الشرع الحنيف لم يوصد الباب و لم يطلق القيد. وقد نصح الله بواحدة إذا خاف الزوج قلّة العدل. ولكن أنّى لنا -أيها الإخوة- بعدل رسول الله في معاملة الأزواج وهو المتوسّل إلى ربّه قائلا: "اللّهمّ إنّ هذا قسمي في ما أملك فلا تؤاخذني في ما تملك ولا أملك".

لقد طغت داعية الفتى في تنويع اللّباس، وأصبح لا يبالي بما يتحدث عنه الناس، وبعد الاختيار والمشاورة بنى بزوجه الثانية السيّدة: مجاهد خديجة بنت عبد الوهاب القرارية. وذلك في سنة 1964م. فإذا كان المثل الشعبيّ يقول: "كل جديد ليهْ لذة، والبالي لا تفرّط فيهْ"، فأي سفين لا يتعرّض لموج البحر هدوءا أو هيجانا، وحركة الحياة وتقلّباتها لا تمادن أحدا مهما أوتي من حصافة العقل ورزانة النفس، فمن الطبيعيّ أن يواجه الزوج الكهل تلك الأحوال من ريحان الورود ووخز الشوك، ولكنّه عرف كيف يدبّر أمور أسرته وأولاده، فلم يحطّم باقة الورد، و لم يعطّل سيره الشوك حتّى أنجبت له زوجه الثانية كلاّ من أولاده: الحاج أحمد وعبد الله وأفلح، وصفيّة وزكية. وكان -رحمه الله- متفتحا لمقتضيات العصر في تنسيق بيوته وتحديثها تجهيزا وتأثيثا، كما كان ينفق بسخاء على أهله ورفاقه بعد أن استقرّ به المقام في البلدة بعد الاستقلال الوطني. كما كان شديد الاعتناء بصحته توفيرا لوسائل الراحة في بيوته، أو

استجماما وتطبيبا في الحمامات المعدنية هنا وهناك. أو ارتحالا في كلّ صائفة إلى بلدة "الجلفة"، حيث يمتلك متجرًا ومقرًا لراحته، وحيث يطيب له المقام بعيدا عن قيظ الحرّ في بطن الصحراء. وهو يساهم بجدّ وإخلاص في تدبير أمور الجماعة هناك اتّباعا لمنهج والده الحاج أمحمد -رحمه الله-.

05- نشاطه الدينيّ والاجتماعيّ والثقافيّ:

لم يكن الفتى من أولئك الذين لا تهمّهم إلاّ مصلحتهم الشخصية يحبسون جهودهم في مجالاتها، ولا يبالون بمصلحة الجماعة مهما كانت الظروف والأحوال. بل كان بالغ الاهتمام بكلّ ما يستجدّ من أحداث، إن في المجال الخاصّ بجماعتنا، أو في المجال العامّ في المحيط الوطني. يترصّد الأخبار ويستنطق الوقائع والأحداث. ولا تعوزه في ذلك العلاقات الحميمة التي كان يتخذها مع سراة القوم بـ"الجلفة" حتّى في مواقع نفوذهم، إن مع بني عمومتهم من مختلف الأعراش، أو مع السلطات الحاكمة آنذاك، وفق ما تقتضيه أساليب المداراة والمجاملة، كما أصبح متجر الشركة مركزا وسطا بين العاصمة ووادي ميزاب، يعرّج عليه أغلب المسافرين من أبناء جماعتنا لمبيت أو مقيل، فيتناقشون ويتبادلون الأخبار، حتّى أشبع الفتى بالحسّ الاجتماعي والمدنيّ، مما أهّله للقيام بمهامّ عظمى في المجالات الدينية والاجتماعية والثقافية.

أ)- في المجال الدّيني:

لقد توفّرت فيه مؤهّلات مرضية ليلتحق رسميا بعضوية الحلقة بالمسجد العتيق في شهر أبريل 1947م. وكانت الحلقة تعاني من شيخوخة أغلب عناصرها وهم يعانون من تداعيات انفصام الحلقتين لمسجدي العتيق وأبي سالم بعد احتدام المواجهة بينهما سنة 1945م. الأمر الذي يقتضي الحماس والمتابعة للأحداث الجارية التي يلهبها التنافر والشحناء، فأصبح الفتى العزّاب خير سند لمن سبقوه في الحلقة، سيّما للمسؤول الأوّل فيها عمّنا المرحوم السيّد خير

النّاس طالب إبراهيم بن سليمان، والذي رزئت الحلقة بوفاته سنة 1948م بعد أن نقله الفتى إلى مدينة الجلفة للاستشفاء حيث عاجلته المنية ودفن في مقبرتها. وخلفه المرحوم السيّد: الحاج إسماعيل الحاج إبراهيم بن بكير في المسؤولية الأولى للحلقة بعد انتقاله من مسجد أبي سالم مغضوبا عليه. وكم صاحبهما الفتى إلى الاستجواب لدى الحاكم العسكريّ في غرداية، أو المقاضاة لدى المحكمة الشرعية الإباضية ببني يزقن. لحاها الله من مواقف تاريخية لم يحمدها العقلاء ولا يرضاها الشهم الأباة.

ولم يكن فتانا يستقر في البلد طويلا، إذ يتناوب مع شركائه في مسؤولية تسيير الشركة، وبحكم وظيفته الدينية تلك أصبح يتابع مسؤوليته في الإشراف على مصلّى الجماعة في "الجلفة" ربطا لأوامر التشاور والتعاون بين الإخوة التجار وعمارة لبيت الله سيّما في ليالي الجمع والمناسبات الدينية. وبعد ذلك أخذت فترة إقامته في البلد تطول نسبيا خلال الثورة التحريرية، وقد تطعّمت حلقة المسجد العتيق بعناصر جديدة خلال سنة 1958م، وانتهت -بعون الله- فترة التلاحي والمواجهة بين الحلقتين عند الاستقلال الوطني. وفي أواخر الستينيات أصبح التفكير متجها نحو تجديد بعض نشاطات المسجد، ويقتضي ذلك تحديث مرافقه وتوسيع رقعته، وحسبكم من مسجد ما يزال يحتفظ إلى ذلكم الوقت ببعض أجزائه التي مضت عليها قرون وقرون، فأصبحت أركانه تتآكل شيئا فشيئا، بحيث لا ينفع معها ترقيع ولا ترميم، وفي الحلقة شيوخ وشباب قد يصعب التواؤم بين أفكارهم لتنفيذ خطة التجديد، ولكن الله الغيور على حرماته قد شحذ العزائم وقارب بين الأفكار، فاتفقت كلمة الحلقة على التجديد الكليّ للمسجد ومرافقه، ولكن من لنا بالخبير الذي يعرف من أين يؤكل الكتف؟ ذلك لأنّ البناء القديم لم يكن على سطح مستو ترتكز عليه قواعد البناء، بل بناه الأجداد فوق صخور ضخمة تعلو وتنخفض، وبينها أخاديد جبلية تضيق وتتسع على طول المساحة التي تربّع عليها المسجد. تطلّب التفكير والتخطيط وقتا وجهدا غير يسير،

فيمن يكون المسؤول الخبير لإنجاز هذا المشروع الضخم؟ إنّه الفتى الصالح الذي اختارته اللّجنة المنبثقة عن الحلقة للاطلاع بتلك المهمة العظمى. و لم يكن وكيل المسجد يومئذ عمنا المرحوم السيّد: الحاج إبراهيم الحاج محمد بن حمو (بوكابوس) ليستطيع القيام بها نظرا لعجزه وشيخوخته. فتعيّن الفتى الصالح وكيلا مساعدا أسندت إليه مهمّة الإنجاز، لتنطلق الورشة في أواخر الخمسينيات، وحوله لجنة المال والعمل المنبثقة عن الحلقة. وهي تتكوّن من الإخوة السّادة: بكلي محمد بن الحاج محمد، الكاتب سعيد محمد، الشيخ الحاج أيوب الحاج إبراهيم ڤرادي، بكلي بابه الحاج أحمد بن حمو، بابا عمي الحاج أحمد بن الحاج موسى، سماوي عيسى، بابا عمي إبراهيم.

لم يتهيأ يومئذ مقاول للبناء من أبناء البلد تتوفّر لديه الإمكانيات التي يستطيع بها إنجاز المشروع، فاضطررنا إلى عقد الصفقة مع مقاول خبير كان الفتى قد خبره ميدانيا في تجديد متجر الشركة بـ"الجلفة"، وهو الأخ السّيد: عبد القادر بن الفرد من أولاد "نائل". وهكذا استقرّ المقاول في البلد بأسرته مع أربعين عاملا من أبناء عمومته لينطلق المشروع وتدبّ بذلك حركة غير عادية في البلد عملا بالسواعد المفتولة وحملات تطوعية لإزاحة الأنقاض ونقل المواد ودروس حَماسية لبذل الجهد والمال كان أعضاء اللّجنة فيها لا ينقطعون عن الإشراف والتنسيق في نهار أو ليل.

وكان من سماحة شركاء الفتى وكرمهم وتقديرهم لحرمة بيت الله أن أذنوا لمسؤولهم في الشركة بالإقامة في البلد ليقوم بمهمّته مع ضمان حقوقه كاملة في الشركة، ولعلّ هذه المكرمة منهم كانت مقبولة عند الله، فنتج عن ذلك نجاح الشركة واستمراريتها حتّى اليوم: «**وإنّما الأعمال بالنّيات، ولكلّ امرئ ما نوى**» صدق رسول الله. فأصبحت دار الفتى مركزا لجلسات اللّجنة في كلّ يوم إلى ما بعد منتصف اللّيل، للمتابعة وتوفير الإمكانيات.

وقد تطلّب إنجاز المشروع ما يزيد عن سنتين، حتّى تمّ تدشينه -بفضل الله- بحضور المشايخ وعلى رأسهم الشيخ الإمام بيوض الحاج إبراهيم بن عمر في يوم مشهود حضره أبناء البلد حامدين الله على التوفيق والنجاح. وتمّ ذلك لسنة: 1961م.

عرف المسجد بعد ذلك نقلة نوعية إذ رافق تجديد هيكله الماديّ تجديدا في نشاطه الاجتماعي والأداء الروحيّ ذِكرا وصلاة وعبادة ومنبرا حيّا بالوعظ والإرشاد والتوجيه أقبل عليه الجمهور إقبالا عظيما سيّما في المواسم والأعياد وصلوات الجمع بدءا من سنة 1971م مما دعا الحلقة إلى توسعة أرجاء مصلاّه شرقا وغربا تحت إشراف نفس الوكيل الذي أخذ يعاني من وهن الشيخوخة والعجز، ولكنّه وجد من ابن أخيه السيّد سعيد الحاج عبد الرحمان بن إبراهيم مساعدا وفيّا يشدّ أزره في المتابعة والإشراف، وهو الخبير المحنّك في تقنيات البناء.

ولم يقتصر نشاط اللّجنة تحت إشراف الفتى على إنجاز مشروع المسجد، بل امتدت يد التجديد والتنظيم إلى أوقاف المسجد، من قطع أرض كانت مهملة، أو نخيل متفرق في مختلف البساتين، كان يتكلف جهدا وعناء لصرم تموره وجمعها في كلّ سنة. فاتجه الرأي إلى إنشاء حائط يتّسع لعدد كبير من النخيل نختار نوعيته من صنف "دقلة نور" و"الغرس". نجلب فسائله من "وارجلان" و"وداي ريغ" ونغرسه بكيفية منتظمة عصرية تسمح لحركة الآليات بينها، على أن نبيع للمواطنين تلك القطع الضائعة من الأرض وذلك النخيل المتفرق هنا وهناك. فاتجهت عزيمة اللجنة إلى تحقيق ذلك المشروع، وقد تطلب هو الآخر جهدا وأموالا وفيرة لتهيئة وسائل الريّ، وشق طبقة الأرض القاسية في ما نسمّيه بـ"المقسم" وذلك عند أجنّة "الحاج أيوب" بـ"أولاوال". ونفس العملية تمّت في "ضاية الجاوة" في الجنان الذي تبرّع به للمسجد المرحوم السيّد: بابا عدون الحاج مسعود بن رمضان. فأصبح للمسجد حائطان كبيران يضمّان مئات النخيل

الذي يوفّر للمسجد ومصلياته القسط اللازم من التمور، توزع على مستحقيها في المناسبات المألوفة.

ولفرط غيرته على صلاح المجتمع، كان -رحمه الله- شديد الحساسية لكلّ منكر يخلّ بالفضيلة، أو انحراف لدى الشباب يدنّس سمعة المنطقة في التزام أحكام الشريعة وشهرتها العالمية بتقاليدها وأعرافها.

وبحكم رتبته في سلّم الحلقة، فقد كان شديد الحرص على تنظيم جلساتها وتسجيل مداولاتها، والقيام على مسؤوليتها الاجتماعية بكلّ حزم وصرامة، سيّما تطبيق البراءة الشخصية ضدّ العصاة المتمردين، وكان يودّ أن تكون حصص الوعظ يومية لا تنقطع. حتّى كان الإمام المرحوم السيّد: بابا عمي الحاج أحمد وأنا من بعده، نتضايق -أحيانا- من شدّة إحراجه لنا وضغوطه علينا، سيّما بعد تطبيق صلاة الجمعة.

وتيسيرا لمهمّة وكالته على مصالح المسجد فقد اتخذ له مكتبا خاصّا في "بازار أولاد باكة" بساحة السوق القديمة يفتحه بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس وكلّما دعت الضرورة إلى ذلك خلال النهار، تيسيرا على المواطنين لأداء التزاماتهم نحو المسجد: تبرعات وصدقات وأوقافا، وهو ينسّق كلّ ذلك في سجلات خاصّة، ويتخذ لمختلف الأسر في البلدة كشوفا يثبت عليها الأداءات الشهرية أو السنوية. ولا يزال هذا المكتب يؤدي دوره على يد الوكلاء الخلفاء، جازاهم الله عن بيوته خير الجزاء.

أمّا في المجال العامّ لوادي ميزاب فقد دأب -رحمه الله- على حضور جلسات "عمّي سعيد"، وأسهم برأيه في توطيد دعائمه واطراد سيره على ما تعرّض إليه من هزّات، سيّما عند استبدال ناظر الأوقاف المرحوم "حواش حاج داود" بالأستاذ "أبي القاسم عبد الحميد".

ب)- في المجال الاجتماعيّ:

لا ينفكّ نشاطه الديني عن نشاطه الاجتماعي، إذ هما متلازمان، وهل أحكام الشريعة الإسلامية إلاّ تدبير للشؤون الاجتماعية في النشاط الإنساني؟ فهو -وإن طالت مبرّاته كثيرا من هيئات المجتمع، سيّما الطبقة المحرومة- فقد تركزت مجهوداته في هذا المجال على الرفع من مستوى عشيرته على قاعدة: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء:214]. وابدأ بمن تعول، علما بأنّ النشاط العشائريّ في مجال التجميع لأبناء العشيرة وتأطيرهم كان شبه منعدم في النصف الأوّل من القرن الماضي. وقد استهدفت الحركة الإصلاحية مؤسسة "العشيرة" تستنهضها وتحرّكها وتوظفها على اعتبار أنّها آلة فعّالة في التغيير الاجتماعي، وكانت عشائر البلدة تتفاوت في حسّها الإصلاحي والاجتماعي، فلا مناص من بعض المواجهات بين الأجيال داخل كلّ عشيرة لتفعيل طاقاتها لصالح التغيير المنشود. فقد تحمّل الفتى إلى جانب سراة عشيرته القسط الأوفر من الجهد البدني والعقلي والماليّ كانت نتائجه محمودة -بفضل الله- قد سجّلها التاريخ وشهدت به الأجيال. وكم امتدّ برّه وإحسانه إلى كثير من الأسر الضعيفة يؤاسيها ويحلّ مشكلاتها سرّا أو علانية ابتغاء ما عند الله، إذ حباه الله من فضله سعة في الرّزق وكفاه شرّ البخل والشح.

ج)- في المجال الثقافي:

لم يكن للثقافة وجود بالمفهوم العصريّ في منطقتنا، إلاّ ما ورثته من بعض الفنون الفولكلورية، أو الحرف اليدوية البسيطة، أو ما يتمثل في الفن الأصيل للإعمار المحلّي. ومع بزوغ النهضة الإصلاحية وانتشار حركة التعليم أخذت تتبلور الفكرة الثقافية، وتأخذ مكانتها وبُعدها في المجتمع. والفتى -وإن لم يكن من الضالعين في المعرفة- كما تحدثنا عن ظروفه في أوّل نشأته، فقد تولّد فيه الشعور بالنّقص في هذا المجال فآل على نفسه أن يتلافى ذلك النقص

في أبنائه وأبناء عشيرته وبلدته بصفة عامّة. فما إن تأسّست "جمعية النهضة" في البلد لسنة 1945م حتّى أصبح من المريدين لها، يساهم فيها هو وشركاؤه بمجهودهم المالي. وبحكم زمالته لرئيس "جمعية النهضة" المرحوم الشيخ ابن يوسف الحاج سليمان بن الحاج داود، وزمالته لكثير من مؤسّسي الجمعية، فقد تهيّأ لأن يصبح عضوا في مجلسها الإداريّ عندما تجدّد لسنة 1951م.

وهكذا أصبح في مركز القرار لهذه الجمعية الفتية، وعرف كثيرا من لبياقها يومئذ، سيّما تقصيرها في إعداد هياكل حديثة للتعليم، وهو أولى مهماقها، إذ لم تنجز ذلك إلاّ في سنة 1955م عند بناء الأقسام الخمسة الأولى من مدرسة النهضة. وعلى انشغاله الكبير بتسيير أمور التجارة فقد كان -رحمه الله- من الأعضاء الأوفياء الجادّين في رفع مستوى الجمعية للقيام بدورها كاملا، سيّما ما يكفل راحة التلاميذ والمعلّمين، وكم تألّم وتحسّر لشكوى المعلّمين، وعلى رأسهم مدير المدرسة الشيخ قرادي -رحمه الله-، وهم لا يتصلون بأجورهم الزهيدة عند رأس الشهر، فيضطرّون إلى الاستدانة لتوفير ضرورات أسرهم، ذلك لأنّ فراغا مهولا بقي في أمانة مال الجمعية سنة 1954م، بعد وفاة أمين صندوقها المرحوم السيّد الحاج عيسى الحاج إبراهيم بن الحاج محمد. فيضطرّ الشيخ القرادي إلى التجوّل في غير أوقات العطلة -أحيانا-، وكان يجد من عمنا الحاج صالح عونا ومساعدا، سيّما عندما تحمّل مسؤولية شركة "مواصلات الصّحراء" في برج بوعريريج إلى جانب المرحوم السّيد: بابا عمي الحاج إبراهيم بن الحاج محمد سنة 1954م. وكان كلاهما خير عون للمتجوّل مرافقة له على سيارة الشركة أو غيرها. وما زلت يومئذ طالبا في تونس الخضراء، وهو الذي دبّر من قبل شؤوني وشؤون أسرتي، لأتفرغ إلى طلب العلم في معهد القرارة بدءا من سنة 1945م ونهاية في تونس لسنة 1954م. وقد تحمّل معه شركاؤه مؤونة نفقاتي -جازاهم الله عنّا خيرا-، وتقبّل منهم تلك المكرمة التي ما قصدوا بها إلاّ خدمة البلد ودفع الحركة الإصلاحية إلى الأمام.

وبعد أن انتظم التعليم في المدرسة الجديدة، وقد انضممت إلى الطاقم التربويّ سنة 1954م، كما انضمّ إليه تباعا كلّ من الإخوة: بكلي بابة الحاج أحمد والأخ السيّد خير النّاس الحاج عيسى، وأخوه الحاج مسعود، ثمّ الطّالب الحاج إسماعيل الحاج يحيى، وتوالى بعدهم الأساتذة والمعلّمون إلى نهاية الخمسينيات. وقد استقرّ عمّنا الحاج صالح في البلد لإنجاز مشروع المسجد -كما تقدّم- فأصبح محلّ ثقتنا ومستودع أسرارنا، بل ومرجعنا في المشورة والتدبير لقضايا الجمعية والمجتمع. إذ كثيرا ما تواجهنا مشاكل مع رئيس الجمعية نفسه فيتكفل بحلّها في حكمة وأناة، أو مع حلقة العزابة، ونحن ما نزال خارج إطارها لا نملك الشرعية لقراراتنا، إذ ما تعلّق الأمر بإصلاح أو تغيير، على الرغم ممّا كان لنا من الوزن الاجتماعي لدى الجماهير.

وهكذا وبالتدريج ومع إنهاء تجديد المسجد في مطلع السّتينيات، وتباشير الاستقلال الوطني، أصبح عمنا الحاج صالح في قمّة المسؤولية في المسجد وفي الجمعية، ونحن من حوله أعضاء وأعوان، وقد تسوء العلاقة بيننا لخلاف في رأي أو في موقف ما، ولكنّنا ما قطعنا حبل التواصل بيننا قطّ، سيّما في ما يتعلق بالمصالح العليا للبلد أو للوطن.

وفي مطلع الثمانينات وقد أدركته الشيخوخة، و لم يتوان عن التردّد إلى مكتب المسجد، لم تشأ همّته أن يتخلّى كلية عن مهامّه الاجتماعية، فخلفه في تسيير شؤون المسجد كلّ من الأخوين: سماوي الحاج عيسى بن إبراهيم، وسعيد الحاج عبد الرحمان بن حاج إبراهيم بقرار من مجلس العزابة.

و لم يقصر اهتمامه على شؤون البلد، بل كان -رحمه الله- بالغ الاهتمام بالشؤون العامّة للمنطقة والوطن، يتابع الأحداث ويدلي برأيه فيها، إن مع رفاقه من العزابة والأساتذة، أو مع لجنة قدماء الإصلاح وعلى رأسها الشيخ عدون -حفظه الله-، وقد اتخذت من مسكنه مركزا لاجتماعاتها كلما تقرّر

ذلك في فترات متقطعة، ورجا في وصية لأولاده أن تبقى داره كذلك بعد وفاته، ولكن الوصايا قليلا ما ينفذها الخلف اليوم إمّا عجزا أو تقصيرا. كما كان له إسهام كبير في لجنة المساعي الحميدة لمجلس "باعبد الرحمان الكرتي".

06- الخاتمة الحسنى:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[الزمر:30]. هكذا يخاطب الله رسوله بسنّته التي لا تتخلّف: سنّة الموت والحياة في الخلق، وفق مشيئته تعالى في تقدير الآجال والحظوظ.

ولاشك أنّ عمّنا الحاج صالح -وهو في فترة عجزه وشيخوخته- كان يحمل بين جنبيه نفسا مطمئنة بتوفيق الله له إلى أداء واجبه الديني والعائلي والاجتماعي كاملا غير منقوص، مستشرفا ما عند الله من حسن الخاتمة وجميل العاقبة. وقد تهيّأ له من الزاد الروحيّ -بعون الله- ما جعله مستعدّا للرحلة الأبدية في صباح أو مساء، حتّى دنت تلك الساعة الرهيبة التي جعلها الله تعالى سببا لأفول نجمه بعد إشراف وسطوع دام لأكثر من ثمانين سنة، إذ انزلقت رجله أمام مكتب الاستقبال لترل "ابن زيان" في "زلفانة" وهو يحاول ضرب موعد لاكتراء سكن هناك يقضي فيه فترة استجمام وراحة كعادته، ولكن القدر كان يعدّ له مسكنا للراحة الأبدية إلى جوار الأنبياء والصّديقين والشهداء والصّالحين، إذ نقل بعد إصابته تلك إلى مستشفى غرداية، ثم إلى مستشفى "وارجلان". حيث امتدّ على سرير المرض، وقد ارتفعت نسبة السكر في دمه -وكان يعاني به من قبل- فبقي شبه مغمى عليه.

ثمّ جعل الله ذلك سببا لوفاته ليوم 26 ذو القعدة 1414هـ/ 07 ماي 1994م، نقل جثمانه الطاهر إلى مسقط رأسه، حيث تمت مراسيم جنازته في مصلى الشيخ "بايوب وقاسم" حضرها جمع غفير من أبناء البلد، ومن هيئات العزابة في "وادي ميزاب" وذلك ليوم الأحد 27 ذو القعدة 1414/

08 ماي 1994م. وقد أبّنته بخطاب مؤثر يليق بمقامه وقدره، ثمّ أودعناه مثواه الأخير إلى جوار آبائه وأجداده في مقبرة "الشيخ بابا حمو".

وهكذا تنتهي حياة رجل من جيل الإصلاح والتغيير في بلدة العطف. وقد لحق -إن شاء الله- بالصّالحين، وجعل الله له لسان صدق في الآخرين.

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذّكر للإنسان عمر ثان

تغمّد الله فقيدنا برحماته، وأسكنه فسيح جنانه، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

بالعطف: يوم الاثنين 22 محرم 1422هـ / 16 أبريل 2001م



السيّد: طالب باحمد الحاج عيسى بن إسماعيل
1916-1995

هو من مواليد العطف خلال 1916م من أبوين كريمين السيّد: طالب باحمد إسماعيل بن إبراهيم والسيّدة: بكلي مسعودة بنت محمد.

نشأ في أحضان والديه بالقرية وتلق مبادئ اللغة العربية وحفظ سور من القرآن في كتاب المسجد العتيق على يد المرحوم السيد بكلي الحاج مسعود بن محمد. كما بلغ مستوى الشهادة الابتدائية في المدرسة الفرنسية بالقرية وفي سنة 1929م سافر إلى عين الفكرون من ولاية "أم البواقي" ليلحق بمتجر والده وعمه المرحوم طالب باحمد محمد بن إبراهيم. وكان له تعاون وتنسيق مع أبناء عمّه من آل طالب باحمد الذين ورثوا ضيعة وأراضي زراعية شاسعة في سهل "سيقوس" ذلك المكان الذي قدر الله أن يصبح مركزا هامّا للثورة في الشرق الجزائري، وحيث استشهد الشهيد البطل طالب باحمد يحي بن عمر سنة 1958م فوري جثمانه الطاهر في "مقبرة سيقوس للشهداء".

وفي معترك الثورة التحريرية من سنة 1959م عاد المرحوم طالب باحمد عيسى بن إسماعيل ليستقرّ بغرداية في تجارة بالشراكة مع المرحوم رمضان بن الحاج صالح، والتي استمرت إلى سنة 1992م وبعدها استقل بتجارته الخاصة.

أصبح المرحوم طالب باحمد عيسى عضوا ناشطا في جماعة الأعيان ببلدته وهو يتولّى إدارة مجلس عشيرته "آل مخارج" في جدّ وإخلاص. والتحق بإدارة "جمعية النهضة" في سنة 1968م فكان مثالا للجدّ والاهتمام بشؤون بلدته مشهورا له بالحكمة والرزانة ولطافة المعشر.

أصيب بسكتة قلبية فوافاه أجله ليوم 02 سبتمبر 1995م فدفن جثمانه في مقبرة آبائه وأجداده رحمه الله وأكرم مثواه.

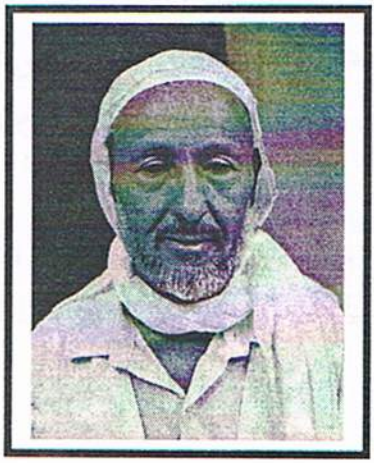


السيّد: بابا عدون الحاج إبراهيم بن عيسى
1910 - 1999

من مواليد العطفاء خلال سنة 1910م لأبوين كريمين: السيّد: بابا عدون عيسى بن الحاج إبراهيم والسيّدة: بهون سعيدة بنت صالح، والتي تركته صغيرا، وقد انتقل والده إلى وارجلان للكسب حيث تزوج وأنجب أولادا ذكورا وإناثا، وانتقل معه ولده الصغير لم يحظ بوقت طويل لتعلّم القراءة والكتابة وحفظ قسط من القرآن في بلده، فحظي بالالتحاق بمعهد الشيخ إبراهيم حفّار بالقرارة، ولكن لفترة قصيرة، إذ اضطر للسفر مبكّرا إلى العمل في مدن الشمال، فحطّ رحاله في قسنطينة ليعمل أجيرا بسيطا عند صهره السيّد بوبكر محمد بن عمر في رحبة الصوف وإذ كان ذكيا جريئا فقد اكتسب في هذا المتجر خبرة واسعة بحكم احتكاكه بكبار العمال معه أمثال الشيخ ابن يوسف سليمان ومفدي زكرياء، والشيخ بابا عمي الحاج أحمد بن حاج موسى يوم كان معلّما بمدرسة الهدى هناك، ولمدة سبع عشرة سنة من عمله في شرق البلاد تقلّب خلالها ما بين قسنطينة وعين مليلة وعزابة والعالمة

أجيرا بسيطا، وبدءا من 1939م جرّب تجارة التجوال مستقلا، ثمّ أسّس متجره الأوّل بمسعد خلال 1944م ولكنّها لم ترض طموحاته فعاد إلى قسنطينة حيث أسّس متجره خلال 1947م ثمّ مستودعا لبيع الجملة بالشراكة مع الأخ باباعدون أحمد بن محمّد وفي 1967م انتقل إلى غرداية في تجارة مع أولاده، وبذلك استقر به المقام في مسقط رأسه، وقد لعب دورا هامّا في جماعتنا بقسنطينة وفرض بجراءته كلمة الإصلاح في جوّ يغلب عليه الطابع التقليدي المتزمت وفي بلده استمرّ في نشاطه الاجتماعي تدبيرا وإصلاحا بين الناس في حزم وجرأة وانضم إلى إدارة "جمعية النهضة" ليشدّ من أزرها، سيّما قبل تجديد هياكلها خلال السبعينيات، كما تقلّد مسؤولية عشيرته "أولاد باكة" في نفس تلك الفترة، وكان له السبق والفعالية في بناء دارها الجديدة بحيّ النهضة، وقام على تدبير شؤونها بقوّة وحزم حتّى شعر بالوهن من جرّاء إصابته بمرض السكريّ، إذ أسندت المسؤولية من بعده إلى الأخ سعيد عبد الرحمن بن إبراهيم، ولكنّه بقي يتابع نشاطه في مركز العشيرة بساحة السوق، بصيرا بشؤون زمانه في ذكاء وقاد وجرأة نادرة في مجابهة المشاكل، وقد امتد به الأجل حتّى سنة 1999م وخلال شهر رمضان المعظم يوم توفاه الله بمنزل ولده صالح في عنابة، ثمّ نقل جثمانه إلى مسقط رأسه.

وكلّ ابن أنثى ولو طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول



السيّد: سماوي الحاج عيسى بن إبراهيم "الطالب"
2002 - 1921

من مواليد العطفاء خلال 1921م. وهو الابن الذّكر الوحيد لأبويه السيّد: سماوي الحاج إبراهيم بن باحمد والسيّدة: الحاج إسماعيل عادة بنت بابا عيسى تدرّج في أحضان أبويه بالقرية، وتعلّم المبادىء في كتّابها ثمّ التحق بمعهد القرارة لسنة 1937م مع رفيقيه: الحاج أيوب إبراهيم بن يحيى ڤرادي والحاج إسماعيل يحيى بن الحاج إبراهيم. فاستظهر القرآن، وتلقى علوم اللّغة والفقه على الشيخ الإمام الحاج إبراهيم بن عمر بيوض. وتدرّج في مسؤولية البعثة هناك حتّى أصبح النائب المساعد لرئيسها الأستاذ: الحاج أحمد بن عمر أوراغ، كما تقلّد مسؤولية البعثة العطفاوية طيلة وجوده بالقرارة حتّى سنة 1948م.

إذ توجّه بعدها للعمل التجاريّ مع أعمامه في غرداية، فهو -وإن تفرّغ لذلك العمل حتّى أدركه العجز والتقاعد- لم ينأ بنفسه عن العمل الاجتماعي في العطف، إذ انضمّ إلى حلقة العزابة بالمسجد العتيق لسنة 1945م. وبعد وفاة الشيخ ابن يوسف سليمان لسنة 1992م. أصبح رئيسا لها كما ترأس "جمعية النهضة" بعد وفاة السيّد: هيبة محمّد بن حني سنة: 1991م.

ومن مآثره الثورية والنضالية أن أصبح عضوا في المجلس السرّي الـــذي كان يرأسه الأستاذ: بكلي بابا أحمد بن حمو. والذي يحمل رقم: 313.

وكان دمث الأخلاق متواضعا لطيف المعشر، سليم الطّبع، مقبلا على تدبير شؤونه بجدّ وحزم.

استمرّ في مسؤولية الاجتماعية حتّى وافاه أجله ليوم الجمعة 24 جمادى الأولى 1423هـــ/ الموافق ليوم 02 أوت 2002م رحمه الله وأرضاه.



السيّد: هيبه الحاج بكير بن عيسى
2002 - 1938

هو من مواليد العطف لأبوين كريمين هما السيّد هيبة الحاج عيسى بن حني والسيّدة بابا عدون نانة بنت الحاج رمضان. أبصر نور الحياة يوم **12** ديسمبر **1938**م.

درج في أحضان أسرته وتعلم القرآن في محضرة المسجد العتيق على يد المرحوم السّيد زكري بن صالح، كما تعلّم مبادئ اللّغة العربية على يد الشّيخ الحاج إبراهيم محمد بن بهون وتابع دراسته بمدرسة النّهضة، والتحق بالمدرسة الفرنسية وتحصل على مستوى الشّهادة الأهلية حاليًّا، ثم تخصص في المجال الفلاحي حيث تحصّل على شهادة الخبير الفلاحي لسنة **1960**م.

وباشر العمل في بلدية زلفانة بدءا من تاريخ **01** جويلية **1960**م أي بعد تخرجه مباشرة واستمر في عمله هناك إلى غاية نوفمبر **1973**م.وقد طبّق خبرته على أكمل وجه.

وفي سنة 1971م انتخب عضوا بلديًّا في البلدية الأمّ بغرداية فتعين من أعضاء اللّجنة المالية والميزابية وقام بمسؤوليته التّاريخية في تطبيق قانون الثّورة الزّراعية في تلك الحقبة مع رفاقه في المجلس الموسّع كل من الإخوة: بكلي بابه أحمد بن حمو "بلال"، سعيد محمد بن إبراهيم "كعباش"، الحاج إسماعيل يحى بن الحاج إبراهيم، وهم كلّهم أعضاء بلديون منتخبون ثمّ الأخ طالب باحمد باحمد بن إسماعيل ممثلا للفلاحين في العطف.

التحق عضوا في حلقة العزابة بالمسجد العتيق لسنة 1970م مع رفاقه السّادة: بكلي الشيخ أحمد بن الحاج يحى، طالب باحمد حمو بن عمر، بكلي الحاج إبراهيم بن بالحاج. وكان مثالا للورع والتقى وللالتزام والانضباط.

كما تعيّن عضوا في إدارة النهضة فوكّل إليه رئيس اللّجنة المالية الأخ بكلي بابا الحاج أحمد بن حمو مهمّة ضبط الحسابات فقام بها أحسن قيام.

وكان -رحمه الله- مولعا بجمع الوثائق الهامّة وحفظها وبانتقاء الصور التاريخية في الأحداث والمناسبات.

أدركه الوهن في أخريات عمره إذ كان يعاني من مرض ألمّ به حتّى أدركه أجله في شهر رمضان يوم 06-1423هـ الموافق ليوم 02 ديسمبر 2002م ودفن في مقبرة "با عبد الله" في جنازة مهيبة تغمّده الله بواسع رحماته.



السيّد: بكلي الحاج محمد بن الحاج محمد " الإمام "
2003 - 1905

من مواليد العطفاء خلال سنة **1905**م من أبوين كريمين السيّد: بكلي محمّد بن الحاج إبراهيم، والسيّدة: دادي حمو منّة بنت بكير، ترعرع في قريته وتعلّم القرآن ومبادئ الفقه في كتّابها وتردّد على المدرسة الفرنسية الناشئة في القرية، وكان من الرواد الأوائل في صفوفها. انتقل إلى مدن الشمال ليعمل أجيرا في مدينة الجلفة عند ابن عمه السيّد بكلي بابا عيسى بن بابا عمي، ثمّ شريكا في متجر "آل بكلي" في البويرة، ومنها إلى مدينة الحراش حيث أسّس متجره المتواضع لبيع الأقمشة وذلك لسنة **1936**م، وقد أسنده في العمل به كلّ من ابن أخيه السيّد بكلي عمر بن بكير "الوطني"، ثمّ اشتدّ ساعد ولديه سليمان وإبراهيم فخلفاه في إدارة المتجر ليستقر هو في بلده، وقد أصبح عضوا إداريا لـــ"جمعية النهضة" بعد تجديد مكتبها لسنة **1951**م. وفي سنة **1967**م استقر في البلد ليشرف على مكتبة تجارية في غردايه لمدّة عشر سنوات. وفي سنة **1958**م أصبح عضوا مرموقا في حلقة العزابة بالمسجد العتيق ليغدو إماما له رسميا إثر وفاة الإمام الشيخ بابا عمي

الحاج أحمد بن الحاج موسى لسنة 1971م. فتقلّد هذه المسؤولية العظمى بجدّية وإخلاص. وهو يحظى بكامل التقدير والاحترام من جميع المواطنين لما يتمتع به من الورع والتقى، حتّى أقعده المرض والوهن بعد عمر طويل حافل بالمبرّاة، فطوبى لمن طال عمره وحسن عمله، حتّى توفّاه الله لشهر 04 جوان 2003م. ودفن جثمانه الطاهر في مصلى: "بالة ومسلّم".



الأستاذ: الحاج إسماعيل الحاج يحيى بن الحاج إبراهيم
2006 - 1926

الأستاذ الكريم الغيور

يا طاهر الغدوات والروحات والـ ... خطرات والإسرار والإعلان
هلا قام قبلك في المدائن فاتحا ... غاز يغير مهنّد وسنان؟
يدعو إلى المعلم الشريف وعنده ... أنّ العلوم دعائم العمران
يا خادم الإسلام أجر مجاهد ... في الله من خلد ومن رضوان[1]

- المدخل:

الحمد لله الذي خلق الإنسان وحدّد لحياته الأجل، ثمّ شغله بالعمل، وألهاه بالأمل، وحمّله عبء الأمانة فحمل. نحمده تعالى حقّ حمده، ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله صلّى الله عليه وعلى آله وصحابته أجمعين.

1- أحمد شوقي، (تأبين مصطفى كامل).

وبعـــد:

فإنّ مسيرة العمر لكلّ إنسان مرهونة بقدر الله، فإنّـــه تعـــالى يقـــول: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصّافات:96]. فقد يختار الإنسان مسلكا لمسيرة حياته، ولكن لا يوائم طبعه ولا تتيسّر له أسباب النجاح فيه، فيضطرّ إلى تغيير توجّهه. وأمام تنوّع النشاطات وتعدّد المشارب ينتقي ويختار حتّى يوفقـــه الله إلى المنهج السوي، فيبحر في خضمّ حياته على هدى وبصيرة، ويسكن ما كان يشعر به من قلق وحيرة، وحينئذ يقال لأمثال هؤلاء ما يزدادون بـــه يقينـــا واطمئنانا: "مقامك حيث أقامك الله".

لقد مرّ رفيقنا وأستاذنا الكريم السّيد الحاج إسماعيل يحيى بـــن الحـــاج إبراهيم. مرّ بهذه التجربة، ولكنّه سرعان ما تركّزت مسيرته علـــى المنـــهج المختار، ليصبح أحد أقطاب هذه البلدة الطيّبة -بلدة العطف المجيدة- يـــبني مجدها، ويصون تراثها، ويعلي نضالها وجهادها، ويربّي أجيالهـــا. لـــه علـــى مسرحها وقفات وصرخات، وله في ضمير جمهورها حبّ ومودّة وتقـــدير، وعلى مؤسساتها ومرافقها بصماته في التجديد والتغيير. إنّه الرفيـــق المثـــالي والصديق الوفي، فاسألني عن حقيقته فلا ينبئك مثل خبير.

فمن هو هذا الرجل الفذّ وما قصة حياته؟؟..

01- المولد والمنشأ:

أبصر الوليد نور الحياة في بيت العزّ والورع والتّقى، بيت جدّه المرحـــوم السيّد الحاج إسماعيل طالب بكير بن إبراهيم، الذي تولّى مشيخة مســـجد "أبي سالم" وإمامته في الصّلاة والوعظ والإرشاد بمباركة شيخه قطب الأئمة -رحمـــه الله-، وشاءت الأقدار أن يستعين بولده المرحوم السيّد: الحاج إسماعيـــل الحـــاج إبراهيم بن بكير والد أستاذنا يحيى، وقد التحق هو الآخر بحلقة العزابـــة في ســـنّ مبكرة بمسجد "أبي سالم" في أوائل الثلاثينيات بعد تزوّده بمبادئ العلوم العربيـــة

والشرعية في معهد الشيخ الحاج عمر بن يحي بالقرارة. وهكذا أصبح كلّ من الجدّ والأب عضوين في حلقة العزابة بمسجد "أبي سالم"، مثاليين للأمانة والتّقى والصّلاح، إذ تكفّل كلّ منهما برعاية مصالح المسجد وحفظ دفاتره وسجلاّته.

اقترن الأب الحاج إبراهيم بشريكة حياته السيّدة بكلي بيّة بنت عمر بن بابا عيسى بتاريخ 05 ديسمبر 1919م فأنجبا ولدهما البكر الحاج إسماعيل خلال سنة 1926م، فيا للبشرى السعيدة بولد أحاطت به رعاية الوالدين معا فغمراه بالحبّ والحنان، مما لا يتوفّر لكثير من الأسر يومئذ، ضرورة اغتراب الأب عن الأمّ للكسب والارتزاق، فنشأ الوليد ميمون الطالع موفور الصحة، قضى أيام طفولته في مرابع قريته سويّ النشأة مع أقرانه، وكان من حسن حظه أن تأسّست في العطفاء أوّل مدرسة عصرية للتعليم العربيّ سنة 1931م على يد الشيخ المرحوم السيد بكلي أحمد بن الحاج يحي، وقد بلغ الصبيّ سنّ التعليم سنة 1932م، فالتحق بهذه المدرسة ليتلقّى بها مبادئ العربية والعلوم العصرية، وإلى جانبها بالمسجد العتيق كانت المحضرة لتحفيظ القرآن يشرف عليها الأستاذ الشابّ المرحوم السيّد: الحاج عيسى الحاج عيسى بن الحاج صالح، حيث حفظ الفتى بعض السور من القرآن الكريم على الطريقة التقليدية المتبعة في تلك الظروف الحالكة من الاستعمار البغيض، وقد استوى غلاما يافعا ليشدّ رحاله إلى القرارة للتزوّد بالعلم والمعرفة.

02- في القرارة ومعهد الحياة:

بعد وفاة قطب الأئمة الشيخ اطفيش الحاج محمّد بن يوسف -رحمه الله- سنة 1914م. وقد تركزت أقدام فرنسا بالمنطقة فعملت لنشر ثقافتها وتركيز لغتها، وما صحب ذلك من مواجهات بين الحركة الإصلاحية والتقليدية المحافظة، كان هناك في القرارة انتعاش للحركة التثقيفية الإصلاحية على يد الشيخ الإمام: الحاج إبراهيم بن عمر بيوض من أوائل العشرينيات

أعطى لها دفعا قويا تأسيس معهد الحياة سنة 1925م، فأصبحت القرارة قبلة لطلبة العلم من مختلف القرى الميزابية، فتكونت النواة الأولى للبعثة البيوضية في دار الحوش. كان الفتى من الطلائع الأولى للبعثة العطفاوية، بل كان الأصغر سنًّا ضمن الوفد الرائد الذي ضمّ كلاّ من الأستاذين سماوي طالب عيسى بن إبراهيم، والحاج أيوب إبراهيم بن يحي قرادي سنة 1937م، فالتحق الفتى مباشرة بمدرسة الحياة القديمة تحت إدارة الأستاذ المرحوم: لبسيس الحاج قاسم بن حاج سعيد، حيث أتمّ تعليمه الابتدائي، وحفظ القرآن برعاية الشيخ المرحوم: لبسيس عمر بن الحاج سعيد. والشيخ الحاج سليمان الوارث. ثمّ التحق بمعهد الحياة في نواته الأولى بمكتبة الشيخ بيوض، تحت إدارة الشيخ عدون -رحمه الله- ومعه الأساتذة: الشيخ علي يحي معمّر اللّيبي، الشيخ داودي عمر بن صالح الغرداوى، الشيخ بكير بن عمر بيوض، الشيخ دحمان سعيد بن عبد الله. إلى أن تقرّر نقل المعهد إلى المسجد الجامع بالقرارة، حيث أتمّ الفتى دراسته الثانوية، وقد حالفني الحظ أن رافقته في المعهد والبعثة لمدة ثلاث سنوات من 1945 إلى 1948م. فلم أعرف فيه إلاّ لطافة المعشر ودماثة الأخلاق، وصفاء السريرة، نتقاسم لأواء الحياة وخشونة العيش في أحضان البعثة، ونعدّ أنفسنا لخوض معترك الحياة، ونحن أصلب ما نكون عودا وأقوى شكيمة، فهناك في ذلك المجتمع الصغير من حياة البعثة تتمحّص النفوس وتهذب الطبائع، وتتشكل السلوكات، فنستشف من خلال ذلك مصائر كلّ واحد منّا وقلّما يخطئ الحدس ويسوء التقدير.

وخلال إقامته بالبعثة توّج بتاج الرجولة فاقترن بشريكة حياته السيّدة الحاج أمحمد عائشة بنت عدون بتاريخ 16 جوان 1945م، وكان صهره المرحوم الحاج أمحمد الحاج عدون من ركائز الإصلاح المتينة في البلدة، فشجعه على العمل الدؤوب في مجالات الإصلاح المختلفة، ووجد من زوجه السكن المطلوب حبّا ووفاء فأنجب منها أولاده الخمسة: محمّد، مريم، لالة، عبد

الوهاب، الحاج إبراهيم، وكلّهم على قيد الحياة بارّا بوالديه ما عدا البنت لالة فقد اخترمتها يد المنون صبيّة صغيرة إثر مرض "بوحمرون".

03- التّجربة الأولى في العمل التّربوي:

لم يكن من السهل الميسور، ولا من المستساغ المأمول من شابّ في مقتبل عمره أن يندرج في سلك التعليم الحر، و لم يكن يومئذ للغة العربية ولا للعلوم الدينية أيّ اعتبار في مناهج الاستعمار البغيض بالجزائر، بل كان المشتغلون به يُضيّق عليهم ويلاحقون حيثما حلّوا وارتحلوا، فلم يكن للمعلّم الشابّ بدّ من تحمّل مسؤوليته في الإنفاق على عشه العائلي تحت رعاية والديه في بيتهم القديم المعروف في حي "أبي سالم" -أي بيت جدّه طالب بكير- وكان الشيخ عدون -رحمه الله- يتولى الإشراف على التعليم الحرّ في المدارس الإصلاحية بالشمال والجنوب على مناهج "وحدة التعليم" التي صادق عليها رؤساء الجمعيات الإصلاحية سنة **1945**م، فاختار الشيخ عدون بعد استشارة أقطاب الإصلاح ببلدة العطف مساعدا للأستاذ محمّد الحاج النّاصر الصغير بمدرسة الهداية في العاصمة لسنة **1948**م، وهناك عرف أستاذنا ألوانا من العنت بعدم الاستقرار، إذ لم يخصّص له مستقرّ يمكن أن تصاحبه فيه زوجته، كما أنّ المدرسة كانت عبارة عن شقّة ضيّقة الغرف لا تتوفّر لها الإنارة والتهوية الكافية مع تنامي أعداد التلاميذ، و لم تكن الفئة المكلّفة بشؤون الجماعة في العاصمة تقوم على مسؤوليتها الكاملة في تدبير شؤون المدرسة وحتّى مديرها الأستاذ الحاج النّاصر محمد الصغير كانت تشغله كثيرا وقفاته مع الشيخ الإمام بعد أن أصبح عضوا منتخبا في المجلس الجزائري **1947**م. إذ كان الأستاذ الحاج النّاصر بحكم تضلّعه في اللغة الفرنسية يتولى تنسيق مختلف الملفات للشيخ الإمام، وحتّى الترجمة في بعض مقابلاته، فأصبح عبء المدرسة يثقل ظهر أستاذنا حين يبقى وحده مع التلاميذ، وربّما تأخر دفع راتبه الشهريّ لبعض الوقت نظرا للفوضى القائمة في تدبير أمور الجماعة، وإذا أضفنا الصراع التّقليدي بين المحافظين

والإصلاحيين، فإنّ وضعية الجماعة في العاصمة سوف تزداد سوءا وتدهورا بلا شك، وفي حمّى الصراع والمصادمات تمدر الحقوق وتهمل الواجبات.

صابر الفتى المعلّم وغالب تلك الصعوبات لما يقرب من عشر سنوات، فاضطر بعدها إلى مغادرة العاصمة سنة 1955م. وذلك بوفاق من الشيخ الإمام الذي كان يعيش تلك الفوضى العارمة في جماعة العاصمة.

وكم هو صعب عن الإنسان أن يواجه مثل تلك الظروف القاسية في أوّل تجربة له في المعترك الحيويّ. وخير من التمادي في التجربة الفاشلة أن يبدّل العامل اللّبيب تجربة أخرى علّ الحظ يبتسم له، فإنّ الصّبر والعزيمة كفيلان بإزاحة الأشواك عن الطريق، وأرض الله واسعة لا تشكو بأهلها ولا تضيق.

04- التّجربة التّجارية:

في ذلك الجوّ العاصميّ الصاخب بدويّ المعركة التحريرية سنة 1955م اختار الفتى مدينة الحراش منتجعا لكسبه في متجر بسيط بحي "سيدي مبارك"، كان للسيّد المرحوم الحاج إسماعيل إبراهيم بن مسعود، تولّى مقاليد تسييره في جوّ تكتنفه المضايقات والتفتيشات التي يقوم بها الجيش الفرنسيّ من حين لآخر، سيّما في إضراب الأيام الثمانية الذي دعت إليه جبهة التحرير الوطني، وقد كانت للفتى اتصالات سرّية بمسؤولي الثورة هناك كغيره من متاجر إخواننا بالعاصمة، ملتقى للمسؤولين، ومستودعا أمينا لوثائق الثورة وأماناتها. فكم تعرّض المتجر للتفتيش، وكم تعرّض الفتى للاستنطاق، ولكنّ الله سلّم.

وتحت وطأة الظروف القاسية هناك اضطرّ إلى مغادرة "الحراش" ليشدّ رحاله إلى "المحمّدية" في السّهوب -"بُردُو"سابقا- ليشتغل عاملا بسيطا في متجر السيّد المرحوم الدبوز الحاج حمو. وبنفس الروح النضالية كانت متاجر إخوتنا هناك مصادر لتموين جيش التحرير في جبال "الونشريس"، عرف الفتى بخلالها كيف يناور ويحاذر، حتّى غادر "المحمدية" سنة 1958م.

وكانت هذه الفترة من العمل التجاري حدبة ناتئة في مسيرة حياته تناوشه ولا تشبع فيه طموحا ولا تجد منه عزما، ومثله في ذلك كمثل الإمام الشافعي حين قال عن نفسه وهو يتاجر:

جلوسي في سوق أبيع وأشتري دليل على أن الأنام قرود

ونحن رفقاءه في المعهد والبعثة، قد شققنا طريقنا في العمل التربويّ بمدرسة النهضة، وأصبحنا في حاجة إلى مزيد من المعلّمين والأساتذة. وكنّا نعتقد عن ظهر غيب أنّ أستاذنا لم يكن ليرضيه ذلك العمل الزهيد في التجارة، وأنّه قد فتح به القوس في مسيرة حياته مكرها، فلابدّ -إذن- من غلق ذلك القوس، ولابدّ من عودته إلى حظيرة التعليم، سيّما وقد أصبح والده السيّد الحاج إبراهيم بن بكير شيخا للعزابة في المسجد العتيق، يمثل رمزا من الرموز الإصلاحية في البلد، وقد أخذ يدبّ فيه الضعف والوهن، فمن له غير ولده البكر يحيى معينا على تصاريف الزمن؟

05- التّوجّه الصّحيح النّهائي:

لبّى الأستاذ دعوتنا في الانضمام إلى ركبنا سنة **1958**م، فأصبح معنا أستاذا بارزا في مدرسة النهضة ويتكون طاقمنا من الكاتب: سعيد محمّد بن إبراهيم (كعباش)، بكلي بابه أحمد بن حمو بن بابا عمّي، خير الناس مسعود بن طالب إبراهيم، بكلي أحمد بن الحاج عمر، تحت إدارة الشيخ الحاج أيوب الحاج إبراهيم قرادي.

لقد رجع الطير إلى سربه، فنفض عن ريشه غبار الرحلة، وطاب به المقام فاستقامت ألحانه في فضاء بلدتنا الطيّبة يحدو بقوافل الأجيال، ويسري بها ونحن نشيم بوارق الاستقلال، ولا ينفك يمدّها من مهجته وعقله حتّى انجلى الليل البهيم، ودقّت طبول النصر على رفرفة العلم المفدّى وتظاهرات المجاهدين سنة **1962**م. بعد وقف إطلاق النار في **19** مارس.

لقد عاش معنا تلك الحقبة العصيبة من النضال الثوريّ في البلدة، ومدرسة النهضة هي قلعتها الشامخة وقلبها النابض، يمدّها بالحيوية والنشاط، ويحيطها بسياج من المناعة ليذود عنها جراثيم الغدر والخيانة، فما تعثرت لها قدم في المسيرة النضالية، ولا انكشف لها ستر حتّى فجر الاستقلال، إذ غدت المدرسة موئلا لوفود المناضلين من الولاية السادسة، ومحضنا لأبنائها المجاهدين العائدين الأبطال.

06- جهادّه التّربويّ والاجتماعي والسّياسّي:

أ)- جهاده التّربويّ:

لم يكن الأستاذ ليرضى بالموقف السلبيّ في عهد البناء والتشييد. إذ انخرط في التعليم العموميّ من سنة **1964**م ليندمج بفضل أقدميته في سلك المدرّسين المرسمين بمقتضى المرسوم الرئاسيّ رقم: **6499** بتاريخ: **19** مارس **1964**م.

تابع مسيرته التربوية مربّيا ومعلّما، فمديرا لابتدائية الشيخ إبراهيم بن مناد، وكان مثالا للجدية والتأقلم مع المتطلبات البيداغوجية الحديثة، يتابع التربّصات والملتقيات المبرمجة للتكوين المستمرّ، حتّى أحيل على المعاش سنة **1988**م.

وهكذا تربّع أستاذنا في مقامه الذي خلقه الله من أجله فاستقام سيره على الدرب الصحيح بتوفيق الله وعونه.

وبالموازاة مع مهمّته التربوية الشاقة، كانت له مهام اجتماعية وسياسية.

ب)- في المجال الاجتماعيّ:

وهو المجال الأوسع دائرة والأقوى اهتماما لدى أستاذنا، حتّى لكأنّ الشاعر "طرفة بن العبد" عناه بقوله حين أنشد معتزا بنفسه:

إذا قيل يوما من فتى؟؟ خلت أنّني عنيت فلم أكسل ولم أتبلّد

إذ كان يرى من مسقط رأسه -بلدة العطف- الأمّ الحنون التي احتضنته وليدا وربّته يافعا وصاحبته زوجا وأبا، له فيها وشيجة القربى، ويرى في تربتها الطيّبة خير المثوى وحسن العقبى، وهو الذي تغنّى بأمجادها تلميذا وطالبا، ورفع شأنها مربّيا ومجاهدا، ونصح مجتمعها واعظا ومرشدا. فكم له من وقفات لتحقيق الوئام والانسجام في صفوف أبنائها دونما تمييز بين عناصر سكانها، وكم له من مساع حميدة في إصلاح ذات البين، لا يثنيه شمس ولا زمهرير، ولا يقعده ليل أو نهار، فلا ينتظم وفد لتمثيل البلد في سرّاء أو ضرّاء إلاّ وأستاذنا ضمن أعضائه في غدو أو رواح، وحسبه شرفا وامتيازا أن يتعيّن عضوا في حلقة العزابة للمسجد العتيق لسنة 1979م، ثمّ عريفا لهيئة "إروان"، ومرشدا مؤطرا لهيئة "تمسردين"، فوجدت الحلقة دفعا قويّا بأمثاله لترشيد الحياة الاجتماعية ولملمة أطرافها، ولا يقتصر أداؤه على اتخاذ القرارات وإملائها على الهياكل الاجتماعية المختلفة، بل تجده حاضرا في كلّ مناسبة يسدّد ويقارب وينصح ويوجّه، وإذا ما اضطرته بعض الظروف -أحيانا- إلى التخلف والغياب كان ذلك يثقل عليه، ينحي على تلك الظروف باللّوم والعتاب، وكان جمهورنا الكريم يبادله نفس الشعور، وذلك هو خير ما يجازى به المؤمن عند الله وعند النّاس.

من يفعل الخير لم يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والنّاس

ويقول المولى تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً**﴾[مريم:96]. ولا أدلّ على ذلك من تهافت النّاس على منزله، وقد أقعده المرض، فتخلف عن صلاة عيد الأضحى لسنة 1427هـ/ 2006م. يقدّمون له التهنئة ويرجون له الشفاء، وهو يبش في وجوههم على ما يعانيه من وجع وإرهاق.

وكما عرفه الجمهور في حلقة العزابة، فقد عرفوه عضوا بارزا في مكتب "جمعية النهضة" ساعيا لتوطيد أركانها، تجوالا ودعاية، وتقريعا لكلّ متنكّر جحود.

وعرفه أبناء عشيرته -أولاد الحجاج الميامين- رئيسا شرفيا لها، له مقام الصدارة في مجلسها، رحب الصدر، مسموع الكلمة، غير متعسّف ولا متطاول.

لقد ملأ أستاذنا كلّ هذه الفضاءات، وعرف كيف يوائم بينها، فلا يطغى جانب على آخر، فقد كان نموذجا حيّا ومثالا صادقا للجيل المخضرم لا تغويه النرجسية، ولا يتهادى في برجه العاجي متذمّرا أو شاكيا، بل اختار أن يكون ميدانيا متجاوبا مع الواقع المعيش، مؤمنا بتواصل الأجيال، حثيث الخطى في التحديث والتغيير، فهو رفيق الدرب الودود، وقرين العمر وفيّا بالعهود.

طبع كريم يزينه التواضع والرفق، وقلب مخموم يجلّله الوفاء والصدق، فنعم القرين في الصّالحات ونعم الرفيق في الملمات.

ج)- في المجال السّياسيّ والإداريّ:

لقد اقتنع أستاذنا أنّ مرحلة البناء والتشييد للوطن هي الجهاد الأكبر، تتمحّص فيه القدرات، وتنكشف طبائع النفوس، وتختبر النوايا والمقاصد. وما يزال الوطن مثخنا بجراحه يئن ويستغيث بكلّ أبنائه الأوفياء، ليمدّوه بوسائل التطبيب والشفاء، والدولة الجزائرية الفتية تمرّ بمخاض عسير لاختيار المسلك المناسب لها في الإدارة والسياسة، فإذا الأحداث الأولى للاستقلال الوطني تتمخض عن الاختيار الاشتراكي المرتكز عن التسيير المركزي وعلى نظام الحزب الواحد "حزب جبهة التحرير الوطني" وكنا -نحن المناضلين الأوائل- لا نؤمن بالسّلبية في المواقف، ولا نرضى بسياسة النعامة أمام الأحداث الوطنية، فتوافقنا على أن يستمرّ نضالنا في أتون معركة البناء والتشييد، مهما كلّفنا ذلك من تضحيات ومن جهد جهيد، فأخذنا بزمام المبادرات وتحدّينا كلّ الصعوبات، ولا يدفعنا إلى ذالك إلاّ حبّ الوطن والوفاء لعهود شهدائنا الأبرار. وكان أستاذنا يحيى ضمن طاقمنا المختار.

لم يرض أستاذنا بالمقام الدون في مسؤولية حزب جبهة التحرير الوطني، بل أصبح في مركز القرار، حيثما عرف من المراحل والأطوار، وهي كالتالي:

1)- مسؤول للتنظيم في أوّل قسمة بالعطف إثر الاستقلال الوطني.

2)- عضو في مكتب قسمة غرداية الموحّدة.

3)- عضو في مكتب قسمة بنورة والعطف وبني يزقن.

4)- رئيس اتحادية بنورة وبني يزقن والعطف.

لقد تفاعل مع هذه المراحل كلّها، وترك بصماته في مساراتها المختلفة وهياكلها المتعددة.

بعد التصحيح الثوريّ في 19 جوان 1965م. اتجه النظام إلى إقامة المؤسسات من هرم السلطة إلى قاعدتها، لتجسيد التمثيل الشعبي في مختلف المجالس، وبما أنّ التزكية للنواب المنتخبين تتمّ من طرف الحزب، فقد أصبح أستاذنا محط الاختيار للمجلس البلديّ الموحّد في غرداية لعهدتين: 1971-1976م، وهي الفترة الحساسة للنظام القائم يومئذ على عهد الرئيس الرّاحل "هواري بومدين"، ويتمثل ذلك في تطبيق قانون الثورة الزراعية، ولا تسل عن مدى ما لا قيناه من عنت وإرهاق -إذ كنت رفيقه في المجلس-، ونحن ندرس الملفات المصرّح بها من طرف المواطنين، وما صحب ذلك من تعسّف وإجحاف من طرف بعض المسؤولين.

وعند التقسيم الإداري لسنة 1985م استقلت غرداية بمجلسها الولائي، فأصبح أستاذنا عضوا بارزا فيه أوّل تأسيسه برئاسة الأستاذ محمد بن إبراهيم الحاج مسعود. فشغل منصبه بجدّية وإخلاص في مختلف لجانه، ولم يستغل نفوذه في جلب منفعة ذاتية أو تحقيق مأرب شخصي، بل أنهى مهمّته بكلّ نزاهة وإخلاص، إلى جانب عمله التربويّ المرهق، يمتاز بفطرة سليمة وخلق كريم، لا تشوبه حيلة ولا مراوغة، ولا يشينه نفاق أو رياء.

وإذا كانت النّفوس عظيمة تعبت في مرادها الأجسام

07- الخاتمة:

لقد ذرّف الأستاذ على الثمانين، وأدنفه المرض، فأصبح قعيد فراشه نضوا يتزّى ألما، ولسان حاله يقول مع زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا -لا أبا لك- يسأم

فهو وإن كان يعاني رهقا لا يكاد يحتجب عن زواره وعوّاده يؤاسونه ويحفظون ودّه، فيحدّثهم بعناء ولا يكاد يبين؛ لأنّه يحمل بين جنبيه نفسا مفعمة بحبّ مواطنيها، وما منهم إلاّ قريب يصل ما أمر الله به أن يوصل، أو رفيق وفيّ يرجو من المولى أن يمدّ له في حبل الأجل، أو تلميذ له كان ذات يوم بين يديه يغترف من علمه وينهل، أو مواطن عادي يقدّر فيه التضحية والإخلاص ويكبر فيه الجدّية والعمل.

إنّه الكتر الذي لا ينفد، والذّكر الذي لا يبلى، وصدق أمير الشعراء حين قال:

دقات قلب المرء قائلة له إنّ الحياة دقائق وثوان

فارفع لنفسك بعد موتك ذِكرها فالذّكر للإنسان عمر ثان

لقد حمّ القضاء ودقّت ساعة الأجل. فكلّ نجم له في دورة الفلك سطوع وأفول، فسبحان من تفرّد بالبقاء، يمضي حكمه في الخلق بما يشاء، فقد اضطرت الأسرة الكريمة أن تنقل عاهلها إلى المستشفى، وقد أدنفه المرض واستعصى العلاج، وإن هي إلاّ يومان حتّى لبّى نداء ربّه راضيا مرضيا فتمت مراسيم جنازته في مصلّى "با عبد الله" حضرها حشد غفير من رفاقه في الدرب من داخل البلدة وخارجها، وقد عبّر البعض منهم على لسان وفودهم بما يكنّ للفقيد من الحبّ والتقدير، كان لي بعدها كلمة شكر وامتنان للجميع وذلك ليوم: الاثنين 21 ربيع الأول 1428هـ -09 أفريل 2007م.

﴿إِنَّا لِلهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة:156].



الشيخ: سعيد الحاج محمد بن إبراهيم "كعباش"

1929 ـــ

كان الفتى يتمثل في بساطة عيشه بقول بشار بن برّد:

خليليّ إنّ المال ليس بنافع ... إذا لم ينل منه أخ وصديق

وكنت إذا ضاقت عليّ محلّة ... تيمّمت أخرى ما عليّ تضيق

وما خاب بين الله والنّاس عامل ... له في التّقى أو في المحامد سوق

ولا ضاق فضل الله عن متعفّف ... ولكنّ أخلاق الرجال تضيق

المقدمة:

الحمد لله الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى، أخرجنا من بطون أمّهاتنا لا نعلم شيئا وزوّدنا بكلّ ما نحتاج إليه في حياتنا الأولى، وأرشدنا إلى مسالك هدايته حتّى لا نضلّ ولا نشقى. نشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله. أنشأه يتيما فآوى، ووجده عائلا فأغنى، ووجده ضالا فهدى، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اتّبع هداهم إلى يوم الدّين.

وبعـــد:

فإنّي بعد إتمامي لكتاب: **جيل "النهضة" والإصلاح، في العطفاء بلد النضال والكفاح**، وقد لملمت أطرافه في ذلك الإطار الجامع لتراجم الشخصيات التي شاركت بمجهودها في إعلاء ذلك الصرح العتيد. وعندما بدا لي أنّني أتممت رسم ذلك الإطار وحاولت أن أضيف إليه اللّمسات الأخيرة لأقدّمه إلى الطبع، وجدت هناك ثلمة تلح عليّ أن أملأ فراغا، لاستكمال قسمات الفن والجمال في ذلك الإطار. وإلاّ فسيبقى كلّ مجتلب له يردّد نفس الملاحظة ويلّح عليه ذلك الانطباع، عندما يفتقدني فلا يجد لي مع تلك النخبة رسمًا ولا ذِكرًا. ذلك لأنّي -كما ذكرت في المقدمة العامّة خصّصت لحياتي كتابًا بأكمله تحت عنوان: **"رحلة العمر"** فصّلت فيه مراحل عمري ممزوجة بالأحداث التي عايشتها. وكان من غير اللائق أن أنفصل عن رفاقي من جيل النهضة والإصلاح بعد ما أفضوا إلى ربّهم وأنا ما أزال في الحلبة أتابع خطواتي نحو النهاية التي يقدرها الله لي وأرجو أن تتمّ بالرضوان وحسن اللّقاء. ولئن وصّيت أبنائي ألاّ يطبع ذلك الكتاب إلاّ بعد وفاتي. فقد وجدت من الضروريّ ومن الإنصاف التاريخي أن أدمج نبذة مختصرة لما فصّلته في ذلك الكتاب عن حياتي. لأسدّ بها تلك الثغرة فيكتمل البناء ويروق منظره. وكم هو صعب عليّ أن أتحدث عن نفسي، لأنّني لا أبرّئها من النوازع الآنيّة الملحاحة. وكنت أودّ أن أترك ذلك للدارسين من أبنائنا فهم واجدون من تراثي في المكتبة ما يشبع فضولهم ويرضي طموحهم والمثل الشعبّي يقول: «كلمة من غير فمك تنفعك» ولكنّني من جهة أخرى أخشى أن يبقى كتاب: «جيل "النهضة" والإصلاح» مبتورًا ناقصًا. وأنا أملك الوسائل لتلافي ذلك النقص.

فلنغضّ الطرف -أيها القارئ الكريم- عن بعض السلبيات التي قد تلاحظها في أسلوب الطرح، سيّما وأنا أتحدث عن نفسي بصيغة المتكلم لا إعجابا ولا فخرا. ولكن اقتداء بأسلوب القرآن في الدعوة والتبليغ ومن أحسن من الله حديثا.

01- المنبت والمنشأ:

أبصرت نور الحياة وليدا في حضن والديّ الكريمين السيّد: سعيد إبراهيم بن باحمد -كعباش- والسيّدة: بهون شيخة بنت الحاج محمد "طبرا" في حيّ: "بونقاب" من أعالي قرية العطف، وذلك في شهر أبريل من سنة 1929م واختارا لي اسم "محمّد". وقد أصبح والدي -رحمه الله- يعاني من المرض والوهن ما جعله قعيد الدار طريح الفراش يزيده الفقر وانعدام العون والنصير بؤسًا واكتئابا. حتّى وافاه أجله خلال سنة 1932م وأنا أحبو بين يديه فطيمًا لم تنطبع بعد صورة شخصه الكريم في ذاكرتي ولم أنعم بحنانه ورعايته إذ نشأت يتيما في كفالة أمّي الأرملة الفقيرة. مع أختيّ الشقيقتين: عائشة وباية وليس لنا من تراث الوالد إلاّ دار متوسطة الحجم بأثاثها البسيط تأوينا. ثمّ بقيت وحيد أمّه بعد أن تزوجت أختاي، ولم تدخر وسعا في تربيتي معتمدة على نفسها في توفير الكفاف من الرزق الحلال بكدّ يمينها خدمة في بيوت بعض رفيقاتها الموسرات أو نسيجا للألبسة الصوفية تباع في سوق القرية. وقد حرصت الأمّ الرّؤوم أن ينشأ طفلها على آداب الدين حافظا لكتاب الله، ومن عمّار بيت الله؛ فكانت تناغيه صبيًا صغيرا بقولها: «إلاّ دا الطلاب دا عزاب إلاّ ديرو تاجيدة». وذلك باللّغة المحلية فغدا الطفل شغوفا بالتردّد على كتّاب القرية لحفظ كتاب الله. فاستوعب سلكته الكاملة ولم يناهز عشر سنين حتّى أصبح المقرّب المحظيّ عند شيخه المرحوم الحاج إبراهيم محمّد بن بهون في كتّاب

"أبي سالم"، وكم حرص لاستبقائي إلى جانبه حتّى تتهيأ الظروف لإرسالي إلى بعثة الحياة في القرارة، ولكن أنّى ليتيم فقير أن يسالمه الدهر، وأمثالي من البائسين تضطرهم ظروف العيش إلى السّعي في الارتزاق مبكّرًا. فشددت رحالي إلى مدن الشمال للعمل أجيرا بسيطا في كلّ من الجلفة والحراش ومسعد لمدّة فترة الحرب العالمية الثانية -أي من 1940م إلى 1945م- تاركا أمّي تعاني وحدها عضة الفقر ووحشة الفراق.

02- المسار الدّراسيّ:

كان شيخي -رحمه الله- لا تنقطع عنّي رسائله في كلّ مناسبة ليغيّر وجهتي إلى طلب العلم، وأنّني لا أعدم العون والتّأييد من بعض المحسنين فتكوّنت في نفسي رغبة ملحة إلى السّعي في ذلك، وأنا أنتظر الفرصة المواتية فإذا القدر يسوقني إلى مسقط رأسي لأعيش أحداث الزيارات التاريخية للإمام الشيخ بيوض -رحمه الله- إلى قرى "وادي ميزاب" بعد الهدنة العالمية سنة 1945م. تلك الزيارات التي أعطت دفعا قويا للحركة الإصلاحية في المنطقة كان من ثمارها تكوين الجمعيات الثقافية لفتح المدارس والنوادي وإرسال البعثات العلمية، فكنت ضمن فوج البعثة البيوضية إلى القرارة من 1945 إلى 1950م. استظهرت فيها القرآن وتابعت دراستي الثانوية في معهد الحياة بنجاح وامتياز ثمّ شددت رحالي إلى تونس الخضراء 1950م بفضل الله ومساعدة أبناء عمومتي من آل سعيد في الجلفة إذ تكفّلوا بنفقات أسرتي بعد أن أصبحت متزوّجًا، وتكفلت "جمعية النهضة" بنفقات الدراسة. فقضيت هناك أربع سنوات كنت فيها مستمعا حرّا في التعليم العالي بجامع الزيتونة، وطالبا رسميا في المعهد الخلدوني للعلوم التطبيقية لمدة سنتين حصلت فيهما على شهادة المعهد بمستوى الأهلية، وإذ كانت الدروس مسائية في المعهد الخلدوني فقد استطعت الجمع بينها وبين متابعة الدروس في الزيتونة للتخصّص في علوم

الشريعة جلست فيها إلى كبار العلماء مثل الشيخ الفاضل: بن عاشور، والشيخ محمّد الزّغواني في التفسير، والشيخ البشير النيفر في أحكام القرآن، والشيخ اللّقاني في مقاصد الشريعة، والشيخ أحمد بن ميلاد في أصول الفقه...الخ. وبذلك امتلكت مفاتيح الاستزادة من علوم الشريعة. كما أجازي الشيخ العربي التريكي في قراءة ورش وقالون على الإمام نافع.

وكان الجوّ التونسي بما يتوفر عليه من المؤسسات العلمية ومن النشاط المعرفي المتنوّع كان لي مجالا فسيحا لإشباع طموحاتي وإنماء قدراتي، على الرغم مما كان ينتاب ساحة الزيتونة من بعض الاضطرابات الطلابية استجابة لدعوات لجنة صوت الطالب الزيتوني وهي تطالب بتحسين أوضاع الدراسة وتحسين الإقامة للطلاب الغرباء. وما كاد الموسم الدراسي من سنة 1954م يأذن بالعطلة الصيفية حتّى زممت حقائبي وعدت أدراجي نهائيا إلى مسقط رأسي لأخطو خطواتي الأولى في مسيرتي المهنية معتمدا على الله وعلى النفس في تدبير شؤون عائلتي، وقد عدت -بفضل الله- مزوّدا بالمعارف الضرورية للاستزادة من المعرفة والاستفادة ممن سبقوني في مجال التربية والتعليم.

وبعد الاستقلال الوطني وقيام الدولة الجزائرية الفتية وبعد أن انخرطت في التعليم العموميّ اضطررت إلى الانتساب للجامعة الجزائرية لأحصل على شهادة "الليسانس" في الأدب العربّي بشهاداته الأربع يومئذ: الأدب العربي، الأدب المقارن، الدراسات الإسلامية، فقه اللّغة "اللّسانيات". وذلك لرفع مستواي في الوظيف العمومي أستاذا ومديرا. فوفّقني الله إلى النجاح في ظرف سنتين، إذ حصلت على "اللّيسانس" في سنة 1972م. وبحكم انخراطي في حلقة العزابة سنة 1958م وتكليفي بمهمة الوعظ والإرشاد وإمامة الجمعة في المسجد العتيق سنة 1970م. انفسح لي المجال مرّة أخرى للبحث العلمي ولتحضير الدروس سيّما في التفسير والحديث. ولتنسيق خطب الجمعة فاكتسبت بذلك

خبرة علمية محترمة -بفضل الله- ولا أزال أواصل مشواري في دروس التفسير -بعون الله- تأليفا وإلقاء للدروس على منبر المسجد إلى ما يشاء الله أرجو منه الرّضى والقبول. وقد أتممت ثلثي القرآن إذ ختمت سورة السجدة. ولا أدري أيقدّر الله لي ختمه أم تنتهي أنفاسي قبل ذلك، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

03- بناء العش العائلي:

ما إن ذرّفت على العشرين حتّى قرّر أبناء عمومتي زواجي جريا على عادة البلد في إحصان أبنائه في مثل تلك السنّ، واقترن معي في عرس جماعيّ واحد كلّ من الأخوين: سعيد محمّد بن الحاج صالح، وسعيد محمّد بن بكير. وذلك ليوم 04 أبريل 1949م. وكان عرسا مشهودا بنشاط فوج من بعثة القرارة كان له الأثر المحمود في مجتمع العطفاء وكنت فيه الأثير المرموق بين رفاقي. وقد بنيت بأمّ أولادي السيّدة: عبد العزيز عائشة بنت حاج محمد بن عمر فجعل الله المودة والرّحمة بيننا، وأنا ما أزال طالبا في معهد الحياة تحمّلت معي شظف العيش ورافقت والدتي بالحسنى فرزقني الله منها أولادي الأحد عشر كوكبا. توفي منهم ولد وبنت وعاش -بفضل الله- تسعة. أربع ذكور وهم: أحمد ونور الدّين وبالحاج وعبد الرحمن. وخمس إناث: عائشة، باية، رحيمة، فتيحة، زوليخاء. ما منهنّ إلا وقد أصبحت زوجة صالحة وأمّا رؤوما. وقد اجتمع لي من الأحفاد -بفضل الله- ما يزيد عن السّبعين. ولم يكن الزواج عائقا عن مواصلة دراستي في تونس كما -أسلفت- بل رزقت بطفلتي الأولى -عائشة- وأنا ما أزال في رحاب الخضراء توشك رحلتي أن تبلغ نهايتها في صيف 1954م يغمرني أمل فيّاض ورجاء في الله قوي أن يوفّقني الله إلى حياة الاستقرار والتمتع بعش الزوجية عساني أعوّض لأسرتي ما فقدته من مساعداتي ومؤاساتي لها مدّة دراستي. وصدق الشاعر إذ قال:

قلّبْ فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحبّ إلاّ للحبيب الأوّل

كم مترل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأوّل مترل

وكان من ثمرات جهدي وقد تحسّن مدخولي بعد الاستقلال الوطنّي أنّي بنيت مترلي الجديد في حيّ النهضة وانتقلت أسرتي إليه في صيف 1964م، وما تزال والدتي رحمة الله عليها على قيد الحياة خصّصنا لها بيتا مناسبا أمضت فيه بقيّة حياتها سعيدة هنيئة إلى أن وافاها أجلها خلال 1968م، وقد متعتها بكلّ ما كانت تأمله مني منذ استقراري في البلد، كما ربّيت أولادي على الرزق الحلال بكدّ يميني ووفّرت لهم كلّ وسائل الراحة والصحة، وأنشأتهم -بفضل الله- على النهج السويّ كاملي العقل قوي البدن متمتعين بأطايب الحياة في غير ترف ولا بذخ، ولا فسولة ولا ميوعة، وقد اشتريت قطعة من الأرض في حيّ "باهيمان" حوّلتها بعرق جبيني إلى جنّة وارفة الظلال استنبتّ أشجارها ونخيلها وتعهدتها بالسقي والنماء، كما تعهّدت أولادي بالعطف والحنان، وكنت أغتنم فرصة العطل المختلفة سيّما عطلة الصيف لأرتحل بهم على سيارتي الخاصة للاستجمام في المحطات المعدنية المختلفة في شرق البلاد وغربها وأغلبها كان في حمام "بوحجر" من ولاية "عين تموشنت" اليوم، وما أزال -بعون الله وفضله- أغدق عليهم من حبّي وحناني وقد أصبح لكلّ واحد منهم أولاد عددهم بالعشرات كما أسلفت، وها أنا ذا وقد ذرّفت على الثمانين. وأحمد الله على الصبر والثبات واليقين. والتوفيق إلى شكر نعمه. رضى وقناعة بما قسم لي فما تجرأت أن أقول مع زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

بل تعوّدت أن أردّد إثر كلّ صلاة متضرعا إلى الله، اللّهم اجعل حياتي زيادة في كلّ خير، ومماتي سلامة من كلّ شرّ.

04- مسيرتي المهنية:

ما كدت ألقي عصا الترحال في قريتي الوديعة بـالعطف "أمّ قـرى وادي ميزاب" في شهر جويلية من سنة 1954م حتّى شمّرت عن ساعد الجدّ في تدبير شؤون بيتي ساعيا لتحسين ظروف معيشتي فيه بما يتيسّر لي مـن أجرتي المتواضعة في "مدرسة النهضة" معلّما ومربّيا تحت إدارة الشيخ الحاج أيوب الحاج إبراهيم "ڤرادي" ولم تكن "جمعية النهضة" قد أنجزت بعـد أقساما حديثة. بل كنّا نزاول مهمّتنا في الأقسام القديمة إلى جوار المسجد العتيق، وهي لا تتوفّر لأدنى وسائل الراحة للتلاميذ، وبسعي وإلحاح مـن رئيس الجمعية الشيخ ابن يوسف الحاج سليمان بن الحاج داود اقتحمـت بمفردي مسلك تعليم البنت قراءة وكتابة وفق ما لخصص البنين مما قررتـه لجنة "وحدة التعليم" في المدارس الإصلاحية. وعلى ما تحمّلته من عنت في ذلك المسلك الوعر بحكم التقاليد والذهنيات المتخلفة فقد واصلت مشواري فيه زيادة على عملي لتعليم البنين، لمدة أربع سنوات، وقد أساغه الأولياء وشجعوه. فأصبح ضمن برنامج المدرسة بعد أن أنجز الجناح الأوّل منها في حيّ النهضة سنة 1956م. ومع تزايد معدودات التلاميذ بنين وبنات تنامى الطاقم التربويّ فأصبح يضمّ كلاّ من الإخوة: بكلي بابه أحمد "بـلال"، الحاج إسماعيل يحيى، خير النّاس مسعود وأخيه عيسى، الحاج مسعود محمّد بن إبراهيم وذلك حتّى الاستقلال الوطني سنة 1962م.

وكنت غير قانع بذلك الأفق الصغير من تعليم الصبيان، علـى مـا كانت تعانيه اللّغة العربية في العهد الاستعماريّ من التضييق والحرمـان، وكنت أمنّي النفس في المعركة التحريرية المباركة بإشراق ذلك اليوم الذي تتحرّر فيه البلاد وتستكمل فيه مقوّمات سيادتها فتعود للغة الوطنية كرامتها وفعاليتها، فإذا البشائر تحمل الخبر السعيـد، وتدنينا من اليـوم الموعود.

لم أتردّد قط في الانخراط في التعليم العموميّ، وإن كنت لا أملك من الشهادات المعترف بها إلاّ شهادة المعهد الخلدوني التي ترتبني رسميا في درجة المساعد، فرضيت بالأمر الواقع، وعقدت العزم على التدرّج في سلّم الوظيف، مستفيدا من تجربة زملائي في المجال التربويّ، ومتحيّنا كلّ الفرص المواتية للامتحانات والمسابقات. وهكذا وبعد عملي مساعدا في ابتدائية الشيخ إبراهيم بن مناد لمدّة سنتين وكنت خلالها أشرف على إدارة "مدرسة النهضة" ضرورة انقطاع المدير الشيخ القرادي إلى العاصمة كمدير لدار الفكر الإسلاميّ في نهج "عبّان رمضان" وفي الموسم الدراسيّ: 1964- 1965م انتقلت إلى غرداية لأعمل أستاذا تكميليا في متوسطة: "ابن باديس" وذلك بحكم قرار الإدماج بمقتضى المرسوم الوزاريّ رقم 6499 بتاريخ 19 مارس 1964م. وبحساب الأقدمية فقد تسلّمت قرار الترسيم في الدرجة الخامسة بأقدمية عشر سنوات، فما أروح ذلك على نفسي وما أعظم إعجاب زملائي بتلك المنحة الربانية، إذ أصبح لي أجر محترم يضمن لي عيشا كريما ويغنيني عن كلّ منّ أو أدنى من أحد. وإذ تأسّست أوّل ثانوية في غرداية: "ثانوية الفيلالي" سنة 1975م. طمحت إلى الأستاذية فيها، وكنت قد حصلت على شهادة اللّيسانس في الأدب العربيّ من جامعة الجزائر -كما أسلفت- وفعلا فقد ارتقيت إلى سلم الأساتذة الثانويين وترسّمت في الإطار غير أنّني لم يكن لي حظ في الحصول على منصب في الثانوية فبقيت أتابع مشواري في المتوسطة إلى سنة 1980م. حين تعيّنت مديرا لإكمالية: "الشيخ عبد العزيز الثميني" في بني يزقن. وكان لي الشرف في افتتاحها وتجهيزها وتطوير أفواجها لمدّة ثلاث سنوات ترسّمت خلالها بنجاح في إطار المديرين المتوسطين، علما بأنّ تلك الفترة عرفت تطورات كبيرة بتركيز التعليم الأساسيّ في أطواره الثلاثة.

وفي الموسم الدّراسي: 1983- 1984م انتقلت بصفة نهائية إلى إكمالية الشيخ القرادي في العطف وكان لي الشرف -أيضا- في افتتاحها وتجهيزها، فتابعت مشواري المهني فيها حتّى الموسم الدراسي: 1990م حيث ألقيت عصا الترحال، وأحلت على المعاش غير مرهق ولا كالّ.

خطى مشـياها كتبـت علينـا ومن كتبت عليه خطى مشـاها

وها أنا طليق من قيود الوظيفة، وفي بدني جهد، وفي العمر متسع إلى ما يشاء الله. وفي النفس عزم وأمل فياض لمواصلة الجهد والعطاء، وما محطة التقاعد إلاّ كسر للروتين المألـوف، وإلاّ فإنّ الحيـاة تعـب وكفـاح، ومقامك -أيّها الإنسان- حيث أقامك الله، وبحكم انضمامي إلى حلقـة العزابة سنة 1958م وأنا في ريعان الشباب فقد أصبحت مكلّفـا بإرشـاد الجمهور والدعوة إلى الله على منبر المسجد الجامع من أواخر السّـتينيات، واعظا ومفسّرا لكتاب الله وإماما للجمعة ومفتيا شفوقا متحرّجا يسـتعين بالله ويستهديه، وإنّه لعبء ثقيل، وأمانة عظمى نرجو من الله فيها العـون والتّوفيق. وما أزال أستحث خطاي على ما أعانيه من المرض والشيخوخة وإنّا إلى الله راجعون، نسأله تعالى حسن الخاتمة وجميل العاقبة.

05- في المجال الاجتماعي والسياسيّ:

إذا كان المعريّ يفخر بنفسه قائلا:

ألا في سبيل المجد ما أنـا فاعـل عفاف وإقدام وحـزم ونائـل

فإنّي أقول معتزا بديني لأنّه عصمة أمري -بفضل الله فأقول بدوري:

ألا في سبيل الدّين ما أنا فاعـل عفاف وإقدام وحـزم ونائـل
أعندي وقد مارست كلّ خفيـة يصدّق واش أو يخـب سـائل

نعم: ليس بغريب على فتى مثلي نشأ -بفضل الله- على التربية الدينية المثلى وشغف بحبّ بلدته ووطنه، ليس بغريب عليه أن يركب الصعب، ويبذل الغالي والنفيس في إصلاح أوضاع بلدته وهي ما تزال إلى منتصف القرن الماضي -القرن العشرين- في مؤخرة الركب تشكو الحرمان من أقل الأسباب الحضارية وتفتقر إلى أدنى المقوّمات العمرانية، يزيدها اغتراب أكثر رجالها وشبابها للارتزاق وحشة وتعاسة. وانطلاقا من قاعدة: **"التّعليم قبل التّعمير"** فقد اعتبرت نفسي ذلك الجنديّ المتأهب لخوض معركة التجديد والإصلاح من خلال مطاردة جيوش الجهل وتزويد النشء بالعلم والمعرفة، مع تدارك القائمين عليه من الآباء والأمّهات بالتوعية الرشيدة والتوجيه السديد، وما الوسيلة المثلى إلى تحقيق ذلك غير المدرسة والمسجد، إذا قاما بدورهما التربويّ والاجتماعي وفق متطلبات النهضة الحديثة وعلى ضوء الإرشاد الرباني الذي لا تزيغ به الأضواء، ولا يضل في نهجه السالكون، وكنت منذ انطلاقتي الأولى بعد استقراري في البلد سنة **1954**م. كنت ذلك الرائد الصّدوق في قافلة الإصلاح مع رفاقي المعلّمين والعزابة نضع الخطط ونصنّف الأوليات ونتوخّى التدرّج والترفق في التطبيق، ولكن بخطوات ثابتة رزينة، فإذا بجمهورنا الكريم يستجيب لدعواتنا في كلّ إصلاح خطّطنا له مادّيا أو معنويا، وإذا البلدة تنهض من كبوتها وتعيد ترتيب جبهتها الداخلية توافقا وتضامنا وانسجاما لتستقبل العهد الجديد، عهد الاستقلال الوطنيّ، وهي تعتز أن يكون بعض أبنائها المخلصين من حملة لوائه مجاهدين مناضلين، وشهداء أوفياء، وإذ استفدت كثيرا من التربصات التكوينية في المجال الرسمي، فقد عملت جاهدا لتطعيم تعليمنا الدينيّ الحرّ ببرامج مشابهة للتعليم الأساسيّ في أطواره الثلاثة إلى جانب البرامج الدينية المكمّلة، كما أتحت الفرصة للأساتذة المهيكلين في

التعليم الرسمّي لتقديم ساعات إضافية في المدرسة سيّما للبنات إذ ما يـزال أغلبهن لم ينخرط في المؤسسات الرسمية. فعرفت المدرسة انطلاقا حميدا في هذا المجال وغدت تنافس المؤسسات الرسمية في نتائج الشـهادة الأهليـة واستلزم ذلك تطوير الأداء الإداريّ في المدرسة بإحداث إدارات تربويـة لكلّ من الطورين الأوّل والثاني، وللطور الثالث وبرنامج الشريعة وللتكوين المهني تحت مظلة الإدارة العامّة، كما عرفت إدارة الجمعيـة تـداولا في رئاستها ومكتبها التنفيذي بعد وفاة المرحوم السيّد: هيبة محمّد بن حنّي. إذ رأست الإدارة لمدّة سنتين ثمّ اكتفيت بالعضوية الشرفية تحت وطأة المرض والشيخوخة، ولقد توسّعت مسؤولية الجمعية بتعداد فروعها في كلّ الأحياء السكنية كما شملت الإشراف على المجمّع القرآني في الجاوة للبنين، والمجمّع القرآني للبنات في روضة الشيخ إبـراهيم بن مناد ومؤسسة التكوين المهني الجديدة أمام باب الخراجة، إلى جانب الإشـراف على التعليم الصـيفي ودروس محو الأمّية. وفي النتائج المحصّل عليها فقد تحقّق في ذلك -بفضـل الله- قول الرصافي:

إذا ارتوت البلاد بفـيض علـم فعـاجز أهلـها يمسـى قـديرا
ويقوى من يكون بهـا ضـعيفا ويغنى مـن يعـيش بهـا فقـيرا

وهو كذلك، فإنّ بناة ذلك الصرح العتيد من جيل النهضة والإصلاح تقرّ أعينهم وينشرح صدورهم وهم يحصدون ما زرعوه بأيديهم وفرة عدد في أخلافهم، ورغد عيش في معيشتهم، واتساع عمران في أرجاء بلدتهم، وتركيز المعرفة والثقافة في أوساط عائلاتهم وأولادهم وأعظم من ذلك كلّه استدامة ذلك الوفاق والانسجام بين الأطياف السكانية في البلد منذ فجر الاستقلال عندما تمّ الصلح والوفاق بين حلقتي العزابة لسـنة 1962م، ولا شك أنّ ذلك الجوّ الهنيّ لم يتوفّر إلاّ بجهود الرجال المخلصين الأوفياء من

أبناء هذا البلد الأمين فما منهم إلاّ له مقام محمود، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا.

وبديهّي أن تكون لتلك النهضة العلمية آثارها الاجتماعية المحمودة في كلّ مرافق البلد. إذ كان المسجد هو القلب النابض في جسد المجتمع، فقد عرف هو الآخر دماء جديدة في حلقته تدفقت في شرايين المجتمع بالخير والنماء بعد أن عرف المسجد نفسه إصلاحات جذرية في هيكله الماديّ بالتجديد الكامل في السّتينيات من القرن الماضي.

ومن خلال منبره الحيّ عرف المجتمع تلك الإصلاحات المتعدّدة في تطوير عادات أفراحه وأتراحه وتجمّعاته، وفي تقويم كثير من الاعوجاجات السلوكية في العادات والتقاليد العامّة بما يتناسب مع التطورات الجذرية القاهرة التي عرفتها المنطقة في تحدّيات سافرة، وتعويم خطير.

وأنا إذ بدأت أشعر بالشيخوخة والوهن. وبدأت أقلّص من مسؤولياتي الاجتماعية فقد عزّ عليّ أن أترك الخلل في الصفّ أو الفراغ في مقام المسؤولية. ولذلك سعيت في توزيع تلك المسؤولية على الخلائف الأكفّاء سواء في إمامة الجمعة، أو في مهمّة الوعظ والإرشاد وحتّى في مسؤولية الفتوى، إذ تكفّل بكلّ ذلك أساتذة ومتخصّصون ما زلت أشدّ أزرهم وأصاحبهم جهد المستطاع لمتابعة المشوار، ولله عاقبة الأمور.

وأما في المجال السياسيّ: فهو المسلك الذي ما اقتحمته إلاّ مضطرا لما فيه من مطبّات وأشواك لا أحسن تفاديها ولكن ما حيلتي وقد تعترض الإنسان في حياته ما يأنفه طبعه ولكنه يتمثل بقول الشاعر:

إذا لم يكن غير الأسنة مركبا فلا يسع المضطرّ إلاّ ركوبها

وبحكم مشاركتي في العمل السريّ الثوريّ إلى جانب رفاقي المجاهدين فقد أصبح لزاما عليّ متابعة الجهد في طور البناء والتشييد متقلّدًا لمهمة

النيابة عن بلدتي في البلدية الأمّ بغرداية لفترتين متتاليتين من 1967 إلى 1977م. وهي الفترة العصيبة التي تمخضت عن تحويلات جذرية في تأسيس الدولة الجزائرية سيّما بعد التصحيح الثوريّ في جوان 1965م وقد صدر قانون الثورة الزراعية لسنة 1971م عانينا في تطبيقه الأمرّين ما بين الأوضاع المألوفة لدى الجماهير الشعبية، ورغبة السلطة في وجوب التطبيق والتنفيذ وكان من البديهي أن يختار النواب المنتخبون من صفوف المناضلين في حزب "جبهة التحرير الوطني" الحزب الحاكم الوحيد الذي كان على رأس النظام، وهو المرجعية الوحيدة لإصدار القوانين وتنفيذ الأحكام، وتعيش الجزائر بعد ذلك أياما حالكة بعد أحداث أكتوبر 1988م. وإعلان الديموقراطية والتعددية الحزبية، وتعرف منطقتنا كغيرها من المناطق الأخرى أزمات واجهتها بالدماء والدموع، وكانت الألطاف الربانية قد درأت عنّا كثيرا من المصائب والويلات.

وشاءت حكمة الله أن يرتحل عنا الشيخ القرادي ملبّيا نداء ربّه في البقاع المقدسة سنة 1989م. وكان -رحمه الله- لسان صدق لنا في كلّ المجالس العرفية بالمنطقة، فأصبح لزاما عليّ أن أنهض بعده بتلك المسؤولية، سيّما في مجلسي: "الكرثي، وعمّي سعيد"، و"جمعية قدماء التلاميذ" تحت إشراف الشيخ عدون -رحمه الله- فأصبحت متمثلا بقول المتنبي:

أصارع جندا من فوارس الدّهر وحيدا، وما قولي كذا ومعي الصّبر

نعم: إنّه الدور التاريخي الهامّ، لا بدّ من القيام به، حتّى لا يدبّ الوهن في الصفوف من قبلنا، ونحن المتسابقون إلى كلّ مكرمة، فما عدّتنا في ذلك إلاّ الصبر والإخلاص، فمن أوائل التّسعينيات أصبحت السّفير الوفيّ لجماعتنا في تلك اللّقاءات ومعي ثلة من الإخوة ممثلي العزابة والأعيان، فكم هو قاس محكّ التجربة!... وكم هو صعب أن تركز أوتاد خيمتك في الرياح الهوج، فقد تهافتت

الأصوات، وتشعبت المسالك، فتحفّز المغامرون، وكثر الأدعياء، وفي غمرة القلق والاختيار، لا تمادنك الظروف لحسن الاختيار، فما علينا إلاّ أن نسدّد ونقارب، وقد نحابي ونجامل، وليس لنا بعد ذلك إلاّ لطف الله، وهو القويّ العزيز.

تابعت مشواري مع رفاقي، وتتعثر خطاي مع الشيخوخة والمرض، فلا مفرّ من الترفق وشدّ الأنفاس، فلكلّ رحلة نهاية، ولكلّ أجل كتاب. فاللّهم رحماك، فأنعم علينا بخير الخاتمة وحسن المآب.

06- الخاتمة:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء محمول

كلّ يزول وينقضي أما الحمى ... فوديعة الآباء للأبناء

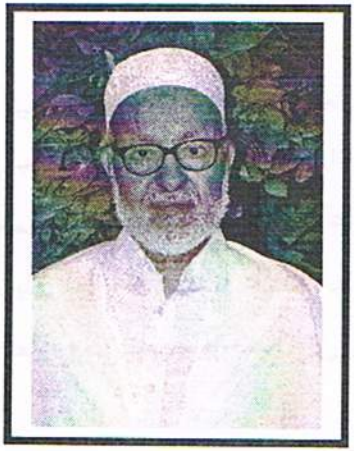
إذا كان خير الأعمال ينظر إليها في خواتمها، وخير ما يرتقبه المؤمن الوفي هو لقاء ربّه، فإنّني أصبحت -بفضل الله- في تلك المرحلة من العمر. وليس لي فيها من لذة أو متعة إلاّ أن أجلس إلى مكتبي أحقّق درسا للتفسير، أو أدوّن صفحة في أقوم تحرير وأصدق تعبير، وقد عزفت عن دنيا الناس، وزهدت في الدنيا ومتاعها. وحبّبت إليّ الخلوة مع نفسي، أستعرض شريط الماضي فتتعاقب الأحداث على صفحة ذاكرتي. فمنها الوضيء المشرق، ومنها الباهت الحزين، وتلك سنّة الحياة، لا نملك لها ردّا ولا تحويلا، وحسب اللّبيب العاقل أن لا يكون فيها مغلاقا للخير مفتاحا للشر، لأنّ ذلك هو قاصمة الظهر، بما ينجرّ عنها من سوء الذّكر فإذا كان رسول الله يقول في حديثه القدسيّ: «**طوبى لمن خلقته للخير وأجريب الخير على يديه**».

فإنّني أرجو من الله العليّ القدير أن أكون من هذا الصّنف دون منّ ولا رياء، فقد حملت لبلادي بين جوانحي منذ نعومة أظفاري حبّا غامرا وأملا فيّاضا أن أمنحه من جهدي وعرقي ما يثبت أركانه ويعلي بنيانه

ويرفع شأنه، ورجائي في الله أنّني وفيّت بما تعهّدت، وقمت بما استطعت، ويعلم الله أنّني ما طلبت زعامة ولا انتظرت شكرا أو محمدة، بل كلّ ما أرجوه من أبنائي ورفاقي هو شرف الأحدوثة، وكرم الإنصاف وحسن الذّكر، تحقيقا لما تمثلت به من قول الشاعر.

وما خاب بين الله والنّاس عامل له في التّقى أو في المحامد سوق

العطف يوم الجمعة 20 شوال 1430هـ الموافق ليوم 09 أكتوبر 2009م



الأستاذ: بكلي بابه الحاج أحمد بن حمو " بلال "

— 1931

الوطنيّ الغيـــور

مضى زمـــن كـــان فيـــه الفـــتى ... يبـــاهي بمـــا قومـــه أثلـــوا

ويرفعـــه في عيـــون الأنـــام ... ويخفـــض مـــن قـــدره المـــترل

فلا تقعدن عـــن طـــلاب العـــلا ... وتعـــذل بـــلادك إذ تعـــذل

فـــإنّ الخلائـــق حتّـــى عـــدا ... ك مـــتى مـــا ســـبقتهم هلّلـــوا

فثـــابر بجـــدّ علـــى نيلـــها ... فلـــيس يخيـــب الـــذي يعمـــل

وكـــن رجـــلا ناهضـــا ينتمـــي ... إلى نفســـه عنـــدما يســـأل

إذا كنت مـــن مـــوطن خامـــل ... وفزت فأنت الفـــتى الأفضـــل[1]

1- إليا أبو ماضي.

المقدمة:

الحمد لله المدبّر الحكيم، بيده الأمر كلّه وهو العليّ العظيم، نحمده تعالى حقّ حمده، ونشكره على جزيل نعمه، إذ خلقنا وهدانا سبل رشدنا، ونحن نشق طريقنا في الحياة، مغمورين بألطافه، محفوفين برعايته وحفظه، نشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين.

وبعد:

فلله درّ أمير الشعراء حين قال:

فعلّم ما استطعت لعلّ جيلا سيأتي يحدث العجب العجابا
فربّ صغير قوم علّموه سما فحمى المسوّمة العرابا
وكان لقومه عزّا وفخرا ولو تركوه كان أذى وعابا

نعم!... كم من رجال أفذاذ خلّدنا أسماءهم ممّن حملوا مشعل النهضة والإصلاح في بلدتنا الطيبة "العطفاء"، وبرزوا في ساحات التضحية والفداء، في هذا الوادي الأمين "وادي ميزاب"، قادة وروادا في ميادين الحياة، ذاقوا حلوها ومرّها، أو جنودا مجهولين يعملون في رزانة وصمت، لا تبدو عليهم عجرفة ولا يشكون من رهق ولا وعناء، يحسبهم الجاهل أخلياء من الهمّ والغمّ وهم قمّة في العزيمة والمضاء. يصدق فيهم قول من قال:

ترى الرّجل النّحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور

فما أصدق هذا الوصف برفيقنا الكريم الأستاذ: بكلي بابا أحمد بن حمو. والمشهور بلقب: "بلال"، ولَنعم الدور المختار له في رواية: "بلال بن رباح" وهو ما يزال طفلا يافعا تنتظره يد الأقدار لنجعل منه رائدا يصدق أهله في مسيرة النهضة والإصلاح، فمن هو هذا الرائد الفذّ؟ وكيف تبوّأ تلك المكانة في صفّ الرواد والأدلاّء؟

01- المنشأ والأسرة:

هو من مواليد العطفاء خلال سنة 1931م، من أبوين فقيرين، لم تبتسم لهما الحياة إلاّ لماما، في وقت كان فيه الاستعمار البغيض قد أحكم قبضته على بلاد الجزائر كلّها، وعرفت منطقة الجنوب الجزائري أعتى حكم عسكريّ، زاد لقساوة الطبيعة وطأة وعنتا على المواطنين، مع شدّة المؤونة وشحّ من السماء استمرّ لمدة عقود.

كان الأب المسكين السيّد بكلي بابا حمو بن بابا عمي مع زوجته الوفية السيّدة سماوي عائشة بنت باحمد يسكنان في بيت بسيط بحيّ "عيسى وموسى"، وقد لفّهما الفقر المميت بثوبه الأسود وعضّهما بنابه، وليس غالبية الأسر يومئذ بأحسن منهما وضعية سيّما عند الأزمة الاقتصادية العالمية في الثلاثينيات من القرن الماضي، فما حيلة الأمّ الحنون وقد رزئت في زوجها بعد فترة قليلة من زواجهما، إذ أصيب زوجها بخلل عقليّ أخذ يشتدّ عليه، ولم تجد في علاجه الوسائل التقليدية فأرسله أولياؤه إلى فرنسا للعلاج الحديث، فشاءت حكمة الله أن يريحه من عناء المرض، إذ وافاه أجله هناك سنة 1937م.

فلم تطرف به عينا ولده أحمد، ولم يحظ بحنوّ الأبوّة كما كان شأن أخيه الأصغر السيّد بكلي بابا بابا عمي بن حمو، إذ كان يكبره أخوه أحمد بسنة واحدة. وبالتالي فقد رضع لبان الغيل، فنشأ نضوا نحيفا؛ إذ لم يتوفر له الغذاء الكافي حتّى من الحليب الصناعيّ لقلّة ذات اليد، ولا وسيلة للمرضعات الفقيرات يومئذ إلاّ التمر والسمن أو الخبز مع الشاي. فكيف للرضيع المتماوت الجائع أن يقوى على المشي في السنّ الطبيعية؟ وقد أصيب بمرض الكساح وبقي لصيق الأرض حتّى السنّ الرابعة من عمره، بينما أخذ أخوه الأصغر يمشي قبله بمدّة كبيرة. وأمّا الأخ الأكبر المرحوم السيّد بكلي بابا محمّد بن حمو فقد باعد بينهما فارق السنّ فنشأ سويّا قويّا.

كابدت الأمّ الرّؤوم مع أطفالها الثلاثة هموم الحياة لتوفّر لهم أدنى وسائل العيش معتمدة على الله وعلى نفسها بما كانت تقوم به من أعمال النسيج و لم يكن للعشائر يومئذ دور اجتماعي تكفل به أبناءها، فما أضيع الأيتام في غضون تلك الأيام!

وهناك مثل شعبيّ يقول: "إذا أهنت فعليك بأبناء عمومتك، وإذا جعت فعليك بأبناء خؤولتك"، وفعلا فقد وجد الطفل شبعا وريّا عند أخواله "آل سماوي" فغدا يتردّد عليهم في حيّ "بو سالم" سيّما عند جدّته السيّدة سماوي فافة بنت الحاج عيسى. والله تعالى لا يضيّع خلقه.

02- مراحل دراسته الأولى:

كانت غالبية الأسر الفقيرة في البلدة تحتضن أولادها في أوّل أعمارهم، إذ كان أغلب الأولياء أجراء عند بني عمومتهم في الشمال، والقليل من هؤلاء من كان يملك دكانا يأوي معه أولاده لرعايتهم وتعليمهم، فكان من الطبيعي أن يبقى الأولاد الفقراء مع أمّهاتهم حتّى يشبّوا عن الطوق، وليس لهؤلاء من فرصة للتعليم العصري، إلاّ ما يكون من محاولات محتشمة لبعض المعلّمين في كتاتيب البلدة، مثل كتّاب "أبي سالم" الذي كان يشرف عليه المعلّم المثالي المرحوم السيّد: الحاج إبراهيم محمّد بن بهون. فقد التحق الفتى بهذا الكتّاب لسنة 1937م فحفظ حصة من القرآن، وتعلّم بعض المبادئ العربية. ثمّ انتقل إلى كتّاب المسجد العتيق لسنة 1944م، حيث كان يدرّس مبادئ العربية الأستاذ المرحوم السيّد بابا عمي الحاج أحمد بن الحاج موسى، ويقوم على تحفيظ القرآن الأستاذ المرحوم السيّد خير النّاس مسعود بن طالب إبراهيم.

وقد أتمّ الفتى ختم القرآن هناك، وصادف ذلك قيام الشيخ الإمام بيوض الحاج إبراهيم بن عمر -رحمه الله- بجولاته الدعائية الكبرى عبر "وادي ميزاب" بعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها في أواخر سنة 1944م. وقد

تهيأت العطفاء كغيرها من مدن ميزاب لاستقباله بحفاوة وتكريم، فتأخذ بذلك الحركة الإصلاحية دفعا قويّا لتغيير الأوضاع وتصحيح المفاهيم. وقد تكفّل الأستاذ المرحوم الشيخ بكلي أحمد بن الحاج يحيى بإعداد البرنامج الثقافي للأيام الثلاثة التي تحدّدت لزيارة الإمام بيوض، فاختار الفتى ليكون ضمن التلاميذ الذين يمثلون رواية "بلال بن رباح" للشاعر الجزائريّ محمّد العيد آل خليفة، فقام بدور بطل الرواية "بلال" أحسن قيام، ومن ثمّ لازمة لقب "بلال".

ولما كان لها من الإعجاب عند أوليائه رشحوه لعضوية البعثة البيوضية في القرارة لنفس التاريخ، ففي أكتوبر 1944م شدّ رحاله إلى مدرسة الحياة ضمن الكوكبة المختارة من أبناء البلدة، وهم: سماوي صالح بن طالب عمر، الحاج إبراهيم أحمد بن محمد "الزّيت"، بكلي عيسى بن بنوح، الحاج أحمد محمد بن الحاج سعيد.

ودّعت البلدة أبناءها الطلبة كما يودّع المجاهدون، كيف لا؟ وهم النفر المختارون للتفقّه في الدين امتثالا لقوله تعالى: ﴿**فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾[التوبة:122].

التحق الفتى بالقسم الثاني من مدرسة الحياة وتدرّج منه إلى القسم الأوّل لسنة 1945م، وفي أحضان البعثة تعلّم الفتى كيف يواجه متاعب الحياة، ويتدرب على الحياة الجماعية بكلّ ما تتطلبه من التعاون ومن المكابدة والمصابرة، إذ كان رئيس البعثة يومئذ السيّد "أوراغ الحاج أحمد بن عمر" لا تعوزه الحنكة والدهاء في الأرسان، وهو لا يقعقع له بالشنان.

أكمل الفتى دراسته الابتدائية بنجاح في آخر السنة من جويلية 1946م، ولكن بقي عليه أن يقطع البرزخ المهيب، ليلتحق بالمعهد في زمن قريب، إنّه استظهار القرآن عن ظهر قلب، فهو التأشيرة المفروضة من

طرف الإمام بيوض للدخول في المعهد. فما على الفتى إلاّ أن يستعدّ للمرور، مهما كلّفه ذلك من صبر وتحمّل لقضاء العطلة الصيفية هناك مع بعض الرفاق ممّن كانوا في مثل وضعيته. إنّه وجه آخر للمعاناة، يكبت الأشواق والحنين إلى مسقط الرأس والإيناس بالأمّ الحنون، ولكنّه الضريبة الواجبة لحفظ كتاب الله أدّاها الفتى بكلّ عزيمة وثبات. فاستظهر القرآن بإشراف الشيخ عمر بن الحاج سعيد لبسيس، وبالمتابعة النهائية عند الإمام المرحوم الحاج أحمد بن حاج إبراهيم أوجانة، وذلك عند منتصف شهر نوفمبر 1946م. ثمّ التحق بالسنة الأولى من معهد الحياة متأخرا عن بداية الدراسة بحوالي شهر ونصف.

وهكذا فرض عليه التواصل في الغربة لسنتين كاملتين أي إلى صائفة سنة 1947م، فذبلت بذلك نضارة جسمه وخفّ وزنه من الهزال إلى درجة تنذر بالخطر، زاده إنهاكا انتشار الدماميل في جسده، وليس له من دواء لها إلاّ الوسائل البسيطة من الطبّ الشعبيّ.

03- بناء عشّ الزّوجية:

أكمل الفتى دراسته الثانوية بمعهد الحياة بنجاح لشهر جويلية 1951م وقد بلغ العشرين سنة من عمره، وأيّ أمر ينتظر الفتى في مثل تلك السنّ وفق تقاليدنا غير بناء العش العائليّ مهما كانت عليه الأسر من بسطة العيش أو كفافه؛ لأنّ ذلك يندرج في حقّ الولد على والديه، إذ يأخذ الزواج الشرعيّ عندهم معنى تحصين الدين وتقلّد شارة الرجولة.

ففي 13 أبريل من سنة 1953م أقيمت الأفراح لزواج الأخوين معا: أحمد وبابا عمي فاقترن الأوّل بأمّ أولاده السيّدة سماوي عائشة بنت صالح بن حاج محمّد. فأنجبت له من الأولاد ولديه: إبراهيم وعيسى وعشرا من البنات هنّ: مامة، بيّة، فاطمة، لالة، عائشة، فتيحة، حنّة، نانة، مسعودة، صليحة.

فتعاون الزوجان على حلو الحياة ومرّها، وكتب الله للأمّ أن تكمل تربية أولادها تربية مثلى على النهج السويّ تعليما وسلوكا نظيفا وتزويجا، حتّى متّعها الله بأحفادها الكثر، ثمّ قدّر الله لها أن تحجّ مع زوجها لسنة **1422**هـ/ **2002**م، فأسلمت الروح إلى باريها هناك في مكة المكرمة، وحظيت بالصّلاة عليها تحت أستار الكعبة المشرفة راضية مرضية -إن شاء الله-، فبنى الأب بزوجه الثانية السيّدة بهون علي عائشة بنت عمر. وتلك سنّة الحياة تبتسم وتعبس، وتسعد وتبئس.

فاصبر على نعم الحياة وبؤسها نعم الحياة وبؤسها سيّان

فإذا جرت عادة الناس أنّهم يعتبرون الأيام الأولى من الزواج شهر عسل، فدون جني العسل وخز إبر النحل، ومن العنت والألم تنبثق اللّذة وتتفتق أكمام السعادة والهناء، فما على الفتى إلاّ أن يعتمد على نفسه في توفير ضرورات العش العائلي، ولا يتسع المجال للارتزاق في مألوف منطقتنا إلاّ في العمل التجاريّ التقليديّ يومئذ أجيرا بسيطا أو شريكا أمينا في أحسن الأحوال.

ذلك ما حاوله مع الفتى ابن عمّه المرحوم السيّد: بكلي بابا إبراهيم بن عيسى في مدينة الجلفة، إذ فتح له دكانا صغيرا يقوم عليه بمفرده حتّى يتدرب على العمل وتحمّل المسؤولية، ويريد الله للفتى غير ذلك، استمرارا على طريق المعرفة والتحصيل في آفاق أرحب، في ربوع تونس الخضراء، فكيف تمّ ذلك؟

04- في ربوع تونس الخضراء:

إذا قدّر الله أمرا هيّأ له أسبابه، ففي السنة التي توجّه فيها الفتى إلى التجارة في الجلفة، عرّج عليها كلّ من الإخوة من سراة "آل عبد الله"، كلّ من: الشيخ بكلي عبد الرحمان بن عمر، الشيخ الحاج أيوب الحاج إبراهيم -قرادي-، السيّد بابا عمي الحاج إبراهيم بن الحاج محمّد. فالتقوا بالشريكين

الأخوين: بكلي بابا إبراهيم بن عيسى وابن عمّه بكلي بابا محمد بن حمو ففاوضوهما في شأن التحاق الفتى بتونس.

وقد فتحت في تلك السنة 1953م دار البعثة البيوضية في نهج ابن خلدون باب المنارة في تونس، فعلّق المتفاوضون أمر ذلك بقبول الفتى نفسه ورغبته في ذلك. ونظرا لشعوره بمسؤولية الأسرة، فقد كبر عليه أن يتركها لمفاجآت الأقدار، فأظهر امتناعه في أوّل الأمر، وبعد تقديم الضّمانات من المفاوضين في التكفّل بشؤون الأسرة أبدى قبوله نزولا عند حسن ظنّهم.

تهيّأ للرحيل إلى تونس في أوّل أكتوبر من سنة 1953م صحبة رفاقه الإخوة: سعيد محمّد كعباش، سماوي أيوب بن حاج محمد، سماوي صالح بن حاج عمر. وكان رائدهم في تلك الرحلة سعيد محمّد لخبرته السابقة في تلك الديار. تمت الرّحلة بنجاح مرورا ببرج بوعريريج فقسنطينة فسوق أهراس على متن القطار دخولا إلى الديار التونسية من معبر "غار دماو" في الحدود التونسية الجزائرية.

وكان على الفتى أن يختار ما يناسب مستواه من التعليم في جامع الزيتونة، فالتحق بمستوى شهادة الأهلية بفرع جامع سيدي ابن عروس كمستمع حرّ؛ إذ لا سبيل إلى الانخراط الرسميّ نظرا لفقدان أي تنسيق أو تكامل في البرامج الدراسية بين الزيتونة ومعهد الحياة، ومرّت تلك السّنة مضطربة باندلاع الثورة التونسية، ونشاط لجنة صوت الطالب الزيتوني في الاضرابات والمسيرات للمطالبة بتحسين وضعية التعليم وتطويره إلى مستوى التعليم الجامعيّ الحديث، فلم يكن بدّ لكلّ أبناء معهد الحياة من المتابعة الحرة يختارون المواد المناسبة لهم في التعليم الثانويّ أو العالي. ويستمعون إلى العلماء البارزين أمثال المشايخ: محمد الزغواني، محمّد الفاضل ابن عاشور، البشير النيفر، محمد الحبيب بن الخوجة وغيرهم كثيرون.

وإلى جانب ذلك كان التعليم المسائي في المعهد الخلدوني لمن أراد متابعة العلوم التطبيقية في الرياضيات والعلوم والكهرباء ...الخ، ويمكن للطالب أن يسجّل اسمه رسميّا للمشاركة في الامتحانات. وفي ذلك الجوّ المشحون بالاضطرابات، فإن الطالب لا يعدم تحصيلا واستفادة من مختلف الندوات والمحاضرات في كلّ يوم تقريبا إذا ما توفرت له العزيمة والإدارة، ففي رحاب الحواضر الكبرى يزهو العلم وتزدهر الثقافة ويتنافس العلماء والأدباء. وقديما كان الإمام مالك قد وصّى طلابه من شمال إفريقيا قائلا لهم: "لا تسكن القرية فيضيع علمك".

05- المغامرة الثّورية والسّياسية في تونس:

كان نظام البعثة صارما في تأطير الطلبة وضبطهم لتحصيل العلم حتّى لا تطوّح بهم المتاهات السياسية، فيضيعون في ديار الغربة، ثمّ لا يجدون سندا ولا نصيرا. ولكن حماس الشباب كان يغلب -أحيانا- على بعض الطلبة فيندفعون للمشاركة دونما حذر من العواقب، وكان الفتى من ذلك النوع المتحمّس المقدام، يحاول مع بعض رفاقه مثل الشاعر المرحوم: الخرفي صالح أن لا يبقى منعزلا عن الأحداث التي كانت الأمانة التنفيذية للحزب الحرّ الدستوريّ توجّهها وتخوض غمارها، فيجد نفسه متفاعلا معها في إقدام ومغامرة، ويصيح صيحته الكبرى في دار البعثة معتزا عند اندلاع الثورة الجزائرية المباركة ويراها فرصة مواتية لإرضاء طموحاته، حتّى إذا تكوّن مكتب جبهة التحرير الوطنيّ بتونس في أوائل سنة 1956م أصبح ضمن كوكبة من الطلبة الجزائريين ممن يطلبون التجنيد في صفوف جيش التحرير الوطني للالتحاق بالجبال الجزائرية، غير أن النظام اختار منهم ستين يومئذ، وأرجأ الآخرين، ومنهم الفتى الطالب إلى فرصة أخرى يواصلون دراستهم ويستعدّون لمفاجآت النضال والعمل السريّ المحكم.

ولجبهة التحرير الوطنيّ في الخارج عمل دؤوب لتلبية طلبات الداخل من المؤن والسلاح، والقيام بشؤون الطلبة واستقبال اللاجئين تأطيرا وتعليما وإيواء، فرأى الفتى أن يتعلّم فنّ الاختزال في مدرسة خاصّة، يكون له خير أداة للمراسلات وتدوين الأحداث في سرّية تامّة، ولم يحصل له ذلك إلاّ لبضعة أشهر.

ومن دواعي الفخر والاعتزاز التي تحقّقت للفتى هناك أن شارك مع ثلة من رفاقه الطلبة في إعداد النشيد الوطني للثورة الذي أنشده الشاعر مفدي زكرياء، وقد قدم إلى تونس صحبة صديقه الأستاذ محمّد الحاج النّاصر الكبير لغرض التحضير للكتاب الأبيض الذي يفضح المكيدة المدبّرة لمقاطعة التجار الميزابيين في بعض المدن الجزائرية. وبالتنسيق مع لجنة التّنسيق والتنفيذ للثورة أعدّ شاعر الثورة النشيد الوطنيّ "قسما بالنّازلات الماحقات"، وكان التّلحين الأوّل له من طرف الملحن التونسي الأستاذ: "محمد التريكي"، ثمّ التدريب عليه في دار البعثة، وكان الفتى ضمن المجموعة الصوتية وهو الذي تكفّل بمرافقة الملحن من داره إلى دار البعثة في كلّ مرة.

لكلّ ثورة عثرات تفرضها الظروف القاسية، ولعلّ أسوأها أثرا في مسيرة الثورة اعتقال الزعماء الخمسة باقتناص فرنسا لطائرتهم التي كانت تقلّهم من المغرب إلى تونس ليوم 29 أكتوبر 1956م. وحدث يومها من الاضطربات والاحتجاجات في شوارع تونس ما عبّر به الشعب عن غضبه وسخطه لتلك الخيانة المفضوحة، كان الفتى في أتونها هائجا غضوبا، فتأزمت الأوضاع واحتدم الصراع، فعزمت فرنسا على غلق الحدود، ووضع الحواجز والسدود المكهربة.

فهل للفتى من مسلك آمن للعودة إلى الوطن؟ فتلك مغامرة أخرى يلعب القدر فيها دوره.

06- العـودة إلى الوطن المعَنّى:

إنّها لمغامرة كبرى دونها الموت المحقّق في كلّ لحظة، ولكن لا مناص من الإقدام عليها، إذ لا سبيل إلى التحصيل العلميّ للفتى بعد أن اضطربت البلاد، ودعا داعي الجهاد، فلنستمع إليه يقصّ أحداثها ويقول: "في تاريخ 30 أكتوبر 1956م غادرت تونس مع صديقي بغباغة أحمد بن عيسى على متن القطار قاصدين أرض الوطن، وكان الدخول إلى الجزائر في تلك الأيام مغامرة خطيرة تعرّض صاحبها للإعدام كما وقع للكثير ممن حاولوا ذلك.

ففي "غار دماو" من الحدود التّونسية الجزائرية، أنزلنا الجيش الفرنسيّ من القطار وأيدينا فوق رؤوسنا والرشاشات مرشوقة خلف ظهورنا، ومع الضرب والركل والسبّ اقتادونا إلى مخيّم حيث استجوبوا كلاّ منّا على حدة، تحت التهديد والوعيد. بعد أن جرّدونا من ملابسنا، وفتشوا أمتعتنا بدقة. وبعد تلك الفترة العصيبة من البحث اقتادونا إلى سيارة مصفحة وقيل لنا: بما أنّكم لم تصرّحوا و لم تبوحوا بالحقائق عما كنتم تقومون به من أعمال في تونس وما أنتم عازمون على القيام به في الجزائر، فإنّكم ستلقون جزاءكم كما لاقاه الكثير من الطّلبة ممن هو على شاكلتكم.

وبعد هنيهة طلع علينا الضابط المسؤول وقال لنا بصوت حادّ: ماذا أنتم قائلون في ما نحن عازمون على القيام به أزاءكم؟. فأجبنا بصوت واحد: نحن بين أيديكم اعملوا بنا ما شئتم. وبعد لحظات من التشاور بين الضباط سمعنا صفارة القطار بعد تعطيل دام أكثر من ست ساعات، فتوقعنا أن السّاعة قد دقّت، فإذا بذلك الضابط يأمر السائق بالتوجّه بنا نحو القطار تحت حراسة مشدّدة، ليقلع بنا نحو سوق أهراس فتنفسنا الصعداء، إذ وجدنا الأخ خير النّاس محمّد بن عمر في انتظارنا، وعند الأخ بوصوفة عمر بن إسماعيل كان مبيتنا، ثمّ استأنفنا طريقنا إلى قسنطينة وصادفنا فيها إحياء الذكرى الثانية

للثورة. وكان في استقبالنا هناك الأخ الحاج إبراهيم عيسى بن سليمان "عزبار" حيث كان في متجره مستقرنا لثلاثة أيام برفقة الأخوين: الحاج عيسى إبراهيم باحماني، والشهيد: الحاج عيسى إبراهيم بن إبراهيم".

عاد الفتى الطالب إلى أرض الجزائر، وهي مشتعلة بنار الثورة يحتضنها الشعب مؤمنا بقضيته العادلة، وتسير الركبان بأقاصيص البطولات، تذكي النخوة والحماس في النفوس، وتقتلع جذور الخائنين الجبناء، وتهزّ عروش الطواغيت التعساء.

07- جهاده التّربويّ والاجتماعي:

ما تزال فرص العمل الحيويّ حكرا على المثقفين الفرنسيين ومن على شاكلتهم من أعوان الاستعمار البغيض، ولا مجال للمثقفين بالعربية إلاّ التعليم الديني في المدارس الحرّة التي أسّستها الحركات الإصلاحية في الشمال والجنوب.

فبعد أن التقط الفتى أنفاسه بعد رحلته المضنية التحق بمدرسة النهضة في الموسم الدراسي: 1956- 1957م. معلّما ومربّيا إلى جانب رفاق له كلّ من الشيخ الحاج أيوب الحاج إبراهيم - قرادي-، سعيد محمّد بن إبراهيم -كعباش-، خير النّاس مسعود بن طالب إبراهيم، من بعدما أسّست الجمعية الأقسام الخمسة الأولى من هيكل المدرسة، وبذلك تحقّق استقراره في البلد، ليصبح من بناة صرحه الثقافي والاجتماعي، وكان تعليم الأجيال هو الوسيلة الناجعة لكلّ نهضة مباركة تهدف إلى الإصلاح والتغيير كما قال أمير الشعراء:

فعلّم ما استطعت لعل جيلا سيأتي يحدث العجب العجابا

وما التعليم الحرّ في تلك الظروف العصيبة إلاّ نوع من الجهاد يعرّض المعلّمين إلى ضروب من المعاناة بزهادة أجره من جهة، ووضع المعلّم تحت الرقابة الصّارمة من طرف الاستعمار وأعوانه من جهة أخرى، غير أنّ الألطاف الإلهية كانت تحفّنا، فلم تنل من عزائمنا عين الخؤون، وكان المعلّم

يومها هو المرجعية الموثوق بها من طرف الجماهير، تلقي إليه قيادها، وترجع إليه في كلّ صغيرة وكبيرة، فلم يدّخر الفتى المعلّم وسعا في العمل الاجتماعي تأطيرا وإرشادا متعاونا مع رفاقه المعلّمين ومتكاملا معهم في كلّ المواقف والمناسبات، وعلى كلّ المستويات، حتّى بلغ قمّة الهرم الاجتماعي عندما تعيّن عضوا في حلقة العزابة لسنة 1960م مع كلّ من المرحومين: قرادي الحاج إبراهيم، وبابا عدون الحاج مسعود بن رمضان.

وفي رحاب المسجد العتيق، وعندما قامت الأشغال لتجديد بنائه كليه سنة 1960م، قام الفتى العزابي بجهد مشكور ضمن أعضاء لجنة العمل التي كان يرأسها المرحوم السيّد: سعيد الحاج صالح، إذ كان الفتى يقوم كلّ يوم بضبط عدد العمال ومراقبة مواضع عملهم إلى جانب المشاركة في جلسات اللّجنة التي كانت تنعقد كلّ يوم تقريبا لتنسيق العمل واستدعاء المحسنين للتبرع.

وفي إطار "جمعية النهضة"، وبصفته عضوا إداريا بعد تجديد المكتب لسنة 1971م اطلع بأمانة المال جمعا وضبطا وإنفاقا، مما أعطى للجمعية دفعا قويّا في استكمال هياكل المدرسة وما يتبعها من أقسام للتكوين المهنيّ والمكتبة، ولا يزال يضطلع بهذه المهمّة إلى يوم النّاس هذا بصبر وعزيمة، وهو يعمل بهدوء ورزانة، وكان يصحبه في كلّ الجولات المالية المرحوم: الحاج إبراهيم بن يحيى - قرادي- وبعد وفاته خلفه في ذلك المرحوم الحاج إسماعيل الحاج يحيى، يصحبه كظله، وكان لا يشكو رهقا، مما يدلّ على الوفاء والإخلاص في الصحبة.

وفي إطار عشيرته تكاملت جهوده مع الشيخ الحاج أيوب الحاج إبراهيم -قرادي- في تحديث دار العشيرة وترشيد مهامّها في القيام بدورها الاجتماعي، وله بين أبناء عمومته المقام المرموق والكلمة المسموعة. وكم من مواقف تقتضيها شؤون البلد تدعوه للحضور والمشاركة مع رفاقه

وتبادل الرأي فيها فكان لا يتخلف عنها في المنشط والمكره. ولسان حاله يقول مع أبي فراس:

سيذكرني قومي إذا جدّ جـدّهم وفي اللّيلة الظّلماء يفتقـد البـدر

08- جهاده الثّوريّ والسّياسيّ:

عاد الفتى إلى مسقط رأسه -كما تقدّم- في منتصـف الخمسـينيات، وأرض الجزائر تشتعل ثورة وجهادا، وكان ما حاوله في تونس مـع جبهـة التحرير الوطني من الانضمام إلى الجيش، كانت إرهاصا لما ينتظـره في أرض العطف في مواصلة الكفاح والنضال. وصادف مقدمه إلى العطفاء في سبتمبر سنة 1957م أولى تحركات جيش التحرير في منطقة ميزاب بصفة عامّـة، وفي بلدة العطف بصفة خاصّة، ولكنّها تحركات كانت تتسم بنوع من التسـابق والتنافس على منطقة غرداية بين الولايات من جهة، وبين جبهـة التحريـر الوطني "F.L.N" وجيش الحركة الوطنية لمصالي الحاج: "F.M.N.A" مـن جهة أخرى. وذلك قبل توافق الحركتين على توحيد القيادة. كما كان لجيش "بلونيس" بتمركزه في العطف تشويش وخيانة أربـك العمـل الثـوريّ في المنطقة: 1960م عندما استطاعت الولاية السادسة التاريخية القضاء على حركة "بلونيس" وبعدها كان تنسيق العمل الثوريّ المنظم.

كان الفتى المعلّم ضمن رفاقه في مدرسة النهضة لا يـألون جهـدا في الاتصالات السرّية بالمسؤولين تسلّلا منهم إلى داخل المدينة من نوافذ المدرسة، أو لقاء بهم خارجها في مختلف الأجنّة، وقد تمكن الرائد الشّهيد: "أحمد طالبي" من تنظيم المجالس السرّية للثورة في مطلع سنة 1961م، فإذا بـالفتى المناضـل يكلف برئاسة المجلس الثوريّ رقم 1173 داخل البلدة، بعد أن كان يعمـل في إطار المجلس رقم 1175 خارج البلد برئاسة الأخ لخضر بـرزاق. ثمّ اقتضـت طبيعة التنظيم المحكم ضمّ المجلسين في مجلس واحد يرأسه الفتى تحت رقم: 313

ومعه أعضاء مساعدون، وبذلك أصبحت العطفاء مركز القيادة للمنطقة الخامسة من الولاية السّادسة، تحت إشراف الملازم الثاني "علي شريف" بعد أن كان مسؤولا للمنطقة الثالثة وأمّا الملازم الأوّل "رشيد الصّائم" فكان مسؤولا للناحية الثالثة و"الهاشمي الدّارم" مسؤول القسمة (59)، فاتخذوا من وسط المدينة مأوى أمينا لهم ولأعوانهم، ينتقلون من دار إلى دار وفق ما تقتضيه الحيطة والحذر.

وكان الفتى المناضل بحكم مسؤوليته الحسّاسة يشكّل حلقة وصل بين القيادة والعالم الخارجيّ في كامل المنطقة التي تتسع إلى منطقة "تمنراست" في أقصى الجنوب، فأصبح بذلك دائب النشاط في ليل ونهار، يتخذ من نوافذ المدرسة معبرا للمجاهدين، ويترصّد تحركات العدوّ في كلّ مسلك وسبيل مع جماعة من المسبّلين، حتّى إذا دقت طبول النّصر بعد وقف إطلاق النّار في 19 مارس 1962م، تضاعفت مسؤولياته في إيواء المجاهدين وتنظيم مراكزهم بعد أن أصبحت العطفاء منطقة محرّمة على الجيش الفرنسيّ كما تنصّ عليه إتفاقية "إيفيان"، ولا تسل عن استقبال المناضلين وإيوائهم ثمّ توجههم إلى بلدة "الشّارف" للحضور في التجمع الشعبيّ الكبير الذي قرّرته قيادة الولاية السّادسة.

وتحقّق الاستقلال الوطني بعد الإدلاء الشعبيّ "بنعم" لجبهة التحرير الوطني في 05 جويلية 1962م، وجاء دور البناء والتشييد، فمن للأوطان غير بنيها الأوفياء، ومن لقيادات الثورة غير مناضليها لسدّ ثغور البلاد، وقد انجلى عنها العدوّ بعد أن عاث فيها دمارا وفسادا.

ففي أواخر شهر سبتمبر 1962م بدأ مسؤولا المنطقة الخامسة الضّابطان: عليّ شريف، وعليّ بوغزالة، بدءا في تكوين المجالس البلدية تحت ظلال العلم المفدّى، وفقا للتقسيم الإداري الموروث من العهد الاستعماريّ، والذي

خصّص للعطف بلدية مستقلة من سنة 1958م، وكان يرأسها يومئذ السيّد أولاد حاجو سليمان بن باحمد. وقد اختار المسؤولون فتانا المناضل رئيسا للبلدية الجديدة يؤازره فيها عشرة من رفاقه المناضلين ممن اختارهم بنفسه، نزل الفتى لقرار المسؤولين بعد الإشفاق من المسؤولية، فتمّ الطّاقم المطلوب لتيسير البلدية من نواب وكتاب وعمّال.

إنّها تجربة صعبة تحتدم فيها المصالح والمنافع وتتكشف طبائع النفوس، وقد استقرت على برّ الأمان، وأصبحت على حلبة الرهان، وبالرّغم من شح في الإمكانيات المحلية، والفراغ المهول في المسؤوليات الوطنية، فقد أظهر الشعب المعَنّى طاعة وانقيادا لمسؤوليه، وضحّى بكلّ ما لديه في المخاض العسير للدولة الجزائرية الفتية، واحتضن الوليد المبارك أملا منه أن ينشأ سويا ميمون الطالع.

انطلقت البلدية الفتية بخطى ثابتة وبروح من التفاهم والانسجام حتّى أواخر جويلية 1963م، فنعق غراب البين بقرار ضمّ البلديات الخمس لسهل "وادي ميزاب" في البلدية الأمّ بغرداية. فتبخرت بذلك أحلام أبناء العطف الذين أبلوا البلاء الحسن في الثورة، وما تزال صرخات ضباط جيش التحرير تدوّي في آذانهم بأنّهم سيجعلون من العطفاء جنة خضراء، وبلدية مثالية في أرجاء الصحراء، ولكن الأماني حلم في يقظة، ولصروف الدهر أحكامها.

واصل الفتى مشواره السياسيّ والإداريّ في البلديات المتعاقبة في غرداية، سواء في المندوبية المؤقتة من 1963 إلى 1967م، أو المنتخبة من 1967 إلى 1980م، وهو يتعيّن فيها نائبا لرئيس البلدية، وقد اختلفت مرتبته فيها في كلّ عهدة انتخاب، وبعد عودة البلدية الخاصّة للعطف في سنة 1985م أنهى الفتى مشواره الإداري والسّياسي الرسمي بعد عمل دؤوب، غير أنّه لم يتخلّ عن مهامه العرفية في هيئات البلد، ولا يزال على العهد، على ما يشكوه من الوهن

الصّحي بمفعول المرض السكريّ والضغط، كما لا يزال يعمل ضمن أعضاء بعثة الحج الجزائرية في كلّ سنة، ضمن رفاقه ممن يعيّنهم ناظر الأوقاف الإباضية الشيخ أبو القاسم عبد الحميد.

09- أخلاقه وسجاياه:

لا تسأل المرء عن خلائقه في وجهه شاهد من الخبر

كان مرهف الإحساس حادّ الطبع، لا تبدو على مظهره -وهو مسؤول- سيماء الكبرياء والخيلاء، ولا يتذرّع في تصرفاته بزخرف القول، بل كان مقتصد الحديث، شديد الاهتمام بقضايا بلده، كثير الهمّ والغمّ لما ينتابها من الأحداث السيّئة والمواقف الرّعناء، وكان لا يهدأ له بال ولا يغمض له جفن حتّى يتقصّى الأخبار ويطّلع على الحقيقة، وله من تجربته الطويلة في إدارة شؤون النّاس إلمام بالخفايا والأسرار التي تستعصي على الرجل العاديّ، فيقرأ بين السطور ثمّ يتبيّن الدوافع والبواعث، من كلّ موقف أو حادث، كان يعفّ عن الأموال العامّة، ويبالغ في التحرّي إلى حدّ الإضرار بنفسه ومصالحه -أحيانا-. فاضطر أن يستعين في إنفاق عائلته بفتح متجر صغير في البلد يقوم عليه المرحوم: هيبة بكير بن عيسى.

وبحكم نشأته الفقيرة -كما تقدّم- كانت تبدو على وجهه مسحة من كآبة تخفي وراءها نفسا جياشة بالأحاسيس والمشاعر الجريحة، وعلى ذلك كان له ذوق رفيع بالفنّ والجمال، وميل كبير إلى الإمتاع والإيناس مع أصدقائه ورفاقه في الدّرب.

وبعد: فإنّ فَتَانا كان الأمثل في لدائه وأقرانه، وهو جدير بالمواصفات التي ذكرها الشّاعر "إيليا أبو ماضي" في الفتى الأفضل إذ يقول:

مضى زمن كان فيه الفتى يباهي بما قومه أثلوا

ويرفعه في عيون الأنام ... ويخفض من قدره المترل
فلا تقعدن عن طلاب العلا ... و تعذل بلادك إذ تعذل
فإنّ الخلائق حتّى عدا ... ك متى ما سبقتهم هللوا
فثابر بجدّ على نيلها ... فليس يخيب الذي يعمل
وكن رجلا ناهضا ينتمي ... إلى نفسه عندما يسأل
إذا كنت في موطن خامل ... وفزت فأنت الفتى الأفضل

فطوبى لمن رفع من قدره، واحترمه النّاس لحسن ذِكره.

العطف: يوم الجمعة: 1428هـ / 17 نوفمبر 2007م

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاتمة

وبعد: فقد واكبت في رحلة عمري أغلب أحداث القرن العشرين، أي من أواخر عقده الثالث وما كنت عن أحداثه القريبة قبل ذلك بمعزل، وشاءت حكمة الله أن يمتدّ بي العمر إلى طلائع الحادي والعشرين. فلا يمكن للأجيال الحاضرة على ما تعيشه من تطورات جذرية بالكشوفات العلمية سيّما في مجال الاتصالات، لا يمكن لها أن تتصوّر كيف كانت بلدتنا الطيّبة الوديعة تعيش في أوضاع التخلّف المقيت، وكيف كانت تعاني من كابوس الثالوث البغيض: الجهل والمرض والفقر، يزيد من ضراوته الحكم الاستعماري البغيض، سيّما وقد عاش القرن الماضي حربين عالميتين، وذاقت بلادنا صعوبات الحرب التحريرية.

فعلى تلكم الأوضاع المتردية، وعلى قدر حجم تلك المعاناة ندرك مجاهدة ونضال ذلك الجيل الرائد الذي اعتبرناه من طلائع النهضة الإصلاحية المباركة التي نجني ثمارها اليوم ازدهارا معرفيا، وتقدّما حضاريا برزت معالمه في كلّ مجالات الحياة، وانتعاشا اقتصاديا يكاد يفضي بنا إلى حدّ الترف والبذخ، وما يفرزه ذلك من النتوءات والتجاوزات.

وإذا خصّصت بالذّكر أولئك الرجال الأفذاذ على اختلاف أقدارهم ومستوياتهم، فلاعتبارهم ركائز لتلك النهضة المباركة، ومن الطبيعيّ أن يكون حولهم رعيل من الشباب الواعي كانوا هم الطاقة الدافعة لعجلة التطوّر والتغيير، وقد يكون هناك رجال آخرون بمثل ذلك الوزن، ولكنّهم تموقعوا في الاتجاه المعاكس، كما تقتضيه سنّة الله في تدافع الأجيال، واختلاف التطلعات

والآمال. ولا شكّ أنّ الجميع يدّعي في مسعاه خدمة البلد ومراعاة الصالح العالم، ولكن من الزاوية التي ينظر منها، ومن منطلق الفكرة التي يقتنع بها، والله وحده يعلم المفسد من المصلح، فيجازي كلاّ بما يستحقه إنّه كان بعباده خبيرا بصيرا.

ويعلم الله أنّني في هذا العرض التاريخي لتراجم بعض الشخصيات لا أزكّي على الله أحدا، ولا ألوم أحدا إن رأى غير ذلك في إحدى الشخصيات المترجم لها، بل أحترم كلّ رأي صادر عن موضوعية وإنصاف، واختلاف الرأي لا يفسد للودّ قضية، وحسبي بهذا العرض المتواضع أنّني عبّرت عن قناعة، وأنصفت رجالا كانوا ذات يوم يحترقون لتحيا الجماعة، وكانوا رمزا للتضحية والإقدام والشجاعة، خلّدوا أسماءهم في ذاكرة التاريخ، فلا تنساهم الأجيال فطوبى لهم وحسن مآب.

كلّ يزول وينقضي أمّا الحِمى فوديعة الآباء للأبناء

جمعنا الله بهم في رفرف الخلد وفي جنّة النعيم.

العطف يوم الجمعة 03 ذو الحجة 1430هـ / 20 نوفمبر 2009م

المؤلف

سعيد محمد بن إبراهيم - كعباش -


بعض صور
تحضارية هامة

تنبيه هام

إنّ الصور التذكارية الواردة في هذا الركن ليست إلاّ محاولة لرصد مختلف النشاطات التي قام بها المترجم لهم مع إخوانهم ممّن قد يكتب التعريف بهم بفضل المجدين من أبنائنا كما أشار إلى ذلك المؤلف نفسه الشيخ محمد بن إبراهيم سعيد كعباش. تقبّل الله من الجميع أعمالهم الخيرية وجزاهم عن الأمّة والأجيال خير الجزاء.

هذا ولم يورد إلاّ ذكر المترجم لهم. فمعذرة لكلّ من هو موجود في إحدى هذه الصور ولم يُشر إليه.



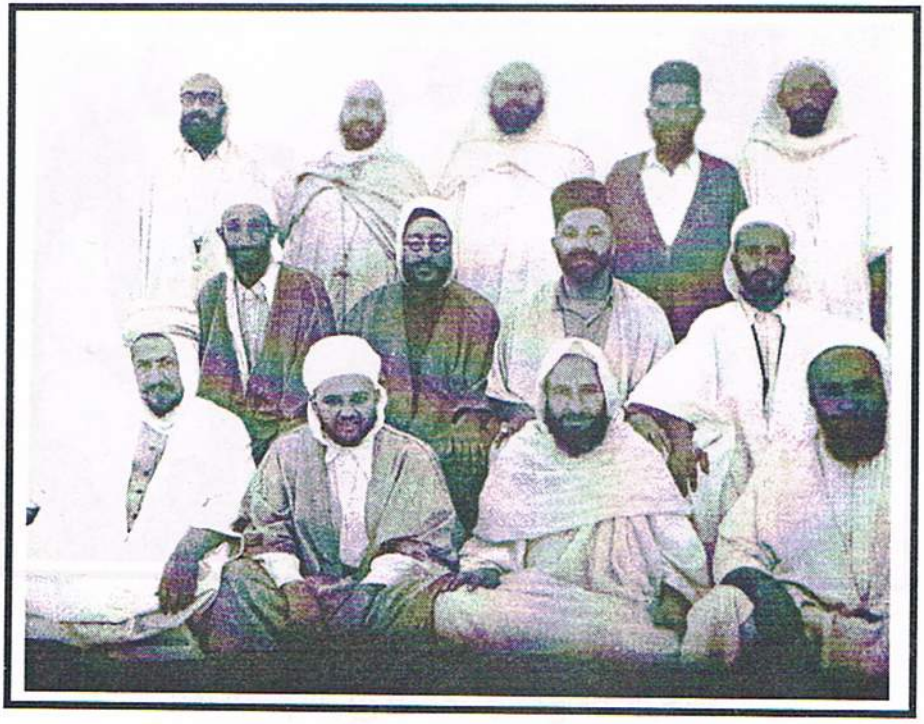






...





صـــورة أخرى لإدارة جمعية "النهـضـة" سنة 1948

من اليميـن إلى اليســـار

الواقفون: الحاج إبراهيم محمد بن بهون، اسماوي باحمد بن بكير، بكلي عبد الرحمن بن عمر، ابن يوسف سليمان بن الحاج داود، هيبه محمد بن حني.

صف الوسط : بكلي حاجو بن سليمان، الحاج عيسى صالح بن الحاج عمر، بن لولو صالح بن الحاج محمد، اسماوي الحاج حمو بن صالح.

القاعدون: الحاج عيسى إبراهيم بن الحاج محمد، باباعمي الحاج أحمد بن الحاج موسى، بكلي أحمد بن الحاج يحي، بوبكر الحاج محمد بن عمر.



صورة لإحدى تشكيلات إدارة النهضة بعد تدعيمها بالإطارات والكفاءات الشابّة

ويظهر من بين الواقفين في آخر الصورة من اليمين إلى اليسار كل من المترجم لهم: الحاج إسماعيل يحي وهو الثالث ثمّ الشيخ كعباش وسماوي عيسى وبكلي بابه. وبعد الأستاذ خير الناس عيسى يظهر السيد هيبة بكير.



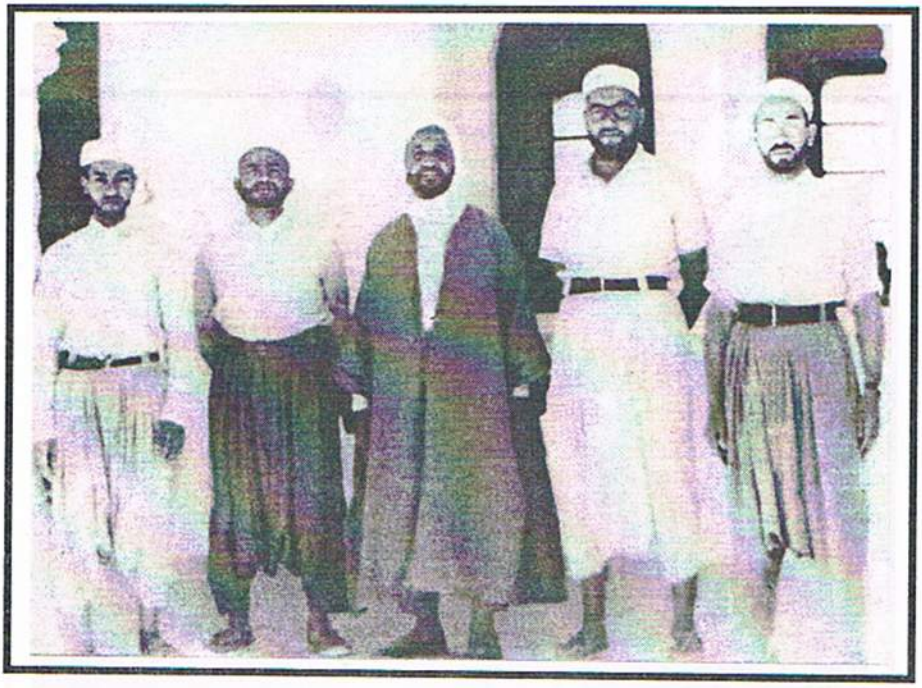






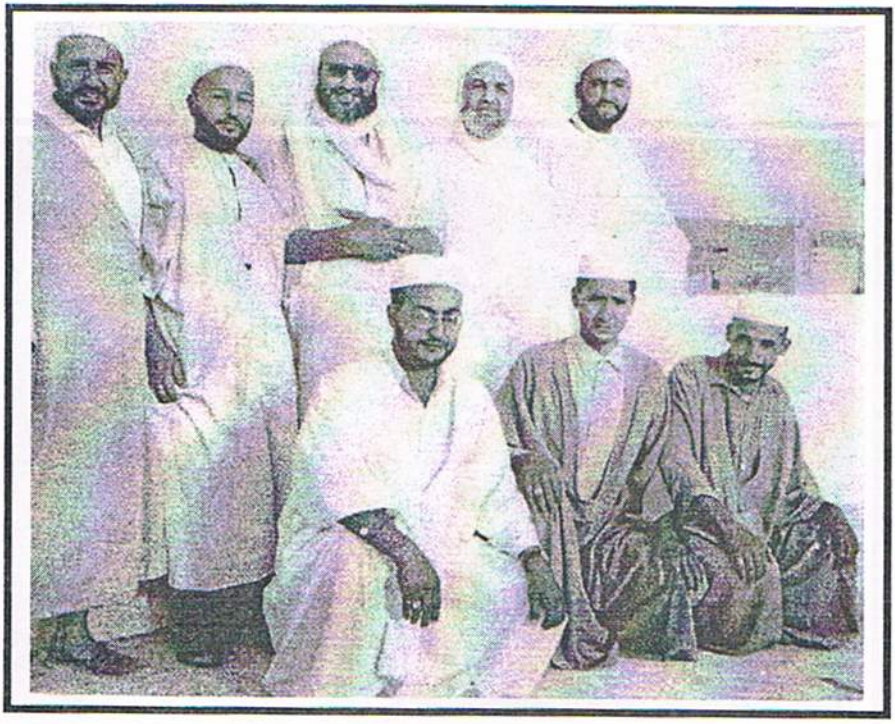


صورة لنفس المدرسة كما هي الآن بعد تمام البناء.



صورة تذكارية لطاقم التعليم الأوّل بمدرسة "النهضة" بالعطف

يتوسطهم رئيس الجمعية الشيخ ابن يوسف سليمان. ومن المترجم لهم كذلك: المؤلف على يسار الشيخ سليمان، وعلى يمينه الأستاذ بكلي بابه الحاج أحمد، والشيخ الحاج أيوب إبراهيم القرادي.



صورة تذكارية لطاقم التعليم بمدرسة "النهضة" بالعطف وبعض المشرفين عليها بداية الستينيات

من اليمين إلى اليسار:

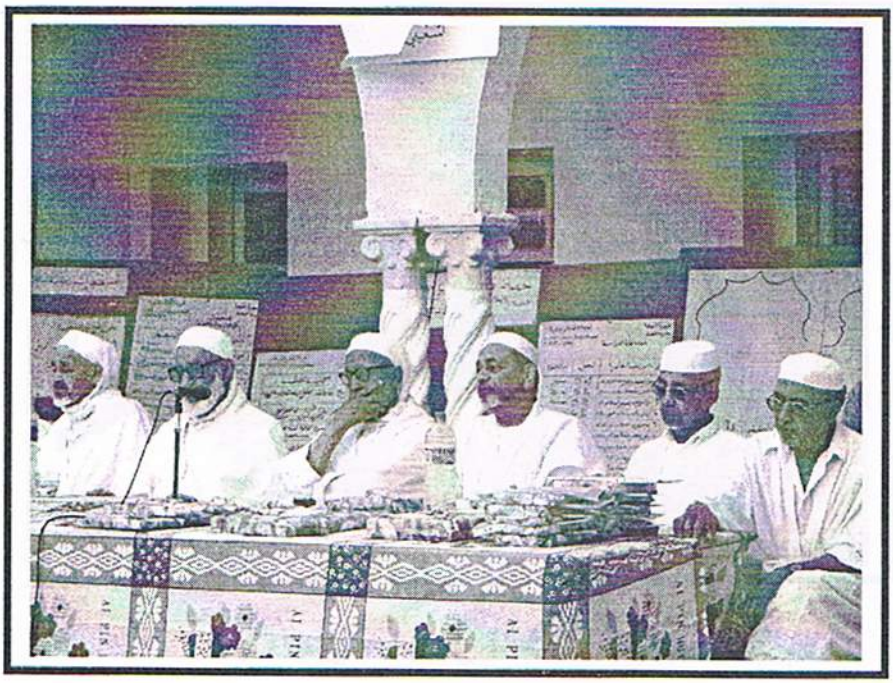
الواقفون: الشيخ محمّد سعيد كعباش، الشيخ سليمان ابن يوسف رئيس الجمعية، الشيخ الحاج أحمد باباعمي، الأستاذ "الطالب" عيسى سماوي الذي ترأس الجمعية فيما بعد، الشيخ إبراهيم الحاج أيوب القرادي.

الجالسون: الأستاذ "الطالب" يحي الحاج إسماعيل، الأستاذ محمد الحاج مسعود، الأستاذ أحمد بكلي بابه "الطالب بلال".



صورة عرض لأشغال فرع التكوين المهني التابع لمدرسة النهضة

ويظهر فيها خاصة رئيس الجمعية السيد سماوي عيسى وهو الثالث من يسار الصورة وإلى جانبه الشيخ كعباش ثمّ الأستاذ بكلي بابه والأستاذ الحاج إسماعيل يحي، وهم من المترجمين لهم.



صورة لحفل توزيع الجوائز

يظهر فيها من يسار إلى يمين الصورة خاصة كل من المترجم لهم:

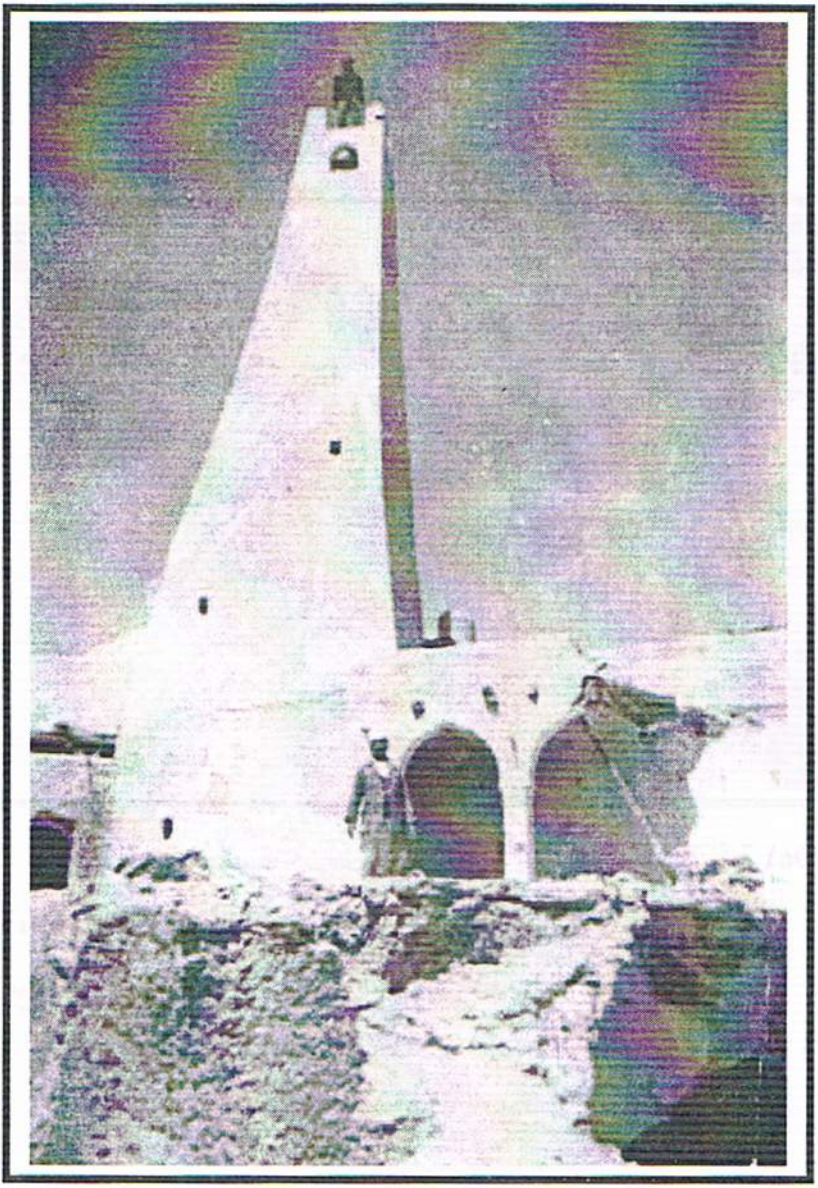
الأستاذ الحاج إسماعيل يحي والشيخ كعباش والأستاذ بكلي بابه الحاج أحمد.



صورة لفوج من أفواج كشافة "النهضة"

في نشاط وسط السوق الداخلية للعطف

وهي إحدى نشاطات الجمعية.



صـوة لصومعـة المسجـد العتـيق بالعـطـف

قبل تجــديده سنة 1961



صورة تذكارية بمناسبة تجديد بناء المسجد العتيق بالعطف سنة 1961

ويظهر وسط جمع من المتطوعين من المترجم لهم:

الشيخ الحاج أحمد قاعدا في الواجهة وإلى جانبه واقفا باباعمي الحاج إبراهيم.



صورة تذكارية بمناسبة تجديد بناء المسجد العتيق بالعطف سنة 1961 عند رفع قواعده

ويظهر فيها الشيخ بيوض إبراهيم داعيا الله، كما يظهر أمامه الشيخ عبد الرحمان بكلي. وفي مقدمة الصورة نفسها الشيخ القرادي، وفي آخرها من اليسار إلى اليمين خاصّة كل من: المترجم لهم الشيخ كعباش ثمّ الأستاذ بكلي بابه بلال، والشيخ الحاج أحمد باباعمي.



صورة تذكارية أخرى لنفس المشروع

ويظهر فيها واقفا الأستاذ بكلي بابه الحاج أحمد بلال.



صورة لجلسة تشاورية لبعض العزابة مع الشيخ بيوض

وهم من يمين الصورة إلى يسارها: الشيخ الحاج أيوب إبراهيم القرادي، الشيخ عبد الرحمان بكلي، الشيخ ابن يوسف سليمان، والأستاذ بكلي بابه الحاج أحمد.

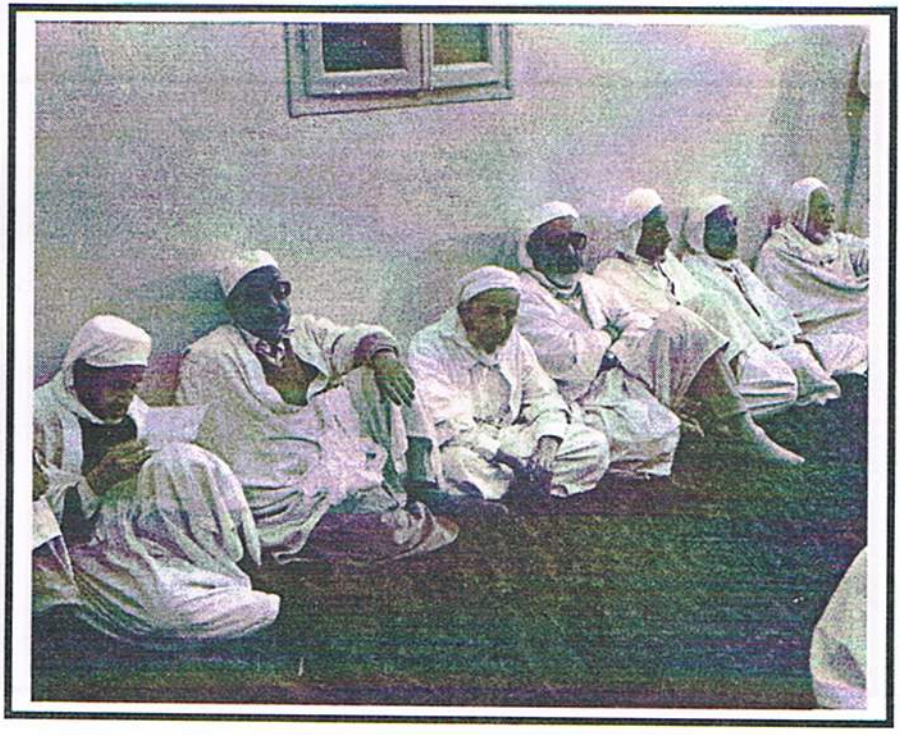


صورة تذكاريـة لبعض أعضاء حلقة العـزابة

بالعطف عند انعـقاد الصلح بين الحلقـتين سنة 1962

ويظهر فيها متوسطين الجلسة كل من الشيخ عبد الرحمان بكلي وإلى جانبه الشيخ يوسف حمو علي ثمّ الشيخ ابن يوسف سليمان.

كما يظهر في المقابل وعلى يمين الصورة خاصة كلّ من الشيخ كعباش والأستاذ بكلي بابه ضمن إخوانهم.



صورة لجانب من الهيئة الدينية بالعطف

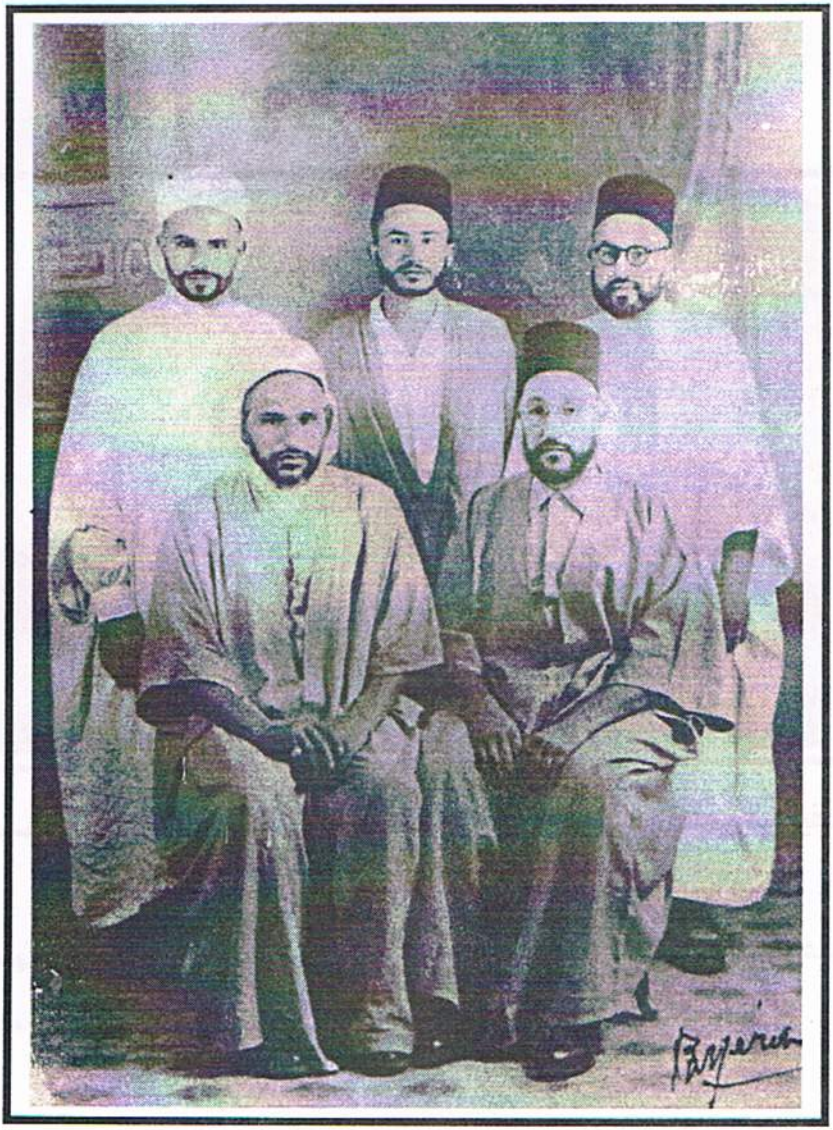
والمترجم لهم كلّهم من اليمين إلى اليسار:

الشيخ ابن يوسف سليمان، الطالب سماوي عيسى، الإمام بكلي محمد بن الحاج محمد، الشيخ محمد سعيد كعباش، الشيخ الحاج أيوب إبراهيم القرادي، الأستاذ بكلي بابه الحاج أحمد بلال والأستاذ الحاج إسماعيل الحاج يحي.



صورة تذكارية لعضوين من العزابة

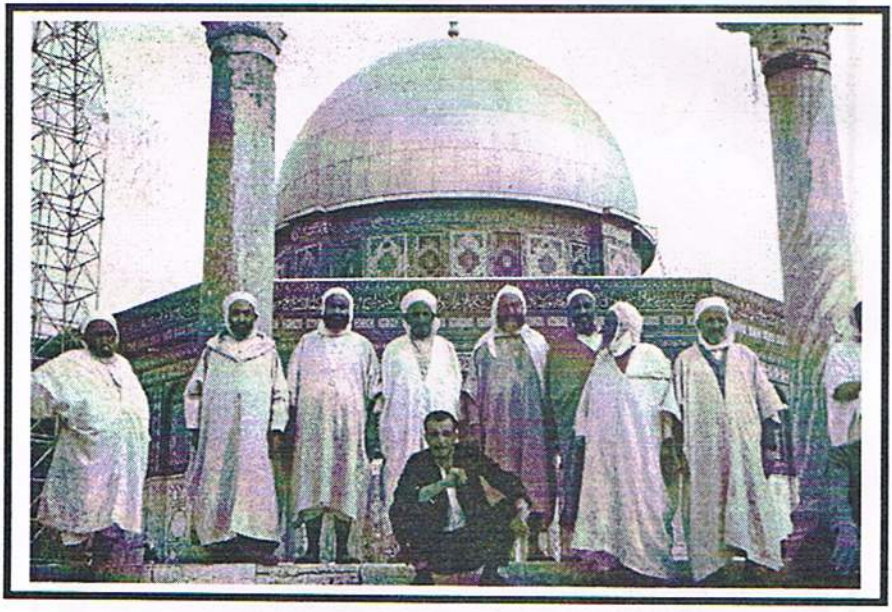
والمترجم لهما: الإمام بكلي محمد بن الحاج محمد والشيخ الحاج أيوب إبراهيم القرادي مع أخوين لهما كريمين في جلسة في السوق الخارجي للعطف طابعها البساطة والتواضع.



صورة تذكارية لمترجمين لهم مع الشيخ عدون

وهم: السيد ابن لولو الحاج صالح وهو الجالس إلى جانب الشيخ عدون.

ومن يمين الصورة إلى يسارها كل من: باباعدون الحاج إبراهيم، الحاج أيوب الحاج إبراهيم القرادي وباباعمي الحاج إبراهيم.



صورة تذكارية لمجموعة من الحجاج أمام قبة الصخرة بالقدس الشريف في رحلة عبر البر

ويظهر كل من: السيد باباعدون الحاج مسعود وهو الأوّل من اليمين ثمّ الشيخ باباعمي الحاج أحمد بن الحاج موسى وهو الرابع وسط رفاقه.



صـورة تذكاريـة بمناسبة إحياء ذكـرى الشيخ أبي اليقظان

ويظهر فيها من يمين الصـورة إلى يسـارها كـل مـن: الشـيخ بكلـي عبـد الرحمـان، الشيخ الحاج أيوب إبراهيم القرادي وهو يتناول الكلمة ثمّ السيد سعيد الحاج صـالح والشيخ بكلي أحمد بن الحاج يحي. ويظهر بنظاراتـه الداكنـة الأسـتاذ بكلـي بابـه الحاج أحمد بلال.



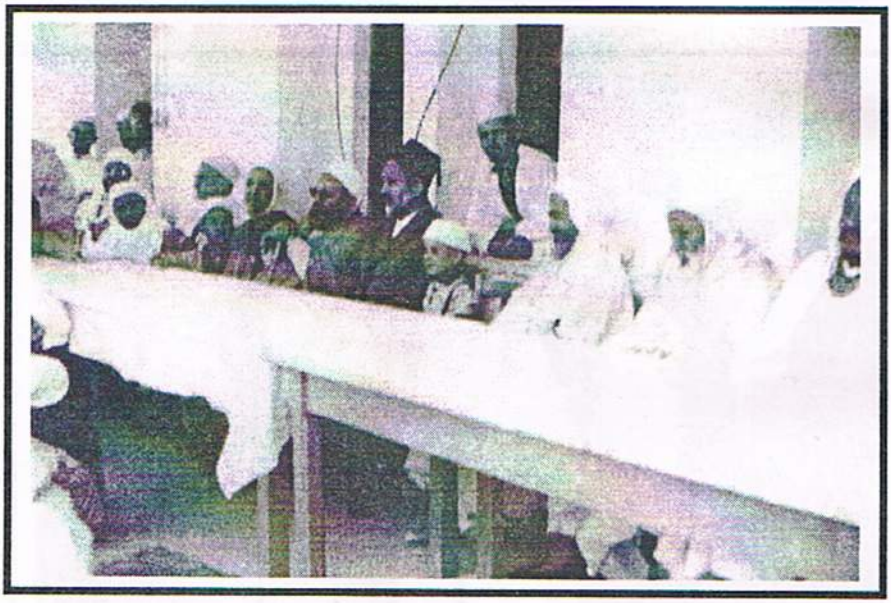
صورة تذكارية بمناسبة ملتقى الفكر الإسلامي بتيهرت

ووسط جمع من المشايخ والأساتذة والطلبة الحضور يظهر في الصف الثاني خاصّة الشيخ الحاج أيوب إبراهيم القرادي وهو الخامس من يمين الصورة.



صورة تذكارية بمناسبة ملتقى الفكر الإسلامي بوارجلان

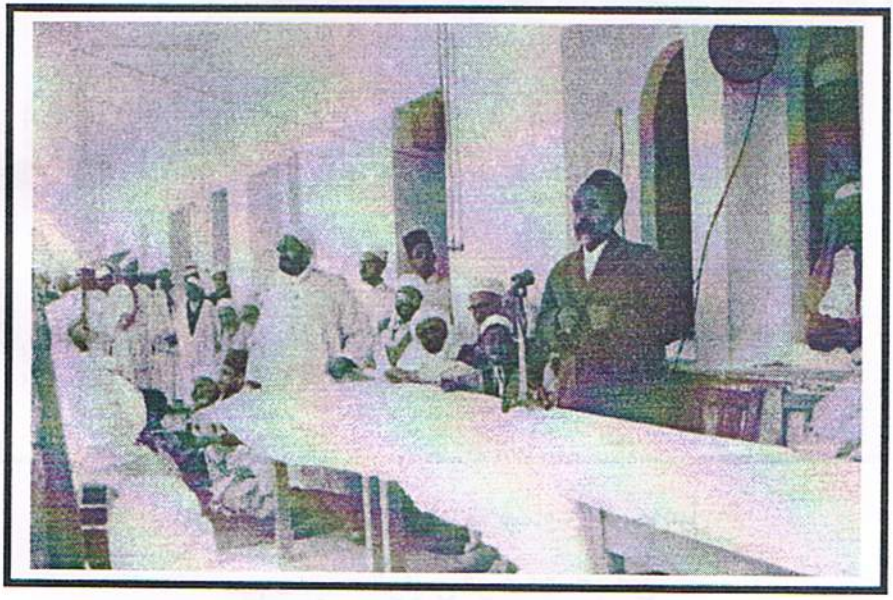
وزيارة وفد من العلماء للمعالم التاريخية بالعطف بقيادة الوزير الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم الذي يقف إلى جانب كلّ من الشيخ الحاج أيوب إبراهيم القرادي والشيخ ابن يوسف سليمان.



صورة تذكارية لاستقبال المجاهد سماوي إسماعيل

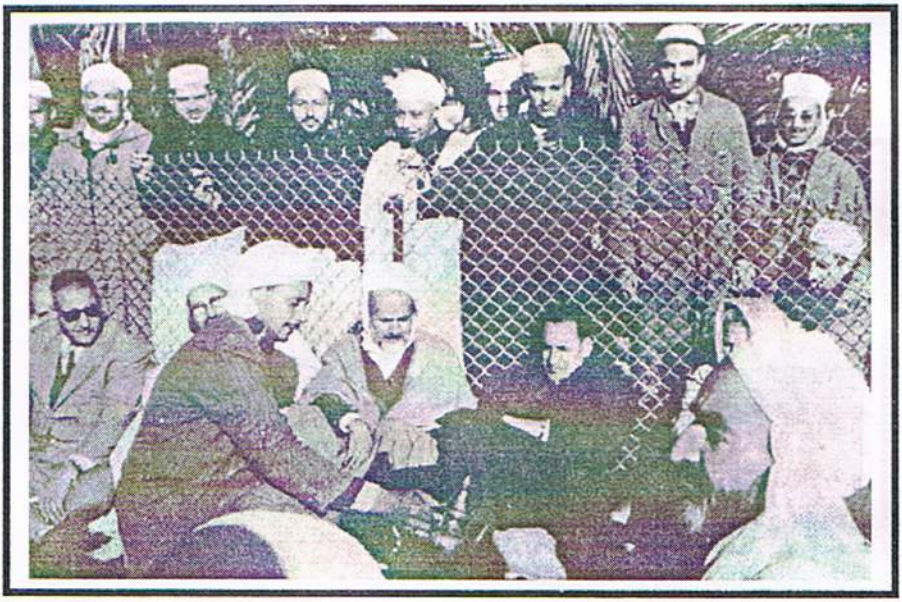
بالعطف عند رجوعه إلى أرض الوطن سنة 1962

ويظهر بطربوشه وإلى يمينه كل من المترجم لهم خاصّة: الشيخ بكلي عبد الرحمان، الشيخ ابن يوسف سليمان، ثمّ الشيخ بكلي أحمد بن الحاج يحي.



صورة تذكارية أخرى لاستقبال المجاهد سماوي إسماعيل بالعطف عند رجوعه إلى أرض الوطن سنة 1962

ويظهر بطربوشه واقفا يلقي كلمته وإلى يمينه واقفا خاصّة الشيخ الحاج أيوب إبراهيم القرادي.

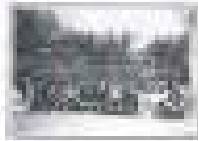


صورة تذكارية للمجاهد سماوي إسماعيل
مع صديقه الرئيس فرحات عباس

ووسط جمع من إخوانه يظهر بلباسه التقليدي وعلى يمينه خاصة الشيخ باباعمي الحاج أحمد بن الحاج موسى.













[illegible]











